الدكتور صادق جلال العظم



الصهيونية والصراع الطبقي

دار العودة - بيروت

الصهيونية والصراع الطبقي

الدكتور صادق جلال العظم

الصهيونية والصراع الطبقي

دار العودة - بيروت

الطبعة الاولى ١/٢/١٩٧٥

« اذا كنا نحن اليهود مستعدون ان ندعم الموقع البريطاني في الشرق الاوسط ، واذا كنا مستعدون ان نقف حراسا الى جانب انكلترا على قنـاة السويس وعلى طريق الهند ، وان نمنع النفوذ الاجنبي المعادي من الهيمنـة والدخول في نزاع مع المصالح الحيوية للامبراطورية ، عندئذ نكون قد ادينا خدمة لانكلترا تستوجب اهتماما فعليا » ٠

ماكس نورداو

« بالقياس الى الاموال والجهود المستثمرة نجد ان مـــا فعلته اسرائيل لصالح الولايات المتحدة في الشرق الاوسط يفوق على الارجح كل ما قام به حلفاؤنا واصدقاؤنا المزعومون في المناطق الاخرى من العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ٠ ففي الشرق الاقصى لا يمكننا الحصول على مساعدة احـد تقريبا في فيتنام ٠ أما هنا فقد ربح الاسرائيليون الحرب بمفردهم وخلصونا من المأزق ، كما خدموا مصالحنا بقدر ما خدموا مصالحهم » ٠

تصريح لمسؤول كبير في وزارة الخارجية الامريكية ١٩ حزيران ١٩٦٧

I

الطابع التاريخي للمسألة اليهودية

دخلت « المسألة اليهودية » الوعي السياسي العربي الوطني منذ فترة قصيرة نسبيا بالقياس الى المدة الزمنية الطويلة (عدة قرون) التي شهدت بروزها وتطورها وتفاقمها في اوروبا منذ افول العصور الوسطى · يضاف الى ذلك انها دخلت الوعي السياسي العربي بصورة غير مباشرة وتدريجية وذلك بأكثر من معنى : لقد تم التعرف الاولي على المسألة اليهودية باعتبارها مشكلة اوروبية اساسا مع التحسس ، منذ البداية ، بأنها تمس المستقبل العربي الوطني والسياسي بصورة خاصة ، وكما لا تمسه اية قضية اخرى ناتجة عن تغلغل نفوذ الدول الرأسمالية الاوروبية ومصالحها الاستعمارية في منطقة الشرق الاوسط · واكتسب هذا الوعي اهمية متزايدة في اوساط القوى الوطنية العربية مع ادراكها بان للمسألة اليهودية في اوروبا صلة مباشرة ، بشكل او بآخر ، بمشاريع الحركة الصهيونية لتهجير اليهود الى فلسطين (اي حل المسألة اليهودية) واقامة دولة حديثة فيها عن طريق الاستعمار الاستيطاني · وكما هو معروف تعود بدايات هذا الوعي الى ثمانينات القرن الماضي اي الى الفترة التي شهدت المحاولات الاولى للهجرة اليهودية الاستيطانية الى فلسطين · وعلى سبيل المثال نجد تعبيرا مبكرا عن ذلك كله عند كل من المصلح الاسلامي رشيد رضا والسياسي الفلسطيني المثقف يوسف الخالدي الذي أقر بوجود المسألة اليهودية في اوروبا ولكنه حذر من ان تسويتها عن طريق اقامة دولة في فلسطين ، كما تريد الحركة الصهيونية ، سيصطدم بمعارضةعربية عنيفة ودموية · وبناء على

ذلك اقترح اقامة وطن قومي لليهود في غير فلسطين ·(١) كذلك اشار نجيب عازوري في كتابه « يقظة الامة العربية » (٢) الصادر في باريس عام ١٩٠٥ ، الى حتمية الصدام المادي بين أهداف الحركة الصهيونية في فلسطين والتحرك القومي العربي الذي كان يتبلور داخل الدولـــة العثمانية · وقبـــل ذلك قام وجهاء القدس في أيار ١٨٩٠ بالاحتجاج على مواقف متصرف سنجــق القدس رشاد باشا بسبب سياسته المتحيزة للصهيونيين · وفي حزيران ١٨٩١ تقدموا بعريضة لرئيس الوزارة العثمانية حددوا فيها المطلبين الاساسيين للحركـــة الوطنية الفلسطينية : منع هجرة اليهود الى فلسطيـــن ، وتحريم استملاكهم للاراضي فيها · (٣)

ومع ذلك يمكننا ان نقول بصورة عامة ان الفـــكر السياسي الذي ساد في كافة مراحل تطور المشرق العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر ظل مفتقرا الى تحليل علمي جاد وفهم تاريخي حقيقي لطبيعة المسألة اليهودية ومقوماتها ، على الرغم من تأثر المنطقة تأثرا سلبيـــا بالغا بنتائـــج تفاقم هذه المشكلة الاجتماعية في اوروبا الرأسماليـــة ·طبعـــا ، هذا التعميـــم لا ينكر وجود استثناءات في أوساط الوطنيين والتقدميين والماركسيين العرب الذين حققوا في زمانهم فهما تاريخيا أفضل لطبيعة المسألة اليهودية · الا ان هؤلاء ظلوا يشكلون حالات فردية متقدمة في وعيها العلمي والسياسي دون ان يتركـــوا تأثيرا كبيرا على التيارات السياسية التي سادت او علـــى مستـــوى وعيها ونوعية فكرها بالنسبة لهذه المسألة بالذات · لذلك لا نجانب الصواب كثيرا اذا قلنا ان الفكر السياسي العربي في مراحله المختلفة ظل أسير نظرتين في فهمه للمسألة اليهودية وما استتبعته من نتائج ضخمة : ١) النظرة السلفيـــة التقليدية الضاربة جذورها في ثقافة الاقطاع والتي لا تـــرى ، بالتالي ، في

....

(١) عبد الوهاب كيالي ، « تاريخ فلسطين الحديث » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٥٠ ·

(٢) المرجع السابق ، ص ٥١ ·

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٩ ·

المسألة اليهودية سوى صراع ديني معقد بين أطراف ثلاثة هي اليهودية والمسيحية والاسلام ٠ ٢) النظرة الايديولوجية المثالية التي انتجتها ونشرتها البورجوازية الاوروبية حول المسألة اليهودية وحول اللاسامية ثم نقلتها الى الاوساط الاكثر وعيا وثقافة لدى الشعوب التي وقعت تحت نير استعمارها بكافة اشكاله ٠ في الواقع ، ان المنهج الذي ساد في الفكر السياسي العربي بتياراته الرئيسية ، بالنسبة للمسألة اليهودية وكل ما تفرع عنها من مشكلات وقضايا ، كان في معظم الاحيان ، مزيجا من هاتين النظرتين المذكورتين ولكن بنسب متفاوتة حسب الظروف والاوضاع المؤثرة في كل مرحلة من مراحل تطوره ٠

ادى الانتشار المضطرد للوعي الاشتراكي والطبقي في أوساط القوى الوطنية العربية والفلسطينية ، (وخاصة بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧) الى شد الكثيرين الى المنهج المادي التاريخي في تحليل المسائل الاجتماعية والسياسية وفهمها بما في ذلك المسألة اليهودية وكل ما يتعلق بالخلفية الاقتصادية والاجتماعيةالتي تولدت منها والقضايا اللاحقةالتي تفرغت عنها وبالاضافة الى المواقع الجديدة التي اكتسبها هذا المنهج فقد شهدت الفترة ذاتها اهتماما محليا وعالميا كبيرا تركز على دراسة مقومات القضية الفلسطينية وخلفيتها التاريخية على أسس جديدة الى هذا الحد أو ذاك ٠ وعلى سبيل المثال لا الحصر اذكر في هذا المقام : أ) مقالة مكسيم رودنسون الشهيره « اسرائيل واقع استعماري » التي صدرت عشية حرب حزيران في عدد مجلة « الازمنة الحديثة » الذي خصصه سارتر للنزاع العربي الاسرائيلي (٤) ٠ وقد ترجمت هذه الدراسة في مصر وسوريا ولبنان ولقيت انتشارا عربيا واسعا ٠ ب) قيام رودنسون باعادة احياء كتاب أبراهام ليون حول التفسير الماركسي للمسألة اليهودية بنشره للكتاب مع مقدمة في باريس عام ١٩٦٨ ٠ كذلك أعيدت الترجمة الانكليزية للكتاب الى التداول بنشرها

....

(٤) العدد ٢٥٣ ، ١٩٦٧ ٠

مجددا في نيويورك عام ١٩٧٠ مع مقدمة كتبها ناثـان واينشتوك حيث ناقش بعض الآراء الواردة في مقدمة رودنسـون · وصـدرت في السنة نفسها الطبعة الاولى من الترجمة العربية لهذا الكتاب الهام عـن دار الطليعة في بيروت تحت عنوان « المفهوم المادي للمسألة اليهودية » (٥) · ج) المجلد الذي اعده ولـيد الخالدي (٦) واصدرتـه مؤسسة الـدراسات الفلسطينـية باللغة الانكليزية والذي جـمع فـيه نصوصا ووثائـق هامـة تتعـلق بتاريخ القضية الفلسطينية والحركة الصهيونية منذ بداياته حتـى عـام ١٩٤٨ · (د) الترجمة العربية التي أصدرها مركز الابحـاث التابـع لمنظمة التحرير الفلسطينية لكتاب آرثر هرتزبرج « الفـكرة الصهيونية » والذي يحتوي عـلى أهم النصوص الفكرية والايديولوجيـة الصهيونيـة منذ أربعينات القـرن الماضي حتى عصر بن غوريون ·(٧) (هـ) الترجمة العربية التي أصدرها مركز الابحاث في عام ١٩٧٢ لمعظم الدراسات التي جمعها الدكتور ابراهيم ابو لغد حول استعمار فلسطين واستيلاء الحركة الصهيونية عليها · (٨) وقد صدرت

....

(٥) صدرت الطبعة الثانية في ١٩٧٣ مع مقتطفات قصيرة من مقدمة رودنسون ورد واينشتوك عليها · والطبعة الثانية اقل رداءة من الاولى نوعا ما ·

(٦) **From Haven to Conquest,** 1971.

(٧) صدر الكتاب تحت عنوان « الفكرة الصهيونية » ولكن للاسف لم ترد فيه ايـة اشارة تبين انه ترجمة لكتاب وضع اصلا باللغة الانكليزية مما يخلق انطبـاعا عند القارىء العربي بان مركز الابحاث هو الذي جمع نصوص الكتاب وترجمها · راجع ملاحظاتنا النقدية على الترجمة في « شؤون فلسطينية » العدد التاسـع ، ايار ١٩٧٢ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٥ ·

وبهذه المناسبة اريد أن اذكر انني حاولت قدر المستطاع الاشارة الى الترجمـات العربية المتوفرة بالنسبة للاستشهادات والمراجع الواردة في هذه الدراسة ، علما بان معظمها غير دقيق وقسما منها رديء والقليل منها جيد (ترجمات الدكتور اسعد رزوق ، مثلا) وفي كل الاحوال ادخلت التعديلات اللازمة والتصحيـحات المطلوبة على هذه الترجمات وفقا لما بدا لي بانه يزيد من وضوحها ودقة تعبيرها عن المعنى الاصلي ·

(٨) كتاب :
The Transformation of Palestine, Northwestern University Press, Evanston, Illinois, 1971.

الترجمة تحت عنوان « تهويد فلسطين » ٠ (و) صدور كتاب من الحجم الكبير يؤرخ مجددا للحركة الصهيونية وضعه الكاتـــب الصهيوني و « الخبير في شؤون الشرق الاوسط » والتر لاكور تحت عنوان « تاريــخ الصهيونية » ٠ (٩)
(ز) كتابا الدكتور اسعد رزوق « اسرائيل الكبــرى » (١٩٦٨) و« الصهيونية وحقوق الانسان العربي » (في جزأين ١٩٦٨) الصادران عن مركز الابحاث في بيروت ٠ وقد قدم الدكتور رزوق مادة غزيرة وهامة وجديدة على القارىء العربي حول تاريخ الحركة الصهيونية وفكرها وايديولوجيتها مركزا بصورة خاصة على مصادرها ومراجعها الالمانية التي لم تكن معروفة عربيـــا علــى نطاق واسع ٠ لذلك لا بد منالاشارة هنا الى ان هدف هذه الدراسة الرئيسي هو تقديم صورة تحتوي على قدر من الشمول والتكامل الى القارىء العربــي عن المسألة اليهودية (التي تشكل بمعنى ما الخلفــية التاريخـــية للحركـــة الصهيونية) وعن المقومات الرئيسية لهذه الحركة وذلك استنادا الى اكبر قسم ممكن من المادة الغزيرة التي اصبحت متوفرة حول الموضوع والــى المنهـج المادي التاريخي في التحليل ٠ ★

من النتائج التي يؤدي اليها اعتمـــاد هذا المنهج العلمـــي تبديد أوهام النظريات المثالية والتفسيـــرات الايديولوجية للمسألـــة اليهودية مما يمهد الطريق أمام المحاولات الجديدة لتحديد طبيعتها تحديدا علميا دقيقا عن طريق وضعها ضمن سياقها التاريخي الذي نتجت عنه ٠ وتحمـــل هذه المحاولات اهمية خاصة لان الحركة الصهيونية اعتمدت ، كما هو معـــروف ، في بنـــاء فكرها وعقيدتها على هذه التفسيرات المثاليـــة التي تضرب جذورهـــا في بقايا الثقافة الاقطاعية الموروثة بالاضافة الى الثقافة البورجوازية السائـدة

....

(٩) Walter Laqueur, **A History of Zionism**, London, 1972.

★ بعد تسليم مخطوطة هذه الدراسة الى الناشر صدر كتاب بديـــعة امين « المشكـلة اليهودية والحركة الصهيونية » (دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٤) ٠ يجد القارىء تعليقاتي على عدد من وجهات نظر السيدة بديعة في بعض الهوامش الاضافية ٠

ونوازعها الايديولوجية والطوباوية الشهيرة · على سبيل المثال ، حصرت النظريات المثالية المسألة اليهودية في قضية تفسير استمرار وجود الجماعات اليهودية الموزعة في مجتمعات غريبة عاشت داخلها على مدى عصور طويلة دون ان تنقرض كما انقرضت ، بشكل عام ، معظم شعوب « العالم القديم » · وبطبيعة الحال تركز هذه النظريات في تفسيرها لهذه الظاهرة على العوامل الفوقية في الحياة اليهودية وعلى الروابط المعنوية والدينية لهذه الجماعات ، بالاضافة الى عوامل ارادية محض مثل القول بان اليهود « اختاروا » بأنفسهم العزلة النسبية تمسكا منهم بقيمهم الروحية والوطنية السامية ★ · وتشط بعض هذه الآراء باتجاه اعتبار استمرار وجود اليهود على أنه نوع من « اللغز » الذي تقف دراسة التاريخ حائرة امامه ، او هو نوع من شبه المعجزة (وحتى المعجزة احيانا) التي تحدت مجرى التاريخ في بقائها على الرغم من كل الاضطهاد والعداء الذي تعرض له اليهود واليهودية عبر تاريخهما الطويل ، وبخاصة في العالم المسيحي · من هنا انتشرت النظرة العنصرية التي تبنتها الصهيونية وعززتها بقوة ، القائلة بان العداء للسامية (أي معاداة اليهود) ليس ظاهرة اجتماعية ترتكز الى

....

★ جدير بالاشارة هنا انه على الرغم من التحولات التي المحنا اليها اعلاه ما زلنا نجد ان مؤلفا مثل الدكتور محمود زايد – وهو استاذ التاريخ في الجامعة الامريكية – يقدم المسألة اليهودية والحركة الصهيونية وكأن شيئا لم يكن من كل ذلك · فهو يعود الى تكرار اسطوانة التفسير السيكولوجي والايديولوجي الساذج لظاهرة المسألة اليهودية وانحباس حياة اليهود داخل الجيتو وتعرضهم للاضطهاد بارجاعها كلها الى « نزعتهم الى الاستعلاء على غيرهم والانعزال عنهم » والى عجزهم عن التحرر من هذه النزعة ، والى تمسكهم بعقيدتهم الدينية · كما انه يقدم الصهيونية على أنها مجرد واحدة من الحركات السياسية الاكثر عدوانية التي ظهرت في اوروبا القرن التاسع عشر لتحقيق اهداف « لا سند لها في التاريخ او القانون الدولي »!! وانسجاما مع هذا العرض المثالي الفج يرجع الدكتور زايد اصول الحركة الصهيونية الى « مجموعة من المفكرين اليهود » ويعتبر هؤلاء هم المسؤولين عنها وعن نشأتها · في الواقع من يقرأ ما كتبه هذا المؤرخ يخرج بانطباع معاكس للواقع التاريخي اذ تبدو له الامور وكأنه لم يكن للصهيونية اي وجود قبل هرتزل (« تاريخ فلسطين : ١٩١٤ – ١٩٤٨ » ، دار القدس ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٧ – ١٠) ·

أسس اقتصادية وتاريخية (ويمكن استئصالها باستئصال اسبابها) ، بل هي صفة جوهرية ثابتة من صفات كل الشعوب والمجتمعات غير اليهودية ، اي انها خصلة متأصلة فيها لا تحول ولا تزول مهما كانت طبيعة الاحوال الاجتماعية او الظروف التاريخية والاقتصادية المحيطة بها . وقد بنى مؤسس الصهيونية السياسية ، ثيودور هرتزل ، الجانب الاكبر من فكره على هذا الافتراض التعسفي حتى انه يمكننا تلخيص نظرته الايديولوجية بالقياس البسيط التالي:

الامة اليهودية موجودة بسبب وجود العداء للسامية .
العداء للسامية موجود وجودا ابديا دائما .
اذن فالامة اليهودية موجودة وجودا ابديا دائما .

في مواجهة هذه النظرات المثالية والعنصرية الخاطئة ، أخذ المنهج المادي التاريخي في فهم المسألة اليهودية يمارس تأثيره القوي في الفكر السياسي العربي المعاصر استنادا الى الحقيقة التي بينها ماركس بأن ما كان يبدو على انه مجرد صراع ديني فوقي بين اليهودية والدولة المسيحية مثلا هو في حقيقته ليس الا صراعا بين قوى اجتماعية « علمانية » تتخفى تحت عباءة دينية لاسباب تتعلق بطبيعة الظروف التاريخية المحيطة بالصراع وبآليته وأساليب التعبير عنه والتعبئة له في مرحلة معينة . يصف ماركس منهجه في معالجة الموضوع في كراسه المبكر « حول المسألة اليهودية » بالعبارات المقتضبة التالية :

« نحن نرجع تناقضات الدولة مع دين معين من الاديان مثل اليهودية الى تناقض بين الدولة وعناصر علمانية محددة ... » (١٠)

ان النتيجة الجوهرية الاولى لهذا الاسلوب في المعالجة هي ايقاف المسألة اليهودية على قدميها وطرد النظريات المثالية والتفسيرات الايديولوجية من الساحة ، ومن ثم البحث عن طبيعة هذه القوى الاجتماعية « العلمانية »

---

(١٠) هناك ترجمة عربية متوفرة لكراس ماركس الا انها تفتقر الى الكثير من الوضوح وبعض الدقة : « المسألة اليهودية » ، ترجمة محمد عيتاني . التاريخ غير مذكور وكذلك الناشر .

اليهودية التي دخلت في صراع مع الدولة المسيحية (أو غيرها) ، وعن الاسباب المادية وراء تمكنها من الاستمرار في الوجود على الرغم من عنف الصراع ودمويته في كثير من الاحيان · أما النتيجة الثانية فتتلخص في ان صدق هذه المقدمات وعلميتها ينفي عن استمرار وجود اليهود واليهودية صفة « اللغز » الذي يقف التفسير التاريخي عاجزا أمامه ، أو صفة « شبه المعجزة » التي تحدت مجرى التاريخ ومنطقه ، كما تنفي كل ما يمت لهذه التصورات المثالية الخرقاء بصلة ، أي ان « سر » استمرار الوجود اليهودي يكمن في تاريخهم وتاريخ الشعوب التي تفاعلوا معها وليس في أي موضع آخر · وقد عبر ماركس عن هذه النتيجة بايجاز رائع في قوله المشهور : « بقيت اليهودية ليس على الرغم من التاريخ بل من خلال التاريخ وبفضله » ·

أما النتيجة الثالثة لهذا المنهج الثوري في معالجة المسألة اليهودية فتتعلق باسلوب البحث عن العناصر والعوامل الاساسية الكامنة وراء طرفي الصراع (والذي يهمنا الآن هو الطرف اليهودي منه) · وقد ثبّت ماركس هذه النتيجة في قوله المقتضب في كراس « المسألة اليهودية » :

« لن نبحث عن سر اليهودي في دينه ، بل سنبحث عن سر هذا الدين في اليهودي الحقيقي » ·

أي أن الاسلوب الماركسي يبتعد بالضرورة عن النزعة المثالية الداعية الى ارجاع هذه العناصر والعوامل الى الروابط المعنوية والدينية (البنى الفوقية بصورة عامة) ، ويشدد على ضرورة البحث عنها في « اليهودي الحقيقي » ، أي في الدور الاقتصادي والاجتماعي الذي قامت به الجماعات اليهودية داخل المجتمعات المختلفة التي عاشت فيها عبر العصور التاريخية المتعددة · بعبارة أخرى ان تحديدنا لطبيعة « اليهودي الحقيقي » تتم عن طريق تطبيق المبدأ العام الذي وضعه كل من ماركس وانجلز لتحديد « ماهية » اية مجموعة من افراد الجنس البشري بقولهما :

« وكما يعبر الافراد عن حياتهم يكونون · أي ان ماهم عليه يتطابق، اذن ، مع انتاجهم ، مع **ما** ينتجون ومع **كيفية** انتاجه على حد سواء ·

تعتمد طبيعة الافــراد ، اذن ، على الشــروط المادية التي تحدد انتاجهم · » (١١)

أما عن أهمية نمط الانتاج هذا في تحديد حياة الافراد فيصفاها على النحو التالي :

« انه يمثل بالاحـرى نمطا محددا من نشاطهم وشكــلا محددا من اشكـال التعبير عـن حياتهم ، أي يمثـل **نمطا حياتيا** محددا تابعا لهم · » (١٢)

يقودنا هذا التحليل بالضرورة الى التأكيد على حقيقة تاريخية اشار اليها ماركس وتوسع عدد من الباحثين اللاحقين ★ فـي مناقشتها ألا وهـي انتشار اليهود في جميع أنحاء العالم القديم (الامبراطورية الرومانية مثلا) وتعاطي شرائح اجتماعية هامة منهم العمل التجاري وتسليف المال بالفائدة، أي الربا · وكانت تلتف حول هذه الشرائح فئات اجتماعية متنوعة تعتـاش من هذا النشاط التجاري ، بصورة أو بأخرى ، وتستفيد منه · وبطبيعة الحال

....

(١١) « الايديولوجية الالمانية » ، الطبعة الانكليزية ، دار التقدم ، موسكو ١٩٦٤ ، ص ٣٢· ترجم جورج طرابيشي جزءا من هذا المجلد الكبير تحت عنوان:«الايديولوجية الالمانية » ، دار دمشق ، ١٩٦٥ · وهي ترجمة لا يركن اليها بسبب الاخطاء الكثيرة التي تشوبها ·

(١٢) المرجع السابق ·

★ راجع مثلا : الفصل الاول من كتاب ليون المذكور سابقا ، والفصل الاول من كتـاب يوري ايفانوف « احذروا الصهيونية » ، منشورات وكالة انباء نوفوستي ١٩٦٩ · ولا بد من الاشارة هنا الى ان كافة الباحثين المدققين يؤكدون ان انتشار اليهود في العالم القديم كان حادثا قبل قيام الرومان بهدم الهيكل في القدس عام ٧٠ م · بعبارة اخرى خلافا للرواية الصهيونية الرسمية ولما يقوله العديد من المؤرخين المثاليين لم يكن تشتت اليهود امرا عارضا او حدثا مفاجئا جاء نتيجة كارثـة داهمة (هدم الهيكل) ، كما انه لا يجوز ابدا التأريـخ لتوزعهم الجغرافي هذا ابتداء من سقوط القدس بأيدي الرومان كما جرت العادة · راجع ايضا الفصل الاول من كتابي « دراسات يسارية حـول القضية الفلسطينيـة » ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٠ ·

لقد عرف العالم القديم شعوبا تجارية اخرى مثل الفينيقيين والقرطاجيين · الا ان سقوط الامبراطورية الرومانية جرف معه كافة شعوب العالم القديم وأدى الى اندثارها باستثناء تلك الجاليات اليهودية التي حملت بقايا من العلاقات التجارية المتطورة التي كان قد بلغها العالم القديم قبل العصور المظلمة التي تلت انهيار الامبراطورية الرومانية ·

ليس هدفنا في هذا البحث الدخول في مناقشة الاسباب التاريخية التي أدت الى انتشار اليهود في العالم القديم وتعاملهم بالتجارة والربا ومن ثم انتقالهم الى ممارسة هذه الوظيفة في المجتمع الاقطاعي خلال العصور المظلمة والوسطى ·

لكن لكي نفهم بدقة أكبر مقومات هذا التخصص الوظيفي الذي مارسه اليهود لا بد من التعرض بسرعة الى ظاهرة التجارة ومقوماتها في التكوينات الاقتصادية ما قبل الرأسمالية · وقد حدد ماركس هذه المقومات في أكثر من موضع في كتاباته · وقد اخترنا الاستشهاد بالمقطع التالي من « مقدمته » الشهيرة لكتاب « نقد الاقتصاد السياسي » وذلك على سبيل المثال لا الحصر :

« ان سيطرة الشعوب الزراعية في العالم القديم هي بالتحديد سبب ظهور الشعوب التجارية ـ الفنيقيين والقرطاجيين ـ على هذا النحو الخالص (أو بهذا التحديد المجرد) · اذ لا يظهر الرأسمال باعتباره رأسمالا تجاريا أو نقديا على هذا النحو من التجريد والنقاء الا حيث لم يصبح الرأسمال بعد العنصر المسيطر في المجتمعات · وقد احتل اللومبارديون واليهود الموقع نفسه بالنسبة للمجتمعات الزراعية في العصور الوسطى · » (١٣)

---

(١٣) كارل ماركس ، «اسس نقد الاقتصاد السياسي»، الترجمة الانكليزية ، ص ١٠٨ ·
Penguin Books, London, 1973.

الترجمة العربية ، انظر « نصوص حول اشكال الانتاج ما قبل الرأسمالية » ، دار ابن خلدون ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١٥٤ ·

بعبارة اخرى في المجتمعات الزراعية ذات الاقتصاد الطبيعي القائم اساسا على انتاج القيم الاستعمالية لا بد من قيام حد أدنى من التبادل البضاعي بينها مما يؤدي الى نشوء الرأسمال (Merchant's Capital)

البضاعي بينها مما يؤدي الى نشوء الرأسمال البضاعي

الاقتصادية والاجتماعية · أو على حد قول ماركس :

« الرأسمال البضاعي في الاصل هو مجرد الحركة التي تتوسط بين أطراف لا يسيطر عليها هذا الرأسمال وبين مقدمات لا يخلقها · » (١٤)

ان الاطراف التي لا يسيطر عليها الرأسمال البضاعي هي المجتمعات الزراعية المنفصلة بعضها عن البعض الآخر والتي يقوم التجار بالتوسط التبادلي بينها والتي يستحيل على الرأسمال البضاعي ان يوجد ويتكون بدونها وبدون انتاجها · يضاف الى ذلك ان التخلف السلعي وبالتالي التجاري لهذه المجتمعات يعزز موقع الرأسمال البضاعي والفئات الممثلة له على الرغم من هامشيتهما بالنسبة لنمط الانتاج السائد · في الواقع لا يمكن ان يزدهر هذا النوع من الرأسمال الا على أساس استغلال التأخر الحاصل في المجتمعات الزراعية التي يتوسط بينها واستغلال الفوارق في أسعار الانتاج السائدة في كل منها ، والاستيلاء بذلك على جزء هام من فائض القيمة عن طريق التعامل مع المالكين الرئيسيين لفائض الانتاج مثل البلاطات الملكية أو الاسياد الاقطاعيين أو مالكي العبيد · وبما ان الجاليات اليهودية في العصور الوسطى قامت بهذا الدور التجاري في المجتمعات الاقطاعية وفيما بينها فقد حدد ماركس مكانها الاجتماعي بدقة في قوله ان اليهود كانوا يعيشون في مسام هذه المجتمعات مثلهم في ذلك مثل بقية الشعوب التجارية في العالم القديم · يقول ماركس بهذا الصدد :

....

(١٤) « رأس المال » ، دار النشر باللغات الاجنبية ، موسكو ١٩٦٢ ، الطبعة الانكليزية· ج٣ ، ص ٣٢٤ ·

« لا تظهر الثروة كغاية بحـــد ذاتها الا بيـــن عدد صغير من الشعوب التجارية ـ التي احتكرت تجارة النقل ـ وكانت تعيش في مسام العالم القديم · أي كما كان يعيش اليهود في مجتمع القرون الوسطى · » (١٥)

يؤدي بنا هذا التحليل الى استنتـــاج هام هو الفساد الكامـــل للفكرة الشائعة ، والتي مر ذكرها ، بأن استمرار الجاليات اليهوديـــة في الوجود داخل مجتمعات « غريبة » يشكل ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ تتحدى كل تفسير · بكل سهولة يمكننا الاشارة الـــى عدد من الحالات المشابهـــة لجاليات « غريبة » استمرت في الوجود مع المحافظة على خصائصها الدينية والثقافية واللغوية الخ · استنـــادا الى قاعـدة مادية حياتية هي الوظيفـة الاقتصادية والاجتماعية ، الضرورية للمجتمع المضيف ، التي قامت بها هذه الجاليات · على سبيل المثال لا الحصر نذكر : الغجـر والاقبـاط والارمـن، والتجار الصينيون في جـــنوب شرقي آسيا ،والمرابون الهـنود فـــي بورما ، والجاليات الالمانية في المناطق السلافية · كل هذه الجاليـــات كانت تمثل ، بصورة أو بأخرى ، أدوات اقتصاد نقدي بدائي داخل تشكيـــلات اقتصادية ما قبل رأسمالية · وبما انها كانت تمارس وظيفة ضرورية فقد تمكنـــت من الاستمرار في الوجود ولم تنقـــرض او تندمج كليـــا في الحياة الانتاجية السائدة والغالبة في محيطها ، وبما ان وظيفتها كانت هامشية في مجمـــل حياة المجتمع المضيف وأساليبه في انتاج الثروة فقد حافظت على انغلاقهـــا وخصائصها المميزة واستقلاليتها النسبية على هامش بيئتها الاجتماعية · أي انها حافظت ودافعت عن وضـــع اجتماعي يتناسب مـــع طبيعة وظيفتهـا الاقتصادية الاساسية ويخدم مصالحها · لذلك يكون من الطبيعي ان تتصـف العلاقات بين هذه الجاليات والمجتمعات المضيفة بالتعايش المتوتر والحـــذر

(١٥) « اسس نقد الاقتصاد السياسي » ، الترجمة الانكليزيـــة ، ص ٤٨٧ · الترجـــمة العربية : « نصوص حول أشكال الانتاج ما قبل الرأسمالية » ، ص ٧٥ ·

الذي يهدد من فترة الى أخرى بالانفجار في مواجهات دموية عنيفة بين الطرفين . هذا هو الاتجاه التاريخي العام لهذا النوع من العلاقات غير المستقرة وهو راجع الى عدم رغبة المجتمع المضيف في هضم الجاليات كليا بسبب الوظيفة الضرورية التي تقوم بها من جهة ، وعدم ارتياحه لها كليا بسبب غربتها عن اسلوب حياته الاساسي ونمط انتاجه السائد من جهة اخرى . ويتم التعبير عن هذا الوضع المتوتر بعلاقات « التسامح والتحمل » المعروفة ، أي اضطرار المجتمع المضيف الى تحمل هذه الجاليات والتسامح معها بسبب الخدمات التي تؤديها له في وقت يكون هو غير مؤهل لافراز عناصر من جسمه ونسيجه كي تؤمنها .

في العصور الوسطى كانت العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود من هذا النوع المتوتر والقائم على علاقات التحمل والتسامح المذكورة . فالكنيسة من ناحية كانت تعكس في تعاليمها وممارستها تركيب المجتمع الزراعي الاقطاعي وقيمه ، ولذلك كانت تنظر باحتقار شديد وعداء متأصل الى كل ما يمت بصلة الى التجارة والمال والربا الخ ... وتعتبر ان هذا النوع من النشاط قائم على السرقة والغش ، فنظرت باحتقار الى اليهود وثرواتهم واعمالهم واعتبرتهم ملعونين من قبل الله لعنة أبدية في جهنم الحمراء . ومن ناحية أخرى كان اليهود يعادون الكاثوليكية وكل ما يمت لها بصلة معاداة قوية عكست نفسها في تصميمهم المحافظة على دينهم وخصائصهم المميزة واستقلالهم النسبي اذ ان ذلك كله كان يتناسب ، في التحليل الاخير ، مع حماية وضعهم الاقتصادي والاجتماعي واستمرار مصالحهم الحيوية في القيام بالوظيفة التي كانوا يقومون بها . فكانت النتيجة التعايش المتوتر الذي جعل الكنيسة تتحمل استمرار وجود اليهود وتتسامح معهم بدلا من السعي الى سحقهم وابادتهم كليا كما كانت تفعل بالنسبة لبقايا الوثنيين وللمسيحيين الذين كانوا يخرجون عن ارادتها باتجاه الهرطقة .

هنا لا بد من استدراك مهم . ان هذا التحليل لا يعني ان كل يهودي كان بالضرورة خاضعا لهذا التخصص الوظيفي (أي انه كان تاجرا او مرابيا)

أو أن مؤسسات الكنيسة قد تقيدت تقيدا صارما بتعاليمها على صعيد الممارسة العملية · يعني هذا التحليل ان الاعمال والحرف التي مارسها اليهود واعتاشوا منها كانت في أغلب الاحيان مرتبطة بصورة مباشرة او غير مباشر بالتجارة والتبادل السلعي اللذين تهيمن عليهما الشرائح الاجتماعية العليا من الجاليات اليهودية ، وهي الاقلية طبعا · من المؤكد ان أقساما كبيرة من الشتات اليهودي التي لم ترتبط تدريجيا بهذا التخصص الوظيفي ، لسبب من الاسباب ، قد اندمجت في اسلوب الانتاج الذي كان سائدا في محيطها وانصهرت كليا في بيئتها البشرية والاجتماعية وفقدت كل خصائصها المميزة السابقة · ويتضح ارتباط المهن التي مارسها اليهود بالتجارة من خلال دراسة بلومنكرانز التي تعطينا نماذج لانواع الاعمال التي كانوا يقومون بها في الغالب : حرفيون صغار ، باعة متجولون ، تجار، مالكو مشاغل للصناعات اليدوية ، مرابون ، مالكو سفن ، تجار رقيق ، صياغ ذهب وفضة · (١٦) يضاف الى ذلك ان الاسياد الاقطاعيين والملوك استخدموا اليهود كجباة للضرائب وكخبراء في ادارة شؤونهم المالية ، كما اعتمدوا عليهم في الحصول على القروض مناجل حروبهم وتأمين ما يريدونه من السلع الثمينة والنادرة (عن طريق التجارة) التي تتطلبها حياة الترف · لذلك كثيرا ما كان هؤلاء الاسياد والملوك يقومون بحماية اليهود التابعين لهم ويعطون الاثرياء منهم امتيازات خاصة بسبب حاجتهم الى الخدمات التي كانوا يقدمونها في تلك العصور · لا غرابة اذن في ان تصبح كل من لفظتي يهودي (Judaeus) وتاجر (Mercator) مترادفتين تماما مع حلول القرن التاسع في اوروبا ·

هناك جانب آخر من النشاط الاقتصادي الذي مارسه اليهود في العصور الوسطى الذي لا بد من اشارة سريعة اليه وهو الربا · لقد بين ماركس ان الرأسمال الربوي هو الاخ التوأم للرأسمال البضاعي (١٧) ·

---

(١٦) انظر مقدمة واينشتوك للطبعة الانكليزية الثانية لكتاب ابراهام ليون حول المسألة اليهودية ، ص ٤٢ ·

(١٧) « رأس المال » ، ج٣ ، ص ٥٨٠ · انظر ايضا ص ٥٩٥ ·

ويقول في وصفه للعلاقة الحميمة بين هذين النوعين من رأس المال ما يلي :

« يرتبط تطور الرأسمال الربوي بتطور الرأسمال البضاعي وبخاصة الرأسمال النقدي ٠ فخلال السنوات الاخيرة من حياة الجمهورية في روما القديمة عندما انخفضت الصناعة اليدوية الى مستوى ادنى بكثير من مستوى نموها العادي في العالم القديم وصل نمو الرأسمال البضاعي والربوي والنقدي الى أعلى ذروة عرفها ضمن اطار الشكل القديم (للانتاج) » ٠ (١٨)

بعبارة أخرى بالاضافة الى تمثيلهم الرأسمال البضاعي في العصور الوسطى مثّل اليهود أيضا الرأسمال الربوي ومصالحه بسبب الارتباط العضوي بين الرأسمالين ، مما أدى الى تراكم واسع نسبيا للرأسمال السائل بين ايديهم مع مرور الزمن ٠ وكان الزبائن الاساسيون للمرابين اليهود هم النبلاء والاقطاعيون من ملاك الارض من جهة والحرفيون والفلاحون من جهة اخرى ٠ وقد كان هذا سببا أساسيا من أسباب العداء بين الجاليات اليهودية والنظام الاقطاعي ، اذ كان الاسياد يجدون انفسهم مضطرين للتنازل ، لصالح المرابي (والتاجر ايضا) ، عن جزء هام من فائض القيمة الذي كان يتجمع لديهم نتيجة لعملية الاستغلال الاقطاعي ٠ كما كان المرابي يستولي ايضا على جزء من فائض القيمة الذي كان ينتجه الحرفيون وبصورة خاصة الفلاحون ٠ أي ان اليهودي في وظيفته كمراب كان ضروريا للنظام الاقطاعي ككل ولكنه كان ايضا على عداء وتوتر مستمر مع كافة عناصره الرئيسية ، أو كما يشخص ماركس وضع المرابي :

« ٠٠٠ لم يكن يكتفي بابتزاز فائض العمل من ضحيته ، بل كان يستولي تدريجيا حتى على شروط عملها من عقار ومسكن الخ ٠ أي كان منهمكا باستمرار بنزع ملكيتها ٠ » (١٩)

اما القرابة الموضوعية بين الرأسمال البضاعي والرأسمال الربوي

---

(١٨) المرجع السابق ٠

(١٩) المرجع السابق ، ص ٥٨٢ ٠

فتكمن في اسلوبهما المشترك في الاستغلال الذي يصفه ماركس على النحو التالي :

« الربا كالتجارة يستغل نمطا موجودا للانتاج ولا يخلقه ، بل يرتبط به برابطة خارجية · وهو يحاول المحافظة عليه مباشرة كي يتمكن من استغلاله مجددا وعلى الدوام · الربا قوة محافظة يجعل نمط الانتاج هذا في حالة يرثى لها اكثر مما كان · » (٢٠)

في التشكيلات الاقتصادية ما قبل الرأسمالية اخذ وجود الرأسمال شكل الرأسمال البضاعي والربوي بصورة رئيسية وارتبط ازدهاره ، في العصور الوسطى ، ارتباطا عضويا بالمجتمع الاقطاعي وتبعثره وتخلفه الاقتصادي العام · ذلك لان الرأسمال البضاعي لا يجني ارباحه عن طريق تصدير المنتجات المحلية (تشجيع نمط معين من الانتاج وتنميته مثلا) بل عن طريق عملية مبادلة منتجات البلدان المتأخرة تجاريا واقتصاديا واستغلالها كلها مرة واحدة لذلك شدد ماركس على انه :

« مادام الرأسمال البضاعي يشجع تبادل المنتجات بين المجتمعات غير المتطورة لا يأخذ الربح التجاري شكل الاحتيال والتفوق في المساومة فحسب ، بل انه ينبع منهما الى حد بعيد ايضا · » (٢١)

كما اكد انه :

« كلما كان الانتاج متخلفا كلما زادت كمية الثروة النقدية المتركزة بين أيدي التجار ، او كلما ظهرت الثروة في شكل محدد هو ثروة التجار · » (٢٢)

هذا يعني ان ازدهار الرأسمال البضاعي واخوه التوأم الرأسمال الربوي مرتبط بدوام التخلف الاقتصادي العام للمجتمعات التي يتعاملان معها ويستغلانها ، اي باستمرار سيادة نمط الانتاج الاقطاعي في الحالة التي

---

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٥٩٦ ·
(٢١) المرجع السابق ، ص ٣٢٥ ·
(٢٢) المرجع السابق ، ص ٣٢١ ·

ندرسها . كما يعني كذلك ان أية علامات تشير الى تطورات باتجاه كسر طوق هذا التخلف وزعزعة اسس الاقطاع هي علامات تشير ايضا الى نتائج مهمة تحمل آثارا سلبية كبيرة بالنسبة لازدهار الرأسمال البضاعي والربوي واستقرار الفئات الاجتماعية المثلة لهما . يحدد ماركس العلاقة السلبية بين النمو الاقتصادي للمجتمعات المذكورة من ناحية ونوع التجارة التي يعتمد عليها الرأسمال البضاعي من ناحية اخرى على النحو التالي :

« ينحل هذا الاحتكار لتجارة النقل وتنحل معه هذه التجارة نفسها بدرجة تتناسب طرديا مع النمو الاقتصادي للشعوب التي تستغلها التجارة اياها عند طرفي الطريق التي تسلكها ، علما بان الاساس الذي قامت عليه هو تخلف هذه الشعوب . » (٢٣)

لقد استمر الرأسمال التجاري والربوي لليهود في تأدية دوره ووظيفته وفي الازدهار والتوسع حتى نهاية العصور الوسطى اي حتى حوالي القرن الحادي عشر للميلاد . وستتبين لنا ، من رصد حركته في الفترة اللاحقة ، عملية انهياره في كل منطقة اوروبية اخذت تخرج من اقتصاد العصور الوسطى الزراعي الراكد وهجرته (وهذا يعني الهجرة الطوعية والقسرية لليهود) باتجاه المناطق الاكثر تخلفا ، اقتصاديا واجتماعيا ، اي الى حيث ما زال نمط الانتاج الاقطاعي سائدا او لم تتهدد اسسه بعد . لان هذا النوع من الرأسمال ، كما رأينا ، لا يمكن ان يحيا الا في مسام مجتمعات ذات خصائص معينة . ★

....

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

★ بينت بديعة امين في كتابها المشار اليه سابقا ان المؤسسات الكنسية كانت تمارس الربا على الرغم من تعاليمها التي كانت تدينه وتحرمه (« المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية » ، ص ٨٢ ـ ١٠١) . لكن مثل هذا النشاط المالي بقي مسألة هامشية بالقياس الى السند الاساسي الذي قامت عليه الكنيسة ومثلته وهو المجتمع الاقطاعي بنمط انتاجه وتنظيماته وقيمه الخ ، اي المجتمع الذي ←

مع بدايات القرن الثاني عشر اخذت تظهر بوضـــوح آثار التحولات البطيئة والمتراكمة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اوروبا الغربية · وكانت اهم هذه الآثار التوسع السريع للمدن ، والنمو المضطرد للصناعات فيها على أساس استقلالها عن الانتاج الزراعي ، والتحسينات التي ادخلت على ادوات الانتاج الحرفي ، ويضاف الى ذلك نمو طبقة بورجوازية تجارية مسيحية محلية تتعامل بهذا الانتاج الصناعي ، وامتداد العلاقات التجاريـة الجديدة الى القطاع الزراعي نفسه وحلولها التدريجي محل العلاقـات التي كانت سائدة فيـــه سابقا · أي شهدت اوروبا الغربية ، في تلـــك الفترة وبدرجات متفاوتة ، تحولا تدريجيا باتجاه اقتصاد قائم على انتاج القيـــم التبادلية بدلا من القيم الاستعمالية وتوسعا كبيرا في تداول السلع والبضائع والنقد ·

الموضوع الذي يهمنا هنا اكثر مـــن غيـــره هو بـــروز البورجوازية التجارية المسيحية المذكورة وأثر هذه الظاهـــرة على اليـــهود باعتبارهم تجار العصور الوسطى ومرابيها · نجد في الفقرة التالية اشارة مـــن قـــبل ماركس للاساس المادي الذي قامت عليه هذه البورجوازية في البداية :

....

←

ازدهر الرأسمالان البضاعي والربوي داخـــل مسامه · ومن ناحية ثانية ، بديعة امين محقة في استنتاجها بانـــه مع تأقلم الكنيسة مع نمـط الانتاج الرأسمالي الصاعد في المرحلة اللاحقة دخلت هي ايضا كمنافس عتيد لليهود في ميدان الربا · يبقى ان اذكر هنا ان ما قالته الكاتبة حول هذا الموضوع ، على جودته ورصانته، يشكو من تشويش ينبع من عدم تمييزها بوضوح بين الاهمية النسبـية المترتبة على ممارسة الكنيسة الربا في المرحلة ماقبل الرأسمالية وبين ممارستها له في « مرحلة الانتاج البضاعي ـ التبادلي » اللاحقة · يضاف الى ذلك ان الخفة التي عالجت بها مسألة تحريم الكنيسة للربا لا مبرر لها على اعتبـــار ان الدلالة الاساسيـة لهذا التحريم لا تكمن في مدى تقيد الرهبان والاديرة به ، بل في كونه يعكـــس محاولات اقتصاد زراعي طبيعي مغلق قائم على انتاج القيم الاستعمالية الدفاع عن نفسه من التأثيرات السلبية للاقتصاد النقدي المتمثل في الرأسمالين الربوي والتجاري ·

« من طبيعة الامور انه حالما تنفصل صناعات المدن عن الصناعات الزراعية تصبح منتجاتها منذ البداية سلعا فتتطلب بالتالي توسط التجارة لبيعها » . (٢٤)

بعبارة اخرى نمت البورجوازية التجارية المسيحية (داخل رحم مجتمع الاقطاع) استجابة لحاجة الانتاج الصناعي المتوسع في المدن لبيع سلعه ومنتجاته وبخاصة عن طريق تصديرها . ان ارتباط البورجوازية المسيحية بالانتاج الصناعي المحلي وتوسعه وتحسين ادوات انتاجه ، واعتمادها عليه في عملها وجني ارباحها ، يميزها بصورة جذرية عن الرأسمال البضاعي والربوي اليهودي الذي لم يكن مرتبطا مباشرة بالانتاج وليس له مصلحة في تطويره وتنميته ، اذ كما رأينا كان هذا النوع من الرأسمال لا يعتمد على تصدير المنتجات المحلية بل على عملية تبادل خارجية بين مجتمعات لا يرتبط عضويا بأي منها ، ولكنه قادر على استغلالها كلها في تراكمه وجني ارباحه. اي بسبب طبيعته الربوية كان يستغل نمط الانتاج السائد دون ان يكون له اية مصلحة في تطويره او تنميته ، او كما يصف ماركس هذه الحالة بقوله عن الرأسمال الربوي :

« انه يفقر نمط الانتاج ، ويصيب القوى المنتجة بالشلل عوضا عن ان يطورها ... كما انه لا يغير من نمط الانتاج ، بل يتعلق به بقوة كالطفيليات فيزيد من بؤسه » . (٢٥)

او بعبارة مختصرة البورجوازية التجارية المحلية لم تكن تحيا في مسام المجتمع كما كان التجار اليهود يفعلون في العصور الوسطى . وبطبيعة الحال ادى بروز البورجوازيات التجارية المحلية في أوروبا الغربية ، في تلك الفترة ، الى صراع عنيف ودام ضد ممثلي الرأسمال البضاعي القديم ، اذ شعرت هذه الطبقة الناشئة ، منذ البداية ، ان السيطرة التقليدية على التجارة واحتكارها

---

(٢٤) « رأس المال » ، ج٣ ، ص ٣٢٧ .
(٢٥) المرجع السابق ، ص ٥٨٢ و ٥٨٣ .

من قبل اليهود كانت تشكل احدى العقبات الرئيسية في وجه نموها وتوسعها ، وكان لا بد من ازالة هذه العقبة من دربها · لذلك واجه يهود تلك المناطق فـي هذه الحقبة موجة واسعة من اسوأ انواع الاضطهاد ، لان فقدانـهم التدريجي لوظيفتهم الاجتماعية القديمة مع التطور الصناعي والتجاري لمجتمعات اوروبا الغربية مثل انهيار الاسس المادية لعلاقات « التحمل والتسامح » التي كانـت تربطهم بمجتمع الاقطاع · لقد دخل الرأسمال البضاعي فـي صراع تناحـري خاسر مع الرأسمال التجاري الصاعد الذي كـان يعتمد على الصناعـات المزدهرة في المدن لتزويده بالسلع والبضائع للمتاجرة بها ·

ومع حلول عصر النهضة ، الذي شهـد توسعا ضخمـا في التجارة العالمية ونمو الصناعات في المدن ، وصلت البورجوازية التجارية هـذه الى اوج تطورها وقوتها بعد ان نجحت في تدمير الرأسمال البضاعي وتقليصه والحلول محله بالاضافة الى اخضاع بقاياه لمصالحها · وكان من نتائج هذه التحولات الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة التي اخرجت اليهود في اوروبا الغربية من ميدان التجارة ، دفعهم اكثر فأكثر باتجاه التمركز في ميدان الربا بحيث اصبحت ، بعد فترة ، كل من لفظتي « مراب » و « يهودي » تعتبـران مترادفتين ، بدلا من كون « اليهودي » مرادفا « للتاجر » كما كانت الحال في السابق · لكن حتى ميدان الربا لم ينج من اختراق البورجوازية التجارية ، وخاصة بعد ان قويت شوكتها وتوطدت قوتها ، مما جعل الكنيسة نفسهـا ، التيكانت تحرم تعاطي الربا على المسيحيين، تبدل موقفها الرسمي بما يتناسب مع الظروف المستجدة ·

وكان هذا التبدل علامة من علامات ميل كفة الصراع بين الرأسمـال التجاري من جهـة والرأسمال البضاعي والربوي اليهودي من جهة ثانية لصالح الاول بصورة حاسمة · ومن العلامات الاخرى التي يمكن ذكرها هـنا الاضطهاد الدموي الذي تعرض له اليهود فـي اوروبا الغربـية اثناء الحروب الصليبية اذ ان هذه الحملات العسكريـة المذكورة كانت تمثل الـى حد بعيد ارادة الطبقة التجارية الجديدة في فتح طريق الشرق امام تجارتها · كذلك

الامر بالنسبة للعمليات المتتالية من الطرد الجماعي التي تعرض لها اليهود في بلدان مثل انكلترا وفرنسا واسبانيا واجزاء واسعة من المانيا حيث كانت الطبقة التجارية المحلية تنمو بسرعة ويتسع نفوذها وتتوطد سيطرتها . على سبيل المثال تم طرد اليهود من انكلترا في نهاية القرن الثالث عشر ومن فرنسا في القرن الرابع عشر ومن اسبانيا في نهايـــة القرن الخامس عشر . ومن الواضح ان هذا التسلسل في عمليات الطرد الجماعي كان يعكس مستوى التطور الاقتصادي والتجاري للبلد المعني ومدى نمو البورجوازية التجارية فيه وسيطرتها ونجاحها في التغلب على خصومها ومنافسيها . اي كلما كان هذا النمو اكبر وهذه السيطرة اسرع كلما جاءت عملية ازاحة الرأسمـال البضاعي وطرد ممثليه اليهود مبكرة اكثر .

وربما كان من المفيد هنا العودة الى عمل ادبي مشهور جدا للتمثيـل على هذا الصراع ونتائجـــه ، واعني بذلك مسرحية وليم شكسبير « تاجر البندقية » ، لان العودة الى شخصياتها لا بد وان تغني تحليلاتنا المجـــردة وتدخل فيها شيئا من الحيوية المعاشة . لقد التقط شكسبير في مسرحيتــه ، بصورة عينية وتصويرية ، واقـــع الصراع الكامن وراء المظاهر الخارجية المتعددة للمسألة اليهودية واعراضها . اي انـــه تمكن من اقتناص حقيقـة تاريخية والتعبير عنها بصدق ودقة كما يعبر الشاعر والاديب طبعا . يوضح شكسبير منذ البداية ان الصراع بين انطونيو،التاجر المسيحي الثري الواسع النفوذ ، وبين المرابي اليهودي شايلوك ليس في الحقيقـــة صراعا دينيا او عنصريا او ما شابه ذلك مما هو شائع . وهذا واضح من قول شايلوك في مقطع شهير من المسرحية :

« اليس لليهودي عينان ؟ اليس لليهودي يدان واعضاء وجسم وحواس ومودات وشهوات ؟ اليس غذاؤه مما يتغذى به النصراني ؟ اليست الالة التي تجرح احدهما تجرح الاخر ؟ اليس العلاج الذي يشفي ذاك يشفي هذا ؟ اليس الشتاء والصيف واحـــدا لكليهما ؟ السنا اذا وخزتمونا ننزف دما ، واذا دغدغتمونا نضحك ، واذا سقيتمونا السم نموت ، واذا آذيتمونا اما يجب ان ننتقم ؟ اذا كنا نشبهكم في كل ذلك ، فأننا سنشبهكم في هذا ايضا . اذا اساء

يهودي الى مسيحي فما هو جزاؤه ؟ الثأر . اذا اساء مسيحي الى يهودي ماذا يجب ان يكون جزاؤه عملا بالمثال المسيحي؟ الثأر طبعا. سانفذ الجريمة التي علمتموني وستكون قاسية ، لكنني سأتفوق على توجيهاتكم . » (٢٦)

انطونيو تاجر كبير في جمهورية البندقية التي تسيطر البورجوازيــــة التجارية على حياتها في عصر توسع التبادل التجاري والرحلات الــى العالم الجديد . هذا التاجر يعرف هذه الحقيقة كل المعرفة وهـــو مستعد للتضحية بنفسه من اجل استمرارها ومن اجل حماية المصالح التجارية التي يمثلها . لذلك نجده يحث الدوق على الاسراع باصدار الحكم باقتطاع كمية من لحمه لان عدم تنفيذ العقد بينه وبين شايلوك يشكل ، على حد قول انطونيو، « خطرا على مدينة كالبندقية قوام ثروتها تجارتها مع الامم الاخرى » . (٢٧)

أجواء انطونيو هي اجواء اية قوة اجتماعية صاعدة تنظر بثقة وانفتاح الى مستقبلها ، مطمئنة ، على المدى الابعد ، الى مصير اندفاعها ونتائجه . تصارع اعداءها وهي واثقة من انها ستدمرهم في النهاية . لقد أرسل انطونيو سفنه المحملة بالبضائع الى جهات الارض الاربعة في مغامرة محسوبة . او كما يقول « ان ثروتي جميعها تحت رحمة المحيط ». وهو على قدر من التفاؤل والاطمئنان والثقة بالنفس يسمح له باقتراض المال من شايلوك ـ على اساس عقد غريب ـ من اجل مساعدة صديقه الذي يريد التودد من بورشيا ، الغانية الثرية ووارثة الجاه الكبير .

من ناحية اخرى شايلوك مراب من مخلفات العصور الوسطى كــــان يمثل في يوم من الايام عنصرا هاما يعيش في مسام مجتمع الاقطاع والاقتصاد الطبيعي . لكنه تحول في الوقت الحاضر الى عقبـــة في وجه البورجوازية التجارية الجديدة واساليبها في انتاج الثروة ، لذلك لا بد من اخضاعــه .

....

(٢٦) الفصل الثالث ، المشهد الاول .
(٢٧) الفصل الثالث ، المشهد الثالث .

اي لا بد من تنفيذ عملية الاخضاع التي يسميها ماركس :

« بمطلب اخضاع الرأسمال الربوي ووسائل الانتاج القابلة للتسليف عامة الى نمط الانتاج الرأسمالي » · (٢٨)

ولا تتم مثل هذه العملية ، بطبيعة الحـــال ، الا عبر صراع اجتماعي واقتصادي مرير تنتصر فيه فئات وتذهب ضحيته فئات اخرى ومن هنا مأساة شايلوك ودماره في نهاية المسرحية · يقول ماركس في وصفه لهذه الظاهرة ما يلي :

« لقد نشأت مؤسسات التسليف في القرنين الثاني عشر والرابع عشر في البندقية وجنوا من حاجة التجارة البحرية وتجارة الجملة المرتبطـــة بها الى تحرير انفسهما من سيطرة الربا المتخلف ومن احتكار السوق المالية ··· وينبغي الا ننسى ان التجار الذين انشأوا هـــذه المؤسسات كانوا مواطنين بارزين في هذه الدول وكانوا مهتمين بتحرير حكوماتهم بقدر اهتمامهم بتحرير انفسهم من مطالب المرابين بالاضافة الى ممارسة سيطرة اشد واضمن على الدولة » ·(٢٩)

لذلك نجد ان اجواء شايلوك تتسم بالانقباض والضيق والتدهور، بالشك والخبث والتكتم ، وبالتمسك بما هو كائن في محاولة من يدافع عــن نفسه ووجوده واستمراره من موقع الضعيف والخاسر،والمضطر للجوء الى الحيلة والخبث والاساليب الملتوية فيَ مواجهة القوى العاتية التي يستشعر انهـــا ستجرفه · ان طبيعة الصراع بين القوى الاقتصادية والاجتماعية التي يمثلها كل من انطونيو وشايلوك واضحة وهي كامنة خلف مظاهر الكراهية والاحتقار والرغبة في الانتقام التي تطبع العلاقة بين الشخصيتين في المسرحية· يفسر شايلوك بغضه لغريمه بقوله :

(٢٨) « رأس المال » ، ج ٣ ، ص ٥٩١ ·

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٥٨٨ ــ ٥٨٩ ·

« جاء ابله ، يقرض المال بلا ربح ، ويسقط قيمة النقد في البندقية لئن اخذت بتلابيبه يوما لقد شفيت حزازاتي القديمة منه · هو يبغض امتنا المقدسة ويسخر - حتى في المقصف الذي يجتمع فيه التجار عادة - مني ومن معاملاتي ومن ارباحي المحللة التي ينعتها بالربوية · لعنت عشيرتي ان كنت اغفر له هذه الذنوب » · (٣٠)

في الواقع لقد طلب انطونيو القرض لاسباب تافهة لا تدل في الواقع الا على تدني نوعية المناسبة التي يحتاج فيها مثل هذا التاجر لخدمات خصمه المحتقر والمنبوذ في الاوساط المالية الجديدة ، كما يبين قبول انطونيو رهن قطعة من لحمه مقابل المال حقيقة نظرة طبقته المستهترة بالخصم ، وما يمثله من مصالح سائرة في طريق الاندثار ، بالاضافة الى ثقته اللامحدودة بانتصار تجارته هو وارباحه في المستقبل ·

عندما طلب انطونيو المبلغ من شايلوك اكد شكسبير مرة اخرى طبيعة الصراع بينهما وحقيقته بقوله على لسان المرابي مخاطبا التاجر :

« يا سنيور انطونيو ، طالما صادفتني في مقصف الريالتو فسخرت من اعمالي المالية ومن الربا الذي امارسه ، فلم اقابل ذلك الا برفع الكتفين ، وجميل الصبر لان الالم هو احدى الآفات التي خصت بها امتنا · وطالما نعتني بالكافر ، او الكلب الكلب (بفتح الكاف وكسر اللام) ، وبصقت على عباءتي التي يعرف منها الناس يهوديتي ، كأنك تعيبني لاستعمالي ما هو ملكي · اما الآن فيظهر انك في حاجة الي : « شايلوك نريد منك نقودا » من يقول لي هذا ؟ انت يا من ينفث في لحيتي لعابه ، ويطردني من حضرته ركلا ، كما يطرد الكلب الغريب من عتبة البيت · تطلب مني مالا ! فيم ينبغي ان اجيب ؟ ايحوز الكلب نقودا ؟ أيعقل ان كلبا يقرض ثلاثة الاف دوقي ؟ ام يتعين علي ان أخر الى الذقن ، وان ارد عليك بصوت خافت ، وقلب خاشع : « يامولاي

---

(٣٠) الفصل الاول ، المشهد الثالث ·

الجميل ! يوم الاربعاء المنصرم بصقت في وجهي ، ويوما قبله طردتني ضربا برجليك ، ويوما قبله دعوتني بكلب ، فقياما مني بحق تلك المكارم كلها سأقرضك نقودا ؟! » · (٣١)

وقد اشار ماركس بدقة الى هذا الصراع الشرس بين نهوض الرأسمالية الحديثة والرأسمال الربوي الموروث من العصور السابقة بقوله :

« ان هذه المعركة العنيفة ضد الربا ، هذا الاصرار على اخضاع الرأسمال الربوي للرأسمال الصناعي ، لم يكن الا رائد الكائنات العضوية التي اسست شروط الانتاج الرأسمالي هذه في النظام المصرفي الحديث · ان هذا النظام ينزع من الرأسمال الربوي احتكاره عن طريق تركيز كل الاحتياط المالي العاطل وقذفه في السوق المالية من جهة ، وتحديد احتكار المعدن الثمين نفسه بواسطة خلق اموال التسليف ، من جهة اخرى » ·(٣٢)

ان نتيجة المعركة العنيفة التي اشار اليها ماركس معروفة جيدا ورمزت لها مسرحية شكسبير بالدمار التام تقريبا الذي لحق بشايلوك ، ليس بخسارته ثروته ووظيفته الاجتماعية كمراب فقط ، بل ايضا بفقدانه ابنته التي فرت مع حبيبها المسيحي لورنزو · بعبارة اخرى لقد خلقت الرأسمالية منذ نشأتها المسألة اليهودية بتدميرها التدريجي للمجتمع الاقطاعي الذي كان يشكل الاساس المادي للحياة اليهودية ولتخصصها الوظيفي ، ولكن بسبب معضلات الرأسمالية وتناقضاتها بقيت عاجزة عن حل المسألة التي خلقتها في الاصل ·

لا بد من اشارة سريعة هنا الى الاتجاه العام للتأثيرات التي تركها الصراع بين البورجوازية التجارية المسيحية وبين الرأسمال البضاعي القديم على الجاليات اليهودية وعلى نمط حياتها وعملها ·

١) ان اول تأثير هام نلحظه هو النزوح التدريجي لقطاعات واسعة من

....

(٣١) الفصل الاول ، المشهد الثالث ·
(٣٢) « رأس المال » ، ج ٣ ، ص ٥٩٠ ·

اليهود الى شرقي اوروبا (خاصة روسيا وبولونيا)، اي تمركزهم في المناطق الاكثر تأخرا وخضوعا لنمط الانتاج الاقطاعي حيث ما زالت الفرص متاحة للرأسمال البضاعي والربوي ليمارس دوره ، وحيث ما زال بامكان اليهود ان يعيشوا في مسام المجتمع على الطريقة القديمة · ولقد أشار ماركس الى زوال الظروف الاجتماعية الضرورية لازدهار الرأسمال البضاعي من جهة والى التصاقه دوما بالمناطق الاكثر تخلفا من جهة اخرى ، مما يفسر حركة انتقال اليهود من اوروبا الغربية الى شرقها ، وذلك في قوله :

« ان الظروف الخاصة التي تتبلور مع تطور الرأسمال البضاعي لم تعد مسيطرة هنا، بل العكس هو الصحيح اذ حيث ما زال الرأسمال البضاعي مسيطرا نجد اوضاعا متأخرة » · (٣٣)

وفي قوله ايضا :

« لذلك يتناسب النمو المستقل للرأسمال البضاعي تناسبا عكسيا مع التطور الاقتصادي العام للمجتمع » ·(٣٤)

يضاف الى ذلك ان اليهود في تلك الفترة وجدوا انفسهم في وضع اجتماعي صعب للغاية في اوروبا الغربية بسبب الصراع الذي كان دائرا ايضا بين البورجوازية الصاعدة من جهة والمصالح الاقطاعية المدافعة عن وجودها التقليدي وهيمنتها من جهة ثانية · على سبيل المثال لم تنظر البورجوازية التجارية الى اليهود على انهم منافسون يجب ازالتهم من طريقها فحسب ، بل رأت فيهم ايضا أدوات بأيدي الامراء الاقطاعيين · اذ ان هؤلاء الامراء والاسياد كانوا يحاولون الاستمرار في الاعتماد على اليهود في قروضهم وشؤونهم المالية لان التحول نحو المصادر المسيحية الجديدة للتمويل كان يعني تقديم التنازلات للبورجوازية التي كانت تسعى بشدة وبشتى الطرق

(٣٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٢ ·
(٣٤) المرجع السابق ·

لتوسيع سلطانها السياسي · اي رأت البورجوازية في اليهود اداة تستخدمها الطبقات الاقطاعية الحاكمة لكبح نمو سلطانها واحباط مطامحها السياسية · ولكن في الوقت ذاته كانت الطبقة الاقطاعية الحاكمة تنظر الى اليهود على انهم اولاد عم البورجوازية العدوة وجزء من معسكرها الخطر بحكم طبيعة عملهم ومهنهم · ولذلك كانت تضطهدهم ايضا في محاولاتها لاضعاف الطبقة الوسطى عامة والحد من نموها وتوسع نفوذها · ففي اسبانيا مثلا استفادت الطبقة الاقطاعية الحاكمة ايام فرديناند وايزابيلا من طرد اليهود لان الخطوة شكلت ضربة موجهة الى الطبقة الوسطى بصورة عامة · لكن استفادت البورجوازية التجارية كذلك بتخلصها من منافسين غير مرغوب فيهم · ومما زاد في تعقيد وضع اليهود في تلك الفترة كراهية الفلاحين لهم الذين كانوا يحتكون بهم كجباة للضرائب في خدمة الاسياد الاقطاعيين وكمرابين يسلفون المال · وقد ازدادت هذه الكراهية مع اتساع العلاقات التجارية الداخلة الى الريف ، وبالتالي ارتفاع الضرائب المفروضة على الفلاح مما عزز انتشار شعور شعبي واسع بأن اليهود وحدهم مرتبطون بالاعمال المالية المكروهة وغير المفهومة من قبل جماهير الفلاحين · يشير ماركس الى اساس هذه الظاهرة بقوله :

« الرأسمال البضاعي والربوي هما اقدم اشكال الرأسمال · ومن طبيعة الامور ان يأخذ الرأسمال الربوي في التصور الشعبي شكل الرأسمال بدون منازع » · (٣٥)

ولا شك ان الطبقات الحاكمة استغلت ، في العصور الحديثة ، هذا التصور الشعبي الساذج الذي يرى ان الرأسمالية ليست الا الرأسمال الربوي كي تحول سخط الجماهير الشعبية على انظمة الاستغلال والطبقات المستفيدة منها ، الى كراهية واعمال عنف ضد اليهود · هذا السلوك واضح في كل الحركات المعادية للسامية التي ظهرت في اوروبا · لهذه الاسباب كان القمع

---

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٥٩٥ ·

الدمـــوي والعنيف للانتفاضات المسلحـــة المتكررة التي كانت تقوم بها البورجوازية مستندة الى الفلاحين ضد الطبقات الاقطاعية الحاكمة يؤدي في كثير من الاحيان الى ذبح جاليات يهودية كاملة ٠

٢) مع كسر الاحتكار السابق للتجـــارة من قبـــل اليهود واخراجهم التدريجي من السيطرة عليها في اوروبا الغربيـــة ، اتجه قطاع منهم نحو التمركز في ميدان الربا ، اي اخذ رأسمالهم يفقد طابعه التجاري ويصبـــح رأسمالا ربويا خالصا ٠ وتعامل كبار المرابين اليهود مـــع الملوك والامراء والنبلاء ، وتعاطي صغارهم العمل مع جماهير الشعب من حرفيين وفلاحين ٠ نتيجة لذلك اصطدم الرأسمال اليهودي في وضعـــه الجديد بكافـــة الفئات والطبقات الاجتماعية مما عرّض اليهود لاسوأ أنواع الاضطهاد والمذابـــح الدموية من كافة الجهات ٠ فمن ناحية كان الحرفيون والفلاحون المستغلـــون ابشع استغلال من قبل الطبقات الحاكمة والبورجوازيـــة التجارية كثيرا ما يضطرون الى اللجوء الى المرابين اليهود ليتمكنوا مـــن الاستمرار ، ولو الى حين،مما كان يضع المرابي في موضع العدو والمستغِل المباشر والظاهر،والذي كثيرا ماكان يفجر السخط الشعبي في وجهـــه من حين الى آخر ٠ ومن ناحية أخرى كانت الطبقة الارستقراطية تستدين مـــن المرابين اليهود لتمول حياتـــها المترفة ومن ثم تشارك في الحملات والمذابح ضدهم مـــن اجـــل التخلص من ديونها عن طريق ابادة المدين واحراق صكوك الدين الموجـــودة في حوزته ٠ بالاضافة الى ذلك اسهمت طبقة النبلاء في تفجير هذا السخط ضد المرابيـــن اليهود لانه كان يحول الانظار عنهـــا وعن موقعهـــا الاجتماعـــي الطفيلي والاستغلالي في آن واحد ٠ مع ذلك يجب ان نلاحظ ان تعرجات الديالكتيـــك التاريخي تسمح لنا بالقول بأن الرأسمال الربـــوي اليهـــودي قد لعب دورا ثوريا ، في تلك المرحلة ، لانه اسهـــم في ارساء دعائـــم النظام الرأسمالـــي ودفعه الى الامام ، وذلك عن طريق تدمير الثروات والممتلكـــات الاقطاعية ، وضرب المنتجيـــن الصغـــار من حرفيين وفلاحين بافقارهم وتحويلهم الى بروليتاريين ، بالاضافة الى كون الربا اسلوبا من اساليب توليد المزيد مـــن رأس المال ومراكمته ٠ أي ان الرأسمال الربوي عمل وقتئذ على تدمير ما تبقى من التشكيلات الاقتصادية ما قبل الرأسمالية التي كانت تعيق ، بشكـــل او

بآخر ، تطور النظام الرأسمالي وامتداده وبسط سيطرته الكاملة على كافة القطاعات الاقتصادية في المجتمع · يصف ماركس دور الرأسمال الربوي في هذه المرحلة على النحو التالي :

« لا يصبح الربا من العوامل المساعدة في تثبيت نمط الانتاج الجديد الا" في المكان والزمان اللذين تتواجد فيهما متطلبات الانتاج الرأسمالي ، وذلك عن طريق تدمير السيد الاقطاعي والمنتج الصغير من ناحية ، ومركزة شروط العمل على صورة رأس مال ، من ناحية ثانية · » (٣٦)

ويشير الى اهمية دور الربا في توليد رأس المال بقوله :

« الربا مهم تاريخيا ، بخلاف الثروة الاستهلاكية ، بمقدار ما يشكل بحد ذاته عملية مولدة للرأسمال · فالرأسمال الربوي وثروات التجار يشجعان على تكوين الثروة النقدية بصورة مستقلة عن الملكية العقارية · » (٣٧)

كذلك لا بد من الاشارة الى ملاحظة ماركس حول الدور المهم الذي لعبه الرأسمال الربوي في هذه المرحلة في اعداد الظروف المواتية لتطور الرأسمال الصناعي ونموه المتسارع فيما بعد · يقول ماركس :

« الربا رافعة قوية في تطوير الشروط المسبقة للرأسمال الصناعي من حيث انها تقوم بالدور المزدوج التالي : أولا ، انشاء ثروة نقدية مستقلة تأخذ مكانها الى جانب ثروة التاجر بصورة عامة · وثانيا ، الاستيلاء على شروط العمل ، اي تدمير مالكي شروط العمل القديمة · » (٣٨)

---

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٥٨٤ ·

(٣٧) المرجع السابق ·

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٥٩٦ ·

طبعا ، بعد ان قام الرأسمال الربوي بدوره التاريخي هذا أصبح هامشيا وغير ذي بال في بنية النظام الرأسمالي المتطور .

٣) أما الاتجاه الثالث الهام الذي سلكه قطاع من اليهود في اوروبا الغربية بعد اقتلاعهم من مواقعهم الاقتصادية القديمة فكان الاندماج في النظام الرأسمالي والدخول بشكل أو بآخر في صفوف طبقته السائدة والمشاركة في صنعه وتطويره . أي شكّل ذلك القطاع من اليهود الذين ساروا في هذا الاتجاه نواة الطبقة البورجوازية اليهودية في بلدان اوروبا الغربية ، وكان من الطبيعي ان ينذار قسم مهم من هؤلاء من تعاطي الربا الى الاعمال المصرفية . ومع مرور الزمن اضمحلت الفوارق الاجتماعية والسياسية والحقوقية بين البورجوازي اليهودي والبورجوازي المسيحي .

من العوامل الهامة التي ساعدت في نمو البورجوازية اليهودية التقدم الذي تم احرازه في بناء جهاز الدولة وبيروقراطيتها في القرن السابع عشر ، هذا الجهاز الذي اخذ يطرح نفسه على انه آلة مستقلة تقف فوق طبقات المجتمع وتقسيماته واحزابه ، مما يؤهله لان يمثل مصالح « الامة » ككل ويحكم باسمها . ومع التزايد السريع لحاجات الدولة المالية وللقروض وميل البورجوازية المسيحية ، في تلك الفترة ، لتركيز نشاطها بعيدا عن الدولة (التي لم تكن قد استولت عليها كليا بعد) ، تقدمت البورجوازية اليهودية النامية لملء هذا الفراغ . ومن العوامل التي ساعدت على احتلال هذا المركز علاقاتها التقليدية الوثيقة مع الارستقراطية وطبقة النبلاء . فتعاملت مع الملوك الاقوياء والبلاطات واجهزة الدول الاوروبية الغربية تعاملا واسعا ومدتهم بما يحتاجون اليه من قروض وتمويلات لمشاريعهم ، ومن خبرات في تسيير شؤونهم المالية . نتيجة لهذه التطورات دعا كروموبل البورجوازية اليهودية في اوروبا للعودة الى انكلترا بعد ثلاثة قرون ونصف من طرد أسلافهم ، اذ شعر بحاجة الدولة البورجوازية التي كانت قيد البناء الى خدماتهم المالية والمصرفية . ورافق ازدياد حاجة هذه الدول الى المال والقروض والاستثمارات عملية تجميع للثروات الفردية اليهودية التي لم تعد كافية في وضعها المشتت لسد هذه الحاجات . لذلك نجد ان آل روثتشايلد

كان لهم دور هام في تمويل العائلة المالكة في فرنسا (البوربون) ثم ارتبطوا بعلاقات حميمة مع الملك لويس فيليب وازدهروا تحت حكم نابليون الثالث · وبمقابل اعتمـــاد الملـــوك واجهزة دولهم المتزايـــد على الطبقة الوسطى والبورجوازية اليهودية ، بخاصة في المراحل الاولى ، كانوا يضطرون لتقديم التنازلات المستمرة امام مطالب البورجوازية الملحة · واخذت هذه التنازلات بالنسبة لاثرياء اليهود صورة حقوق وامتيازات خاصة بهم من النوع الـــذي كانت تكافح الطبقة الوسطى من اجل الحصول عليه وتعميمـــه في المجتمع · ومع انتصار البورجوازية بصورة حاسمة في الثورة الفرنسية وتوطيـــــد مفهومها الثوري ، يومئذ ، للمساواة الاجتماعية اعـــطي كل اليهود فـــي فرنسا الحقوق المدنية المعروفة كاملة بما فيها الحق المطلق واللامحدود في الملكية · الآن هذا الانتصار عنى ايضا ان البورجوازية المسيحية بسيطرتها علـــى الدولة القومية الحديثة ونمو رأسمالها الصناعـــي في القرن التاســع عشر أخذت تحل تدريجيـــا محل البورجوازيـــة اليهودية في التعامل مع الدولة واجهزتها وفي الاشراف على شؤونها المالية · علـــى سبيل المثـــال كان التجار اليهود الاثرياء يحتكرون تمويـــن الحكومات وجيوشهـــا بالاغذية والالبسة اللازمة ، ومع خروجهم التدريجي من هذا الميدان نمـــت التجارة اليهوديـــة بالاغذية والحبوب والالبسة بصورة مركزة · كما دخل ابناء هذه الطبقـــة المهن الحرة بكثافة وانتشروا بكثرة في الميادين العلمية والفكرية والثقافيـــة (صحافة ، نشر ، مسرح ، موسيقى ، الخ ···) ·

وبصورة عامة يمكننا القول انه مع مجيء القرن التاسع عشر كانـــت الشرائح العليا من البورجوازية اليهودية مندمجة بصورة طبيعية في الطبقة الرأسمالية الحاكمة في بلدان اوروبا الغربية والولايات المتحدة الامريكية · كما كانت الشرائح الادنى والافقر منها مندمجة ايضا ، ولكن بنسبة اقـــل ، في البنيان الطبقي للمجتمعات التي كانت تعيش فيها · ومن الامثلة المبكـــرة التي يمكننا الاشارة اليها بالنسبة لاندماج البورجوازية العليا على النحـــو المذكور نجاح يهود برلين الاغنياء في نهاية القرن الثامن عشـــر في الحؤول دون نزوح يهود المقاطعات الشرقية الاكثر تخلفا وفقرا باتجاه برلين خوفـــا

من أن يؤثر ذلك على وضعهم المرتاح (٣٩) · اذ ان اليهود الاثرياء لم ينظروا الى « اخوانهم في الدين » من الفقراء بعين المساواة مع أنفسهم · لان المساواة كانت تعني بالنسبة اليهم مساواة طبقتهم بالبورجوازية المسيحية الثرية لا اكثر · مثال آخر نجده في سلوك البورجوازية اليهودية في مدينتي بوردو وآفنيون · احتجت هاتان البورجوازيتان بشدة في البرلمان الفرنسي (١٨٨٧) ضد اعطاء حقوق المساواة ليهود المقاطعات الشرقية من البلاد وذلك لاسباب شبيهة تماما بدوافع يهود برلين الاثرياء · (٤٠)

عبَّرت البورجوازية اليهودية الجديدة عن التلاؤم الذي حققته مع النظام الرأسمالي وعن اندماجها في محيطها البورجوازي الاوروبي الغربي العام عن طريق ظواهر شتى من المفيد رصد اهمها بسرعة :

أ) على الصعيد الاقتصادي ، اتجهت الشرائح العليا للبورجوازية اليهودية نحو اخذ حجمها الطبيعي داخل عالم البورجوازيات الاوروبية المسيطرة فلم تعد بارزة بروزا خاصا في عالم المال كما كانت في السابق · اذ بعد أن انشأت البورجوازيات المسيحية الحاكمة البنوك الكبرى التابعة لدولها (فرنسا ، بريطانيا ، المانيا) واقامت مؤسساتها المالية الضخمة (بخاصة في الولايات المتحدة الامريكية) أصبحت المصارف والبيوتات المالية اليهودية (٤١) تبدو متواضعة في حجمها ودورها في ظل المؤسسات العملاقة الاخرى وبالنسبة اليها · وقد لاحظ فريدريك انجلز هذه الظاهرة وأشار اليها في احدى رسائله بقوله :

....

(٣٩) Hannah Arendt, **Antisemitism,** Harcout, Brace and World Inc., New York, 1968, p. 18.

(٤٠) المرجع السابق ·

(٤١) اهم هذه المؤسسات والمصارف هي التابعة للاسر اليهودية التالية :
آل ايختال ، ال سبير ، ال سليجمان ، ال أوبنهايم ، ال هيرش ، ال روتشايلد ·

« في امريكا الشمالية كلها **لا يوجد يهودي واحد** بين اصحاب الملايين الموجودين هناك والذين تعجز الماركات او الغولدنات أو الفرنكات الحقيـــرة التي نستعملها عن التعبير عن ثرواتهم . وليس آل روتشتايلـد سوى شحاذين عاديين بالمقارنة مع هؤلاء الامريكيين . وحتى هنا في انكلترا فان روتشتايلد ذا امكانات متواضعة بالمقارنة مع دوق وستمنستر مثلا . وحتى بالنسبة لنا في الراين حيث استطعنا بمساعدة الفرنسيين طرد النبلاء من البلاد قبـــل خمسة وتسعين عاما وخلقنا صناعتنا الخاصة ـ أين هم اليهود ؟ » (٤٢)

ب) على الصعيد الاجتماعي ، ازداد عدد اليهود من ابناء البورجوازية الذين تخلوا عن دينهم واعتنقوا المسيحية وبخاصة بين صفوف الانتليجنسيا والعاملين في المهـــن الحرة التي دخلهـــا اليهود بكثافـــة كبيرة . (٤٣) ومن الحالات المشهورة بالنسبـــة لاعتناق الدين المسيحـــي يمكننا ان نذكر السياسي البريطاني الشهير ديزرائيلي ، والكاتـب الالمانـــي لودفيك بورن والشاعر هاينريش هاينة وجميع ابناء وبنات الفيلسوف الالماني اليهودي موسى مندلسوهن (باستثناء واحد منهم) ، وعددا كبيرا من تلامذته ، كذلك الامر بالنسبة لجميع اولاد السياسي اليهودي الفرنسي آدولف كريميو . ويجـب الا يفوتنا هنا ذكر أسرة كارل ماركس نفسه اذ اعتنق والـداه المسيحية وقاما بتعميد اطفالهما (بما فيهم كارل) وفقا لطقوس المذهب البروتستانتي .

جـ) على الصعيد الثقافي والحضاري انتجت البورجوازية اليهوديـــة

(٤٢) رسالة الى شخص غير معروف ، ١٩ ـ ٤ ـ ١٨٩٠ .

Karl Marx and Frederick Engels: Selected Correspondence 1846-1895. International Publishers, New York, 1942, pp. 469-472.

(٤٣) كتب الفيلسوف الالماني اليهودي موسى مندلسوهن في رسالة الى احد اصدقائه: « لا يستطيع ابني ان يصبح سوى طبيب او تاجر او شحاذ » . انظر : ولتر لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ٦ .

الجديدة وقادت حركة « الهاسكالا » ، اي عصر التنويـــر اليهودي ، حيث حاولت ان تحقق منجزات حديثـة وليبرالية وثوريـــة في المجالات الثقافية والحضارية شبيهة بالخطوات التي حققتها بورجوازية اوروبا الغربية ·لذلك دخلت حركة الهاسكالا في صراع في القرن التاسع عشر ضد القوى المحافظة والسلفية المهيمنة على شؤون الحياة في المجتمعات اليهوديـــة وعملت على ازاحتها من مواقعها المسيطرة · اي عبرت حركـــة الهاسكالا عن الصراع الاجتماعي بينالبورجوازية اليهودية الجديدة المرتبطة كليا بالنظام الرأسمالي العام والمتلائمة مع تطوره وبين الطبقات الاجتماعية الاخرى الاكثر تخلفـــا التي ما زالت مرتبطة ببقايا اسلـوب حياتها وانتاجهـــا القديم والسائر في طريق التدهور لان بنيته موروثة من عصـــور الاقطاع وثقافتهـــا وعلاقاتها الانتاجية · كذلك انتجت البورجوازية اليهودية الجديدة حركات الاصـــلاح والتحديث الدينية التي انشقت عن التراث التقليدي للدين اليهودي وطقوسه في محاولة واسعة لملاءمته مع مصالحها الراهنـــــة والمطالب التي يفرضها العصر الجديد الذي تعيش فيه ·

د) على الصعـــيد السياسي اعطت البورجوازيـــة اليهوديـــة فـــي بادىء الامر ولاءها الكلي للحركات القومية في البلدان الموجودة فيها واعتبرت ذلك جزءا من عملية اتمام تحررها الاجتماعي العام · وبامكانـــنا ان نضرب عـــدة امثلة على هذا السلوك · عندما دعا ملـــك بروسيا رعايـــاه للقيام بواجبهم الوطني في القتال ضد نابليون كانت ردة فعل البورجوازية اليهودية بمنتهى الحماسة لان الدعوة اعتبرت اليهود مواطنين بروسيين مثلهم مثل بقية سكان البلاد · لذلك كانت استجابتها مملوءة بالنشوة كما يتبيـــن من احد البيانات اليهودية التي صدرت حول هذا الموضوع حيث جاء :

« آه ، يا له من شعور سماوي ان يمتلك الانسان وطنا ! آه ، يا لها من فكرة تبعث على النشوة عندما يدعو الانسان بقعة ما ، مكانا ما ، زاوية ما ، وطنا له على هذه الارض الجميلة· » (٤٤)

....

(٤٤) « تاريخ الصهيونية » ، ص ٣ ·

مثال آخر نجده في ما كتبه المحامي اليهودي الالماني جابريال ريسر الـــذي اضطر الى ترك مدينة آلتونا ، مسقط رأسه ، لان قوانينها لم تكن تسمـح له بممارسة مهنته فيها · يعبر هذا الداعية الهام لتحرير اليهـــود الكامـل في اوروبا عن عنف الرغبة عند البورجوازية اليهودية وعمقها من اجل الانتمـاء الى قومية البلد الذي تعيش فيه (المانيا في هذه الحالة) · يقول ريسر :

« ان كل من ينازعني حقي في الوطن الالماني انما ينازعنـــي حقي في افكاري ومشاعري ، في اللغة التي اتكلمها ، والهواء الـذي استنشق · انـــه يحرمني حتى من حقي في الوجود ، ولذا ينبغي عليّ ان أدافع عن نفســـي ضده كما لو كنت أواجه قاتلا · » (٤٥)

وفي مناسبة أخرى كتب قائلا :

« ان الاصوات القوية في اللغة الالمانية ، وقصائد الشعراء الالمان قد اشعلت في افئدتنا نار الحرية المقدسة · نحن نريد ان نلتحم بالشعـب الالماني ، ولسوف نلتحم به في كل مكان · » (٤٦)

كذلك نجد ان البند الاول في برنامـج « الجمعيـــة المركزية للمواطنين الالمان من الدين اليهودي » ، وهي أقـــوى مؤسسة عرفـها تاريخ يهود المانـيا الحديث ، قد شدد على ارتباط اليهود التـــام بالمانيا وبمصالحهـــا القومية واعتبر علاقاتهم باخوانهم في الدين مـــن الاجانب شبيهـــة تماما بعلاقـات الكاثوليكي او البروتستانتي الالماني باتباع هذين المذهبين في البلدان والدول الاخرى · وكانت تشدد هذه الجمعية دوما على انه لا يوجد مستقبل ليهـــود المانيا خارج الارض الوطنية الالمانية · (٤٧)

....

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٨ ·

(٤٦) المرجع السابق ·

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٣١ ·

حتى في روسيا القيصرية حيث كان نمو البورجوازية اليهودية هزيلاً وتطورها ضعيفا ، وحيث لم يكن اليهود قد حصلوا على اي من الحقوق المدنية والسياسية والعامة المعروفة فقد تمسكت هذه البورجوازية بالقومية الروسية ودعت كافة اليهود للاندماج فيها ٠ على سبيل المثال كان اوسيب رابينوفيتش رئيس تحرير اول مجلة يهودية باللغة الروسية يدعو اليهود ، وبخاصة الاوساط المثقفة بينهم ،ليجعلوا اللغة الروسية الرائعة لغتهم ٠ او على حد قوله :

« روسيا هي وطننا ويجب ان تكون لغتها لغتنا وهواؤها هواؤنا ايضا » (٤٨) ٠

وقام داعية مشهور آخر ، يدعى اورزانسكي بالدعوة الى الدمج الكلي لليهود في الامة الروسية مؤكدا ان اليهود يعملون بنشاط كبير كي يكتسبوا الروح القومية الروسية ، وطريقة الحياة الروسية ، وكي يصبحوا روسيين في كل شيء ★ ٠ لكن على الرغم من هذا النمو للبورجوازية اليهودية وتلاؤمها مع محيطها الاقتصادي والاجتماعي العام فقد تعرضت الحياة اليهودية في اوروبا كلها الى هزات عنيفة ومتتالية ولّدتها أزمات النظام الرأسمالي وتناقضاته ٠ كان لنمو الرأسمالية في اوروبا الشرقية وروسيا مع مطلع القرن التاسع عشر من جهة ، وللصعود السريع للرأسمالية الصناعية في اوروبا الغربية في الفترة نفسها من جهة اخرى ، اعظم الآثار على حياة الجماهير اليهودية في اوروبا كلها ٠ وليس بالامكان تحقيق فهم دقيق نوعا ما للحركة الصهيونية دون الاشارة اليها ٠ كذلك لا بد من التنويه هنا الى تنبه لينين لظاهرة تأثر الجماهير اليهودية (وهي في غالبيتها من البورجوازية الصغيرة المفقرة) السريع والحاد بالنتائج السلبية التي كانت تفرزها تناقضات الرأسمالية وازماتها مما كان يقذف باعداد كبيرة من هذه الجماهير الى صفوف الحركة العمالية الثورية والى داخل الاحزاب

(٤٨) المرجع السابق ، ص ٣٦ ٠

★ المرجع السابق ، ص ٧٦ ٠

الاشتراكية كمناضلين ضد نظام الاستغلال الرأسمالي ، هذا على الرغم من ان عملية تكون طبقة عاملة يهودية كانت عملية بطيئة وهزيلة نسبيا ٠ يقول لينين بهذا الصدد :

« من جهة ، قدم اليهود نسبة مئوية مرتفعة بصورة خاصة (بالقياس الى الرقم الاجمالي للسكان اليهود) من قادة الحركة الثورية ٠ كما انه لا بد من ان نذكر في هذه المناسبة ما هو موضع فخر لليهود وهو انهم يقدمون اليوم نسبة مئوية أعلى من ممثلي الامية بالمقارنة مع بقية الامم ٠ » (٤٩)

كذلك كان انجلز قد اشاد هو ايضا بأهمية المساهمات اليهودية في سبيل الحركة الثورية وفي سبيل القضية البروليتارية وانتصارها كما أشاد بالروح النضالية القوية التي تظهرها البروليتاريا اليهودية ٠ (٥٠)

في مطلع القرن التاسع عشر كان اكبر تجمع لليهود في العالم موجودا في اوروبا الشرقية وروسيا القيصرية حيث كانوا يعيشون في مسام تلك المجتمعات بسبب طبيعتها الاقطاعية والزراعية المتخلفة ٠ كانوا يحتكرون التجارة والربا ويعملون كجباة ضرائب وكوكلاء لصالح النبلاء وكوسطاء بين الفلاحين والاسياد الاقطاعيين ٠ أي كانوا يمارسون الوظيفة الاجتماعية المعهودة في هذا النوع من المجتمعات الزراعية الراكدة ٠ وكان من نتائج دخول الرأسمالية الى مجتمعات اوروبا الشرقية وروسيا القيصرية ، ولنمو طبقة بورجوازية محلية تجارية وصناعية ، تقويض دعائم النظام الاقطاعي السائد ٠ أي تقويض دعائم النسيج الاجتماعي الذي كان اليهود يعيشون في مسامه مما ادى الى اقتلاعهم التدريجي من مواقعهم الاقتصادية

(٤٩) الطبعة الانكليزية من « اعمال لينين الكاملة » ، دار التقدم ، موسكو ١٩٦٤ ، ج ٢٣ ص ٢٥٠ ٠ الترجمة العربية انظر ، « لينين : نصوص حول المسألة اليهودية » ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٦٩ ٠

(٥٠) راجع رسالة انجلز المشار اليها سابقا ٠

التقليدية والى ضرب الوظيفة الاجتماعية التي كانوا يقومون بها على مدى قرون · على سبيل المثال يقول احد كبار دارسي النظام الرأسمالي- فيرنر سومبارت - ما يلي في تشخيص هذه الظاهرة :

« لا يعود بؤس اليهود في روسيا الا ً الى فترة الغاء القنانة والنظام الاقطاعي في الملكية الريفية · لقد وجد اليهود فرصا واسعة للاستمرار كتجار ووسطاء طوال فترة وجود الاقطاع والقنانة · » (٥١)

أي مرة ثانية نجد أنفسنا أمام ظاهرة الصراع التناحري بين الرأسمالين البضاعي والربوي من ناحية وبين الرأسمال الجديد (التجاري والصناعي) من ناحية اخرى في محاولة الثاني اخضاع الاول وامتصاصه والحلول محله مع كل ما يترتب على هذه الظاهرة من نتائج اجتماعية وسياسية ضخمة · وقد أدى هذا الصراع الى حركة متشعبة من الهجرة والتهجير للجماهير اليهودية من الريف تناسبت كثافتها تناسبا طرديا مع سرعة انحلال علاقات القنانة والاقطاع ، وتزايد غزو اقتصاد السوق لقطاع الانتاج الزراعي ونمو الطبقات البورجوازية المحلية وصعودها التاريخي · كان اليهود المفقرون المطرودون من مواقعهم الاقتصادية التقليدية يهاجرون الى المدن الكبيرة داخل مجتمعاتهم ، والى اوروبا الغربية وامريكا وغيرها من مناطق الهجرة المعروفة في القرن الماضي · بعبارة اخرى لم يعد بأمكان الجاليات اليهودية الهجرة الى مجتمعات اقطاعية اخرى كي يعيشوا في مسامها كما حدث معهم لقرون خلت عندما بدأت الرأسمالية بالصعود في اوروبا الغربية كما رأينا فيما سلف · اي حلت عمليات الهجرة والتهجير محل الطرد الرسمي الجماعي الذي عرفه اليهود في البلدان الاوروبية الغربية سابقا · وبطبيعة الحال لقد نقلت الهجرة هذه قسما من الجماهير اليهودية الى صفوف البروليتاريا بينما بقي القسم الاكبر منها يعتاش من

---

(٥١) راجع كتاب ابراهام ليون المشار اليه سابقا ، ص ٨٣ · الترجمة العربية ، ص ٢٦ ·

نشاطات مرتبطة ، بصورة او باخرى ، بالتجارة والصناعات ذات الطابع الحرفي والصناعات الخفيفة المنتجة للبضائع الاستهلاكية وذلك في مراكز التجارة والصناعة الكبرى في اوروبا كلها وامريكا · وجدير بالذكر ان ظاهرة الهجرة لم تكن شيئا خاصا باليهود وحدهم بل كانت جزءا طبيعيا من آلية عمل النظام الرأسمالي · ففي مراحل سابقة عرفت بلدان تطورت رأسماليا ، انكلترا مثلا ، ظاهرة الهجرة ايضا ، وذلك عندما اخذت رسملة قطاع الانتاج الزراعي تأخذ مداها من جهة ، وراحت عملية مكننة الانتاج الصناعي وتركيزه تمتد من جهة ثانية ، مما ادى الى اقتلاع الفلاحين والحرفيين من اسباب رزقهم التقليدية فدخل قسم منهم جيش البروليتاريا واضطر القسم الآخر للهجرة الى اماكن بديلة داخل القارة الاوروبية وخارجها بصورة خاصة · وكان من اهم النتائج التي أدت اليها هذه التطورات التاريخية انبعاث الحركة المعادية للسامية بشكلها الحديث في اوروبا كلها وفي روسيا القيصرية وامبراطوريتها ·

في اوروبا الشرقية حملت البورجوازيات المحلية ، بالتحالف مع الامراء الاقطاعيين ، لواء معاداة السامية باعتبارها الانعكاس الايديولوجي والسياسي الفوقي لاندفاعها المادي باتجاه توسيع اعمالها لتشمل اكبر رقعة ممكنة من البلاد (سوقها الوطنية) ونحو الاستيلاء على كافة القطاعات الاقتصادية والنشاطات التجارية والهيمنة عليها نهائيا بعد التخلص من السيطرة اليهودية التقليدية عليها·وكما هو معروف كانت هذه البورجوازيات تلوم باستمرار المنافسة اليهودية لتبرير عجزها عن تقديم اية حلول حقيقية للمعضلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت تواجه شعوبها ومجتمعاتها ، كما كانت تنظم التيار المعادي لليهود كي تستفيد منه في ابعاد الانظار عن المشكلات والازمات التي كانت تتخبط بها والتناقضات الواقعة فيها · وقد سارت هذه الطبقات ، من خلال برامجها المعادية للسامية وتحت وطأة تناقضاتها ومعضلاتها ، باتجاه التحضير لبروز الفاشية والتمهيد لصعودها فيما بعد · وقد بلغت الحركة المعادية للسامية ذروتها في القرن الماضي في المذابح الواسعة التي تعرض لها اليهود في روسيا (بمشاركة

السلطات القيصرية) واوروبا الشرقية ابتداء من سنة ١٨٨١ ٠

أما في اوروبا الغربية فقد حركت الهجـرة اليهودية نوازع لا سامية قوية في صفوف الطبقات الوسطى تفاوتت حدتها من بلد الى بلد ٠ كانـت البورجوازية الصغيرة في تلك البلدان قد أخذت تعاني معاناة شديدة ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، من استـغلال الرأسمال الاحتكـاري ومن اتساع حجمه وتزايد قوته وتمركزه وميله الطبيعي للتوسع المستمر على حسابها ، مما جعلها تعيش حياة منافسة مريرة مـع اخصامهـا وبخاصة البورجوازية اليهودية الصغيرة ٠ وقد وصل هذا الوضع الى حالة التفجر مع توافد الجماهير اليهودية المهاجـرة من روسيـا واوروبا الشرقية وهي في معظمها ذات طابـع حرفي وبورجوازي صغير كما هو معروف ٠ ومما زاد الوضع خطورة ان البورجوازية الصغيرة في بلدان اوروبا الغربية المتحدرة من اصول حرفية اعتادت على عقلية الحماية والامتيازات التي كانت توفرها الروابط الحرفية المغلقة تحت اشراف الدولة ٠ لذلك كانت هذه الطبقة تتضايق من نظام الاقتصاد الحر القائم على المنافسة المفتوحة كليا (Laissez-faire) وتعاديه تحت اسم « نظام مانشستر » (The Manchester System) وبما ان نظام المنافسة الحرة كان قد اعطى الحق المبدئي لليهود بالدخول الى كافة الاعمال والوظائف والحرف والمهن فقد رأت البورجوازية الصغيرة في اليهود صانعي « نظام مانشستر » المكروه واصحابه وممثليه ٠

اما الطبقات الارستقراطية المتداعية فقد وجدت في الحركة المعاديـــة للسامية اداة لخدمة بعض اهدافها في صراعهـا الخاسر ضد البورجوازية صانعة الدولة القومية الحديثة والمهيمنة على حياتها ٠ وبامكاننا ان نضرب مثلين على ذلك : أ) بعد الهزيمة التي منيت بهـا بروسيا على يــد نابليون وجيوشه في سنة ١٨٠٧ جاء نظام « المصلحيـن » ليبـدل البنية السياسية للدولة حيث توفرت الشروط المناسبـة للنمـو السريع للطبقة الوسطـى الصاعدة يومها في البلد ممـا أدى الـى خسائر كبيرة في امتيازات الطبقة الارستقراطية ومواقع قوتها ٠ وقد بلغ هذا التطور في الدولة البروسية ذروته في انشاء الدولة الالمانية الموحدة عام ١٨٧١ ٠ وكما ان البرجوازية الصغيرة

كانت تسقط عداءها « لنظام مانشستر » على منافسيها اليهود ، اسقطت الارستقراطية البروسية (والالمانية عامة) عداءها للبرجوازية عامة على الرأسمال اليهودي وممثليه ، بخاصة وان النبلاء كانوا باستمرار يقترضون المال من المرابين اليهود · لذلك تفجرت اضطرابات معادية للسامية في بروسيا على اثر استلام « المصلحين » للسلطة · ب) في الربع الاخير من القرن الماضي حاولت الطبقات الارستقراطية الرجعية في بعض بلدان اوروبا الغربية المتطورة شن معارك يائسة اخيرة ضد الطبقات الوسطى المسيطرة ، متحالفة مع قوى دينية متخلفة (الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا والنمسا ، والبروتستانتية في المانيا) من اجل محاربة الليبرالية باسم العقيدة المسيحية وعن طريق تنظيم التيار المعادي للسامية وقيادته · مثلا ، كانت قضية دريفوس الشهيرة من اهم النتائج التي ولدها هذا الحشد للقوى الاجتماعية الاكثر رجعية وتخلفا في فرنسا ، حيث حاول الملكيون وانصار الكنيسة بالتحالف مع الرجعية العسكرية ضرب الجمهورية الثالثة وتخريبها، فشنوا هجوما واسعا يومها ضد اليهود والبروتستانت ورجال المال والاحزاب الجمهورية والمؤسسات الديمقراطية ، الخ ··· أي ضد كل من لم يكن ينسجم مع مصالحهم الطبقية الضيقة المنهارة · وفيما يلي ملاحظة انجلز الهامة حول هذه الظاهرة كما تجلت في المانيا والنمسا :

« في بروسيا ان صغار النبلاء ، اليونكرز ـ الذين ينفقون ٢٠ الف مارك من أصل دخل يبلغ ١٠ آلاف مارك فيقعون بالتالي في أيدي المرابين ـ هم الذين يثيرون العداء للسامية · أما الجوقة فتتألف في بروسيا والنمسا من البورجوازيين الصغار والحرفيين وصغار الباعة ـ الذين ينحدرون الى الخراب نتيجة منافسة الرأسمالية الكبيرة ـ الذين يصرخون في انسجام مع اليونكرز ·» (٥٢)

أما بالنسبة للبورجوازية اليهودية المندمجة في اوساط الطبقات الحاكمة

....

(٥٢) رسالة انجلز المشار اليها سابقا ·

في اوروبا الغربية (وامريكا) فقـد تضايقت كثيرا مـن الهجرة اليهودية الآتية من اوروبا الشرقية ومن انبعاث الحركات المعادية للسامية وانتشارها خوفا على مواقعها الاقتصادية ومركزها الاجتماعي · وشمل هذا الخـوف بصورة خاصة امراء الرأسمال اليهودي والشرائح الوسطى من البورجوازية اليهودية المتركزة في الاعمال التجارية وميدان المهن الحرة الواسع ، بالاضافة الى المجالات العلمية والادبية · لذلك اخذت كل من هاتيـن الفئتين تبحـث باسلوبها الخاص عن طرق للحد من الهجرة اليهودية الى اوروبا الغربيـة وتعمل على تحويل دفق الجماهير المعدمة الى مناطق اخرى من العالم خارج القارة الاوروبية كلها (فلسطين بشكل خاص) · على هذا الاساس قامـت عناصر يهودية قيادية مهمة في أوائل هذا القرن بدعم قوانين الحد من الهجرة التي سنتها حكومات الدول الاوروبية الغربيـة (وحكومة الولايات المتحدة ايضا) والتي استهدفت بصورة رئيسية اليـهود المشردين والمعدمين ، كمـا تجاوبت بقوة ولهفة مع المشاريـع الاستعمارية الاستيطانيـة للتخلص من « المسألة اليهودية » وبذلت جهودا حثيثة لانجاحها ·

II

المنشأ الامبريالي للمشروع الصهيوني

لقد أصبح الرد التاريخي النهائي والحاسم على الوهم المثالي القائل بأن الصهيونية قديمة قدم الدين اليهودي نفسه ثابتا ومعروفا على نطاق واسع · لكن الحقيقة التي لم يتم التأكيد عليها بما فيه الكفاية هي أن المنبع الاولي للصهيونية (باعتبارها مشروعا حديثا يدعو اليهود ـ بتحديد أكبر يهود أوروبا ـ الى « استعادة » فلسطين عن طريق استعمارها والاستيطان فيها تحت اشراف واحدة أو اكثر من الدول الاوروبية الغربية الكبرى) لم يكن يهوديا في الاساس ، بل جاء من اطراف أخرى بغية خدمة مصالحها « الحيوية » · وستتضح لنا هوية هذه الاطراف وطبيعتها في الصفحات التالية ·

ولايضاح ما نعنيه لا بد من الاشارة الى ان الفكرة التقليدية عن « العودة » الى الارض المقدسة أو « الموعودة » لم تكن تعني عند اليهود في مطلع العصور الحديثة اكثر من تطلع عاطفي ديني عام ، ورغبة عند بعض المتدينين في الاقامة في فلسطين للتعبد ومجاورة الاماكن المقدسة والعيش وفقا للشرائع الدينية ، كل ذلك بانتظار قدوم المسيح المنتظر الذي سيعيد بناء الهيكل عن طريق معجزة الهية · ولا يختلف هذا التطلع العاطفي اليهودي كثيرا عن التطلعات المشابهة للجماهير المسلمة المتدينة في جميع

انحاء العالم باتجاه مكه مثلا ، أو تطلع الجماهير المسيحية المتدينة باتجاه القدس وبيت لحم . لذلك لا غرابة في ألا يكون اليهـــود هم المصدر الاولي للمشروع الصهيوني الداعي الى استعمار فلسطين بالمعنـى الحديث للعبارة واقامة دولة قومية فيها ، بخاصة وان تكونهـم الاجتماعي والطبقي الحديث لم يكن قـد تبلور بعـــد بصورة تسمـــح بانطـلاق المشاريـــع الاستعـمارية والاستيطانية والدعوات القومية من اوساطهم . بعبارة أخرى اذا اردنا ان نحدد الاسس الماديـــة والطبقية والاجتماعية التي انطلق منهـــا المشروع الصهيوني انطلاقاته الاولى علينا ان نبحث عنهـا في مكان آخر ، وبتحديد اكبر في الاوساط التي كانت وقتئذ مؤهلة تاريخيـا وموضوعيا لافراز مثل هذه المشاريع لان لها مصالح حيوية في العمل الطويل على تحقيقها . أمـــا الاوساط المشار اليها فهي ليست الا الطبقات البورجوازية الحاكمة في دول اوروبا الغربية التي كانت منهمكة في بناء الدولـة الرأسمالية الحديثة على الاسس القومية المعروفة ، وعلى أساس : التوسع التجـــاري والعسكري المستمر خارج القارة الاوروبية ، والسيطرة الاستعمارية المتعددة الاشكال على اراضي القـــارات الاخرى وشعوبها ومصادر ثرواتهـــا وتجارتها ، والتنافس التناحري المستمر بين دولها في ابتداع سياسات امبريالية تهدف الى بناء الامبراطوريات واقتناء المستعمرات والهيمنة على مسالك التجارة الحيوية في العالم ، وبخاصة التجارة مع المناطق التي كان يسميّهـا تجار اوروبا يومها « بـالشرق » و « الليفانـت » (The Levant) . وبمـــا ان مناطق مثل مصر وسوريا وفلسطين تقع على طريق التجارة معالهند كان لا بد لكل دولة من الدول الاوروبية التجاريـة من ان تبدي اهتماما امبرياليا كبيرا بهذه المناطـــق بسبب الصراع القائم بيـــن الدول المذكورة من أجل السيطرة على هذه التجارة واحتكار القــــدر الاكبر من منافعها وارباحها لنفسها . وبالاضافة الى ذلك اذا تذكرنا ان هذه الدول كثيرا ما كانت تعزز مطامحها التوسعية عن طريق خلق مستعمراتهـــا « البيضاء » في المناطق الاستراتيجية والحساسة عسكريـــا وتجاريـــا بالنسبة لمصالح السياسة الامبريالية التي تتبعها ، لا يعود هناك أية غرابة في ان تطرح كل واحدة من البورجوازيات التجارية الاوروبيـة الاقـــوى مشروعـها الصهيونـي الخاص

باستعمار فلسطين على يد اليهود واقامة « وطن » لهم فيها يكون مرتبطا بأوثق العلاقات بالدولة الاوروبية الام صاحبة المشروع وراعية تنفيذه والمستفيدة الكبرى من منافعه · ونجد المثال الكلاسيكي على ذلك في الاهتمام الذي أولته كل من هولندا وانكلترا لمنطقة رأس الرجاء الصالح باعتبارها موقعا حيويا جدا على الطريق البحرية الى الشرق · ونتيجة لهذا الاهتمام بدأ « الاستيطان الابيض » هناك لضمان المصالح الاستراتيجية على هذا الخط التجاري وتأمين حاجات السفن بالاضافة الى « حماية » الساحل من ردود فعل سكان البلد وأصحابه ·

لقد اطلق المؤرخون اسم « الصهيونية الاممية » او «صهيونية الاغيار» على ظاهرة اهتمام فئات معينة من المسيحيين في اوروبا الغربية ـ وخاصة في انكلترا ـ بعودة اليهود الى فلسطين · ولا شك ان الفضل الاول في تعريف القارىء العربي بشكل موسع على هذه الصهيونية غير اليهودية وعلى الدور الذي قامت به تاريخيا يعود الى كتابات الدكتور اسعد رزوق (١) · ولكن لا بد لنا من تسجيل ملاحظة نقدية اساسية تتعلق بالمنهج الذي تبعه في عرض هذه الظاهرة وتفسيرها · يكمن الخطأ الاساسي في معالجة الدكتور رزوق في عدم خروجه البتة عن منهج المؤرخين والباحثين التقليديين ـ ممن يستعرض ابحاثهم وتفسيراتهم ويورد استنتاجاتهم ـ الذي يمكننا تسميته بالمنهج « الليبرالي الانتقائي » لانه يكتفي عند تفسير الظاهرة المطلوب تفسيرها بالتأكيد على انها ناتجة عن عامل سياسي ، وعامل ديني ، وعامل تاريخي، وعامل اجتماعي ، وعامل اقتصادي ، وعامل استعماري امبريالي الخ ، وكأن كل هذه العوامل هي بمستوى واحد من الاهمية والجذرية والحسم في تكوين الظاهرة وتفسير معالمها وطبيعة صيرورتها التاريخية · لا نجد في معالجة الدكتور رزوق أية محاولة لتخطي هذا المنهج في تعداد « العوامل »

....

(١) « اسرائيل الكبرى » (١٩٦٨) و « الصهيونية وحقوق الانسان العربي » ج١ (١٩٦٨) ، مركز الابحاث ، بيروت ·

المختلفة و « البواعث » المتنوعة الكامنة خلف الظاهرة التاريخية التي نحن بصددها ، وذلك باتجاه تقرير أي عامل او باعث يقوم بالدور الحاسم في تكوين الظاهرة وتفسيرها مما يسمح لنا على ضوء ذلك بتحديد طبيعة الدور الذي تقوم به العوامل الاخرى وتحديد حجمها واهميتها الخ · على سبيل المثال لا يجد الدكتور رزوق أي خلل في وصف صهيونية الاغيار بالقول انها:

«ظاهرة تاريخية ودينية تصدر عن بواعث سياسية وامبريالية الى جانب الباعث الديني الموروث والمستمد من نظرة خاصة الى الكتاب المقدس » (٢) ·

كما انه يعتبرها « خليطا عجيبا من العوامل » أو على حد ما جاء في كتابه :

« وهي الظاهرة التي جمعت في تكوينها ذلك الخليط العجيب من العوامل الدينية والاجتماعية، بالاضافة الى استحضارها للمشاعر الانسانية النزعة » · (٣)

ونتيجة لهذا التشويش في المنهج يصل الدكتور رزوق الى استنتاجات ان لم تكن كلها واقفة على رأسها تماما فان بعضها أعرج بالتأكيد وفاقد لتوازنه · مثلا : ا) موافقته الضمنية على تفسير المؤرخة باربرة توخمان « لمعالم الاهتمام البريطاني بفلسطين » بقولها ان هذا الاهتمام انطلق « من زاويتي المصلحة المادية المتنوعة والبواعث الدينية المتوارثة » (٤)· أي وضع الدكتور رزوق المصالح المادية (التجارية ، الاستعمارية الخ ·) والبواعث الدينية على مستوى واحد عند تفسير ظاهرة تاريخية مهمة مثل اهتمام

---

(٢) « الصهيونية وحقوق الانسان العربي » ، ج ا ، ص ١٤٠ ·

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٨ ·

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٠ ·

الطبقة البورجوازية الحاكمة في انكلترا بفلسطين · فكان وفيا بذلك للمنهج « الليبرالي الانتقائي » المذكور · ب) ميلـــــه من حين الى آخر الى اعتبار صهيونية الاغيار كحركة دينية لاهوتية صرفة مستقلة عن البواعث السياسية والعوامل الاقتصادية والتجارية والامبريالية مـــع انها تورطت في كل هذه الامور **فيما بعد** وتحالفت تحالفا وثيقا معها · لذلك يشير الدكتور رزوق الى « الجذور اللاهوتية التي استمدت منهـا (صهيونية الاغيار) الكثير » والى اكتسابها «فيما بعد طابعا سياسيا وامبرياليا واضح المعالم »(٥) (في حين ان العكس تماما هو الاقرب الى الحقيقة التاريخية) · كما يذكر قيام صهيونية الاغيار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر « بتوثيق عــرى التحالف والتعاون مع المصالح الامبريالية البريطانية الى درجة لا قبل لها في سائر انحاء اوروبة والعالم الغربي » (٦) · أي أن العلاقة بين صهيونية الاغيـــار كحركة دينية وبين الامبريالية ومصالح التوسع والاستعمار هي علاقة تحالف بين قوتين مستقلتين اساسا لكل واحدة منهما اصولها وبواعثها ومصادرها التاريخية المختلفة جذريا عن الاخرى · أو على حد تعبير الدكتور رزوق نحن امام « تحالف بين التوراة والسيف » في خدمة المصالح الامبريالية الانكليزية (وغيرها) (٧) · لكن الواقـــع هو ان صهيونية الاغيار لم تكن في يوم من الايام حليفا مستقلا للقوى الامبريالية ، بل كانت جزءا لا يتجزأ منها وأداة هامة من ادواتها · وهذا ما سنحاول تبيانه في الصفحات التالية من خلال مراجعة بعض الوقائع التاريخية المتعلقة بالموضوع مستفيدين من المادة التي عرضها الدكتور رزوق ومبتعدين عن منهجه « الليبرالي الانتقائي » المذكور ·

١) في اواسط القرن السابع عشر كـــان المتطهرون يحكمون انكلترا بقيادة كرومويل ، وكـما هو معروف كانت طبـقة رجـال الاعمال والتجـــار الانكليزية يومئـــذ تابعة في اغلبيتها الساحقة لطائفـــة المتطهرين · دخل

....

(٥) المرجع السابق ، ص ١٤٠

(٦) المرجع السابق ، ص ١٨٢ ·

(٧) المرجع السابق ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ · تعبير « التوراة والسيف » مقتبس من عنـوان كتاب باربرة توخمان « الكتاب المقدس والسيف » ·

كروموبل سلسلة من الحروب مع الدول الاوروبية التجارية الاخرى (البرتغال ، اسبانيا ، هولندا) كان موضوعها الرئيسي من سيهيمن على القسم الاكبر والاهم من التجارة العالمية يومها ، بخاصة التجارة مع الشرق (الهند) عبر « الليفانت » ومع مستعمرات الدول الاوروبية الواقعة على طرقها · في عز مرحلة الامبريالية التجارية التي نحن بصددها طرح المتطهرون الانكليز احد اوائل المشروعات الصهيونية المعروفة في تاريخ اوروبا الحديث · قام اثنان من المتطهرين الانكليز المقيمين في امستردام (أحد اهم المراكز التجارية وأكبرها في تلك الفترة) برفع عريضة الى حكومتهم تطالب السماح بعودة اليهود الى بريطانيا وببذل جهد مشترك مع هولندة لاعادة توطين اليهود في فلسطين · طالبت العريضة بما يلي :

« ستكون هذه الامةالانكليزية مع سكان الاراضي المنخفضة أول الناس واكثرهم استعدادا لنقل ابناء اسرائيل وبناتها في سفنها الى الارض التي وُعد بها اجدادهم ، ابراهيم واسحق ويعقوب ، كأرث باق ابدا » (٨) ·

لم تكن مطالب هذه العريضة المبكرة تعبر عن حالة عرضية أو عن وضع طارىء سيزول سريعا ، بل كانت تعكس اتجاها تاريخيا اساسيا صاعدا ينبع من مصالح مادية حيوية مرتبطة اشد الارتباط بتطور الرأسمالية الحديثة في اوروبا ونزعتها الواضحة نحو الغزو والنهب وبناء الامبراطوريات واخضاع بقية شعوب الارض لهيمنتها ومصالحها · لذلك قامت الطبقة البورجوازية الانكليزية في مرحلة مبكرة بتصدير المبشرين والتجار والرحالة و « العلماء » والمغامرين من كل نوع الى فلسطين (وغيرها من البلدان العربية) ليفتحوا الطريق ويمهدوها امام امتداد مصالحها ونفوذها · كما انفقت الاموال ، في مرحلة لاحقة ، على استكشاف « الارض

---

(٨) Tuchman, Barbra, **Bible and Sword: England and Palestine from the Bronze Age to Balfour**, Alvin Redman Ltd., London, 1957, p. 78.

المقدسة » وأقيمت الجمعيات المهتمة بالتعرف اليها ودراستها دراسة شمولية جامعة . فعلى سبيل المثال تأسست « جمعية فلسطين » عام ١٨٠٤ في لندن بهدف تشجيع المزيد من الاستكشاف لفلسطين واجراء الدراسات والابحاث حولها ، علما بأن « جمعية فلسطين » هـذه اصبحت عـام ١٨٣٤ جزءا مـن الجمعية الملكية الجغرافيـة البريطانية . وفـي عـام ١٨٦٥ تأسس في لـندن أيضا صندوق استكشاف فلسطين لخدمة الاهداف نفسها . ومع أن كل هذا الاهتمام الاستعماري بفلسطين كان يتم خلف واجهة دينية تدعي ان الاهتمام موجه الى «الارض المقدسة » والى عودة اليهود اليهـا لان ذلك سوف يعني ان مجيء ملكوت الله على الارض قد اصبح وشيـكا ، لم يخف القيمون على هذه المؤسسات اهدافها الحقيقية . على سبيل المثال قال اللورد شافتسبوري (سنتعرف على نشاطه الصهيوني الكثيف بعد لحظـات) ، في الخطاب الافتتاحي الذي القاه بمناسبة تعيينـه رئيسا لصندوق استكشاف فلسطين ما يلي :

« دعونا لا نتأخر في ارسال افضـل العملاء ... لتنقيب طول فلسطين وعرضها ، ولمسح الارض وتغطية كل زاويـة منها اذا امكن ، ولتجفيفها ، وقياسها ، أي اذا شئتم لاعدادها من اجل عودة مالكيها القدماء ، اذ ينبغي علي ان اعتقد بأنـه لن يطول الزمـن كثيرا قبل ان يقـع هذا الحدث العظيم ... » (٩) .

كذلك قام القنصل البريطاني في القدس جيمس فين (James Finn) وهو من اتباع اللورد شافتسبوري المخلصين ، بتأسيس « جمعيـة تشجيع العمل الزراعي اليهودي في الارض المقدسة » (١٠) من اجل العمل في سبيل

---

(٩) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(١٠) Kobler, Franz, **The Vision Was There: A History of the British Movement for the Restoration of the Jews to Palestine,** Lincolns-Prager Ltd, London, 1956, p. 81.

الاهداف الاستعمارية نفسها ودعم المشروع الذي كـان قد بدأه في القدس عام ١٨٥٢ تحت اسم « المزرعة الصناعية لتوظيـف يهود القدس » · وقد اعتبر المؤرخ الصهيوني ناحوم سوكولو هذا المشروع التجربـة الاولية في ممارسة اليهود للزراعة (١١) · كذلـك أسس القنصل الامريكي واردور كريسون (Warder Cresson) في العام نفسه مستعمرة زراعيـة يهودية معتبرا اياها البداية الاولى « لفلسطين الجديدة » حيث ستقيم الامة اليهودية وتزدهر (١٢) · ويرى سوكولو في جهود القنصل الامريكي مشروعا رائدا في تأسيس المستعمرات في فلسطين (١٣) · وليس من قبيـل المصادفة ان تأتي المبادرات الاولى في الاستعمار العملي لفلسطين على ايد بريطانية او انكلوسكسونية غير يهودية في الاصل ·

واضح اذن ان المشروع الصهيوني لم ينبـع في الاصل « من اعماق الجماهير اليهودية » كما تقول الكتابات الشائعة حـول الموضوع بل جاء استجابة طبيعية لضرورات التوسع الاوروبـي التجاري والعسكري على حساب بقية شعوب الارض وثرواتها وحريتها · وقـد اعطى هذا الميلاد للصهيونية طبيعتها الاستعمارية المرتبطة عضويا بالتوسع الاوروبي بأشكالـه المتعددة ، هذه الطبيعة التي لازمتها باستمرار من عصر الامبريالية التجارية الى عصر الامبريالية الامريكية الراهـن مرورا بمرحلة بـروز امبريالية الرأسمال الاحتكاري في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ·

٢) عندما حاول نابليون بونابرت في اواخر القرن الثامن عشر ضرب بريطانيا بواسطة قطع طريق تجارة الشرق عنها لم يجـد بدا من تجريد حملة للسيطرة على مصر وسوريا وفلسطين · كان هدف الامبراطور تعزيـز

---

(١١) Sokolow, Nahum, **History of Zionism**, Longmans, Green and Co. London, 1919, Voi. I, p. 161.

(١٢) كوبلر ، ص ٨٠ ·

(١٣) سوكولو ، ج ١ ، ص ١٣٧ ·

الامبريالية التجارية الفرنسية عن طريق احلالها محل السيطرة العثمانية من جهة ومحل الهيمنة التجارية البريطانية من جهة أخرى على مناطق حيوية بالنسبة للتجارة الاوروبية مع الشرق · في خضم هـذا التناحر الامبريالي على اقتسام تجارة العالم وجد نابليون من المناسب الاستعانة بفكرة توطين اليهود في فلسطين وتأسيس دولة لهم فيها تقوم بتوفير الحماية اللازمة للجزء الواقع في « الليفانت » من الامبراطورية الفرنسية بعد ان تكون عملية ارساء قواعدها قد تمت · على هـذا الاساس اصدر نابليون ، اثناء المراحل الاولى من حصاره لمدينة عكا ، نداء دعـا فيه يهود آسيا وافريقيا لتأييده والانضمام الى جانبه مقابل وعد قطعه على نفسه « باسترجاع القدس القديمة وممتلكاتها المجيدة » · وقد خاطب النداء النابليوني اليهود بتسميتهم « بالورثة الشرعيين لفلسطين » (١٤) وعرض عليهم مساعدة فرنسا في تحقيق وجودهم السياسي كأمة بين الامم ، وفي استعادة وطنهم وتحقيق السيطرة والسيادة عليه والدفاع عنه ضد كل المخـاطر (١٥) · وفـي ٢٢ أيـار ١٧٩٩ نشرت الصحيفة الفرنسية الرسمية يومها « لومونيتور » (Le Moniteur) ما يلي حول هذا النداء :

« لقد اعلن بونابارت نداء دعا فيه جميع يهود آسيا وافريقيا للانضواء تحت راياته من اجل اقامة القدس القديمة » (١٦) ·

وتقول المؤرخـة باربرة توخمان ما يلي في تعليقهـا على الاهمية التاريخية المتمثلة في نداء نابليون بالنسبة لمستقبل التناحر الامبريالي بين الدول الرأسمالية الكبيرة وارتباط المشروع الصهيوني بـه ارتباطا عضويا (هذا على الرغم من نزعات توخمان الصهيونية) :

....

(١٤) كوبلر ، ص ٤٤ ·

(١٥) توخمان ، ص ١٠٥ · سوكولو ، ج ١ ، ص ٦٣ ـ ٦٥ ·

(١٦) سوكولو ، ج ٢ ، ص ٢٢٠

« بعد نابليون اصبح مسلما به أنه كلمـا تصارعت الدول الكبرى في الشرق الاوسط يظهر من يقترح احياء اسرائيل ، كما اصبح من المسلم بـه ايضا ان ينغمس هذا الشخص في حلم سعيد ليس حول كسب منطقة نفوذ فـي بقعة استراتيجية حيوية فحسب ، بل أيضا حول اجتـذاب النفوذ والثروات المزعومة ليهود العالم الى جانبه » (١٧) ٠

بطبيعة الحال كان للامبريالية الفرنسية ممثلوها وعملاؤها في صفوف البورجوازية اليهودية حتى خارج فرنسا ٠ عندما كـان نابليون يقوم باعـداد حملته على مصر وفلسطين انتشرت رسالة موجهة الى يهود العالم انتشارا واسعا في اوروبا دعتهم الى انشاء مجلس يمثلهم كي يتفاوض باسمهم مـع الحكومة الفرنسية من اجل اعادة فلسطين الـى الشعب اليهودي ٠ وكان عنوان الرسالة « الى الاخوان في الدين » الا انهـا لم تحمل أي توقيع لان الحكومة الفرنسية كـانت وراء اصدارها كمـا يشير الى ذلك ناحوم سوكولو (١٨) ٠ وبالاضافة الى ارتباط كل من ظهور الرسالة ونداء نابليون المذكور الى اليهود بحملته المشرقية وبمحاولته احلال السيطرة الامبرياليـة الفرنسية في « الليفانت » محل الامبريالية الانكليزية ، نلاحـظ ان الرسالة كانت صريحة جدا في شرح الطبيعة الاستعمارية للمشروع الصهيوني وفي تبيان نوعية المكاسب الاستراتيجية والاقتصاديةالكبيرة التي كانت الامبريالية الفرنسية تعد العدة لتحقيقها من خلال طرح مشروعها الصهيوني المغري ٠

جاء في الرسالة « الى الاخوان في الدين » الوصف التالي :

« سوف تضم البلاد التي نقترح احتلالها (وذلـك يخضع للترتيبات التي تراها فرنسا مناسبة) مصر السفلى ، بالاضافة الى منطقة من البلاد تمتد حدودها على خط يسير من عكا الى البحر الميت ، ومـن

....

(١٧) توخمان ، ص ١٠٥ ٠

(١٨) سوكولو ، ج ١ ، ص ٦٦

الطرف الجنوبي لهذا البحر الى البحر الاحمر ··· ان هذا الموقع الممتاز على كل ما عداه من المواقع في العالم ، سوف يجعل منا عبر الملاحة في البحر الاحمر اسياد تجارة الهند والجزيرة العربية ، وجنوب افريقيا وشرقيها والحبشة واثيوبيا ··· ان قرب حلب ودمشق سوف يسهل تجارتنا مع بلاد فارس ، وعن طريق البحر الابيض المتوسط نستطيع اقامة الاتصالات مع فرنسا واسبانيا وايطاليا وسائر انحاء القارة الاوروبية · ان بلادنا الواقعة في مركز الوسط من العالم سوف تصبح مركزا تجاريا لتوزيع كل المنتوجات الغنية والثمينة على سطح الكرة الارضية » (١٩) ·

٣) في الربع الثاني من القرن التاسع عشر اشتد التنافس بين الدول الامبريالية الاوروبية على توسيع نفوذها في أراضي الامبراطورية العثمانية وحماية مصالحها فيها ، وتركز الكثير من نشاطها التوسعي على سوريا (بما فيها فلسطين) ومصر · على سبيل المثال تأسست القنصلية الانكليزية في القدس عام ١٨٣٨ ، وقبل مرور عقد من الزمن على هذا التاريخ كانت كل الدول الاوروبية الهامة (المانيا ، فرنسا ، النمسا ، اسبانيا) مضافا اليها الولايات المتحدة الامريكية قد أنشأت قنصلياتها في القدس · وفي هذه الحقبة ايضا نجد الطبقة الحاكمة الانكليزية مهتمة اشد الاهتمام بالمشروع الصهيوني انطلاقا من المصالح الاستراتيجية والتجارية لامبرياليتها المتوسعة باستمرار وقتئذ · وكان افضل من مثّل هذا الاهتمام الانكليزي بالمشروع الصهيوني في تلك الفترة رجل الدولة والسياسي الشهير بالمرستون (رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها لفترة طويلة) واللورد شافتسبوري صاحب التأثير الكبير والنفوذ الهام جدا في الاوساط الانكليزية الحاكمة يومها · كان شافستبوري يعمل ويخطط مع بالمرستون على دفع المشروع الصهيوني

---

(١٩) سوكولو ، ج٢ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢ حيث يجد القارىء نص الرسالة كاملا · ولنذكر مرة اخرى ان الرسالة تعبر عن مطامح الامبريالية الفرنسية في انقى صورها · (الترجمة العربية: « الصهيونية وحقوق الانسان العربي»، ج١ ، ص ١٦٢ـ١٦٣)·

لاستعمار فلسطين الى الامام ، اذ كان يرى ان توطين اليهود في « الارض المقدسة » يشكل اقل الاساليب كلفة واكثرها ضمانا لاستعمار سوريا من قبل بريطانيا ، كما كان يعتقد ان العالم « المتحضر » كله سيفيد من النتائج المترتبة على عملية الاستعمار هذه (٢٠) ٠

وفيما يلي الوصف الذي قدمته المؤرخة باربرة توخمان لتقييم اللورد شافستبوري لاهمية تعيين اول قنصل بريطاني في القدس ٠ تقول ان اللورد :

« ٠٠٠ يلفت الانتباه الى اهمية التعيين القنصلي الاخير ، ويشير الى ان « تربة فلسطين ومناخها ملائمين على نحو فريد لنمو محاصيل تلبي حاجات بريطانيا العظمى » ـ القطن والحرير والفُوة (نبات يستخدم في الصباغة) وزيت الزيتون ٠ « فالمطلوب هو رأس المال والمهارات لا أكثر » ستوفرها بريطانيا ، وفقا لرأي اللورد ، بعد ان اصبحت فلسطين تتمتع « بوجود موظف بريطاني فيها وبالامن المتزايد الذي يضفيه وجوده على الملكية (بضم الميم) » ٠ ما الذي يمنع العالم ، اذن ، من مشاهدة عودة اليهود اخيرا (الى فلسطين) « الذين لن يعمدوا الى الزراعة في أية أرض اخرى والذين سيصبحون زارعي اليهوديةوالجليل مرة أخرى بعد ان وجدوا في القنصل البريطاني وسيطا بين الباشا وبين شعبهم ؟ » (٢١) ٠

انطلاقا من مثل هذه الاعتبارات بسط بالمرستون الحماية الانكليزية على يهود الدولة العثمانية مرسيا بذلك القواعد الاولية لقيام بريطانيا بدور حامية الاستيطان اليهودي في فلسطين ٠ كما ارسل سلسلة من التعليمات الى ممثلي حكومته في انحاء الدولة العثمانية حول اليهود والمشروع الصهيوني يمكن اعتبارها بداية التدخل البريطاني الرسمي لصالح « الامة

---

(٢٠) توخمان ، ص ١٢٨ ٠

(٢١) المرجع السابق ، ص ١٢٤ ٠

اليهودية واعادة توطينها في فلسطين » وفقا للغة الدبلوماسية الانكليزية يومها (٢٢) ٠

وفي ١٨٣٩ نشرت صحيفة « اللندن جلوب » المعبرة عن وجهات نظر وزارة الخارجية الانكليزية سلسلة من المقالات حبذت فيها المشروع الصهيوني وعكست تفكير بالمرستون نفسه (٢٣) ٠ وكانت الغاية الاساسية من هذه المقالات الدعوة الى اقامة دولة مستقلة في سوريا وفلسطين تحت الرعاية الاوروبية (بلغة غير دبلوماسية تحت السيطرة البريطانية) يقوم اليهود باستيطانها بكثافة بحيث تنشأ دولة يهودية تقوم بدور العازل بين السلطة العثمانية ومصر ـ التي كان يحكمها محمد علي باشا ـ مما كان من شأنه تعزيز النفوذ البريطاني في « الليفانت » كله (٢٤) ٠ وجدير بالذكر ان اللورد شافتسبوري نفسه كان قد دعا الى حل مشابه « للمسألة السورية » عن طريق استعمار اراضي سوريا وفلسطين واستيطانها من قبل اليهود لان ذلك سيعزلها عن تنازع الدول الكبرى ويحقق الازدهار« في جميع البلدان الواقعة بين الفرات والبحر الابيض المتوسط » (٢٥) ٠ وسيرا على هذا الخط قام بالمرستون باستخدام النفوذ البريطاني لدى الدولة العثمانية من اجل الدفع بهذه السياسة الى الامام فكتب الى سفيره في الاستانة يطلب منه ان يوضح للباب العالي المنافع الكبيرة التي ستعود على الامبراطورية العثمانية من جراء تشجيعها اليهود على الهجرة الى فلسطين والاستيطان فيها ٠ ومن أهم المنافع المرجوة خلق حاجز منيع بوجه أية اطماع قد يحملها محمد علي أو خلفاؤه في المستقبل ضد السلطنة العثمانية ٠

....

(٢٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ ، « الصهيونية وحقوق الانسان العربي » ، ص١٧٠ ـ ١٧١ ٠

(٢٣) كوبلر ، ص ٦١ ٠ لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ٤٣ ٠

(٢٤) المرجع السابق ٠

(٢٥) توخمان ، ص ١٢٧ ٠

وفيما يلي نص ما كتبه بالمرستون الى سفيره عام ١٨٤٠ حول هـذا الموضوع :

« توجد حاليا بين اليهود المشتتين في كل ارجاء اوروبا فكرة قويةبأن زمن عودة امتهم الى فلسطين اخذ في الدنـــو ... وسيكون من المهم جدا بالنسبة للسلطان ان يقوم بتشجـيع اليهود عـلى العـودة والاستيـطان فـــي فلسطين لان الثروات التي سيجلبونها معهم ستزيد من موارد البلاد التابعة له . واذا ما عاد اليهود بموافقة السلطان وبحمايته وبدعوة منه فسيشكلون كابحا لاية مخططات شريرة يعدها محمد علي او خليفتـه في المستقبل ... ينبغي علي أن اشير على معاليكم بقوة بـــأن توصوا (الحكومة العثمانـــية) بتقديم كل تشجيع حق ليهود اوروبا كي يعودوا الى فلسطين » (٢٦) .

وفي العام التالي استغل بالمرستون بلوغ النفـــوذ البريطاني ذروته لدى الباب العالي على أثر التدخل الانكليزي النـاجح ضد محمد علي باشا (الذي أدى الى قصف بيروت من البحر واحتلال عكا) كي يحث السلطان مرة أخرى على القيام بعمل ملموس يبرهن عن اهتمام السلطات العثمانيـة بالمشروع الصهيوني اياه . بطبيعة الحال لم يكن بالمرستون يقدم المشروع على انه مسألة حيويـــة ، على المدى البعيـــد ، بالنسبة لمصالح بريطانيا الامبريالية في الشرق ، بل على انه خدمة كبرى للبـــاب العالي . اوضح بالمرستون لسفيره في الاستانة انه ينبغي الضغط على السلطان لجعله يتقدم « بضمانات حقيقية وملموسة » بالنسبة لموضوع توطين اليهود في فلسطين، واقترح كاجراء أولي ، باتجاه تحقيق هذا الهدف ، ان تحصل بريطانيا على حق حماية اليهود من رعايا السلطنة لمدة ٢٠ سنة (٢٧) . بالاضافة الـى ذلك طلب الى سفيره بأن يوضح للباب العالي ما يلي :

---

(٢٦) المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٢٧) المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

« سيكون لصالح السلطان الى ابعد حد لو تم حث اليهود المبعثرين في بلدان اخرى من اوروبا وافريقيا على الذهاب الى فلسطين واستيطانها، لان الثروة التي سيجلبونها معهم بالاضافة الى عاداتهم في الانتظام والعمل النشيط والمثابر ستعمل الى حد كبير على زيادة موارد الامبراطورية التركية وتشجيع التقدم والحضارة فيها » (٢٨) ٠

اما اللورد شافتسبوري فقد اشاد بالهجوم البحري الانكليزي على بيروت وباحتلال عكا وربط بين هذا التدخل الامبريالي السافر وبين الحماية البريطانية لليهود (شعب الله القديم على حد تعبيره) معتبرا السياسة التوسعية والاستعمارية التي تنهجها انكلترا أداة لتحقيق الارادة الالهية على الارض ٠ كتب بهذا الصدد :

« انه لمن المؤثر حقا ان نقرأ عن نجاحنا في سوريا وعن البسالة المقدامة لابناء وطننا وعن صمودهم الحديدي ! ان ضابط صف واحد في البحرية يقوم بأكثر مما يستطيعه مئة تركي ٠٠٠ أية مواد هي هذه لبناء العظمة ! أية ادوات هي هذه من اجل التحالف مع شعب الله القديم وحمايته ـ ان شاءت ارادة الله ـ ومن اجل تحقيق غاية الله القصوى على الارض !» (٢٩)٠

كذلك لا بد من الاشارة الى انه في هذه الفترة بالذات جرت في انكلترا مناقشات موسعة في اوساط الطبقة الحاكمة وصحافتها حول المشروع الصهيوني واهميته بالنسبة لخدمة المصالح الانكليزية في الشرق وترسيخ النفوذ البريطاني في « الليفانت » ٠ على سبيل المثال نشرت الجمعية العامة لكنيسة سكوتلاندا تقريرا (لاقى انتشارا واسعا يومها) وضعه بعض المبشرين التابعين لها عن احوال يهود فلسطين ثم اتبعته بمذكرة الى بالمرستون (في ١٨٤٠) اشادت فيها بأهمية خطوته في تعيين قنصل في

---

(٢٨) المرجع السابق ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ٠
(٢٩) المرجع السابق ، ص ١٢٨ ٠

القدس وبسط الحماية الانكليزية على اليهود في الاراضي العثمانية ، كما « عبرت عن أملها في ان تؤدي الازمة الراهنة في سوريا الى تثبيت النفوذ البريطاني بشكل اقوى واوسع في تلك البلاد المثيرة للاهتمام » (٣٠) (أي سوريا وفلسطين بشكل خاص) ٠ وجرت مناقشات في الصحافة الانكليزية تناولت مشروع « زرع الشعب اليهودي في ارض آبائه واجداده » (٣١) وأشارت « التايمز » اللندنية الى ان المشروع هو قيد الدراسة السياسية الجدية في الاوساط الحكومية ، كما اشادت في هذه المناسبة بخطط اللورد شافتسبوري لتحقيق اهداف المشروع وجهوده العامة في هذا الميدان ٠ (٣٢) ومن الاقتراحات التي ترددت اثناء هذه المناقشات الفكرة القائلة بأن استيلاء اليهود على سوريا (بما فيها فلسطين) سيعزلها عن منازعات الدول الكبرى مما سيعزز السلام ويسهم في ايجاد توازن قوى افضل بين هذه الدول (٣٣) ٠

ومن الشخصيات المهمة والمؤثرة التي شاركت في هذه المداولات :

ا) الكولونيل تشارلز هنري تشرشل الذي قاتل مع القوات الانكليزية التي هزمت محمد علي باشا ، ثم شغل منصب القنصل البريطاني في دمشق ٠ وقد عبر عن مطامع الامبريالية الانكليزية في مصر وسوريا (بما فيها فلسطين) بالكلمات الصريحة التالية :

« ٠٠٠ لاسباب جلية ينبغي ان يكون واضحا لكل عقل انكليزي انه لتدعيم سيادة انكلترا في الشرق يجب ادخال سوريا ومصر، الى هذا الحد

....

(٣٠) المرجع السابق ، ص ١٢٦ ٠ راجع نص اهم ما جاء في المذكرة في : سوكولو ، ج١ ، ص ١٣١

(٣١) سوكولو ، ج١ ، ص ١٢٧ ٠

(٣٢) المرجع السابق ٠

(٣٣) لاكور، « تاريخ الصهيونية » ، ص ٤٣ ٠ توخمان ، ص ١٢٧ ٠

أو ذاك ، ضمن نطاق سيطرتها او نفوذها · لقد اعلن نابليون ان عكـا هي مفتاح الشرق ، وقد قدرت عبقريته العسكرية بصورة صائبة تماما اهمية تـلك الارض التي حاول عبثا دخولها كقاعدة للعمل ضد امبراطوريتنا الهندية··· بناء عليه فاني ادعو ابناء وطني الى تبني هذه العقيـــدة السياسية والى تعليقها على علم البلاد » (٣٤) ·

وكجزء من المخطط الرامي الى تحقيق هذا الهــــدف كرس تشرشل جهوده للدعوة الى تهجير اليهود الى فلسطين وتوطنيهم فيها بحـيث يصبحون اسيادها بلا منازع (٣٥) ·

ب) عدد من كبار المسؤولين والمتنفذين في الجهـاز البريطاني لادارة المستعمرات من امثال ادوارد ل · ميتفورد والكولونيل جـورج جاولر · شدد الاول على ان المواصلات بين بريطانيا والهنـــد اخذت تعتمد على السفن التجارية التي تحتاج الى محطات عديدة للتزود بالفحم في رحلتها عبر البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر (قبل شق قناة السويس) مما دعاه للمطالبة « باعادة بناء الدولة اليهودية في فلسطين تحت الحمـاية البريطانية » لان مثل هذه الخطوة :

« ستضع ادارة مواصلاتنا البخارية بين ايدينا كليا ··· كما ستضعنا في موقع مسيطر (في الليفانت) نستطيع مـنه ان نكـبح انتهاكات اعدائنـا ، وان نرهبهم ، وان نصد تقدمهم اذا ما دعت الحاجة الى ذلك » (٣٦) ·

كما عبر ميتفورد عن العلاقة العضوية بين التوسع الامبريالي الانكليزي والمشروع الصهيوني في كتاب نشره عـــام ١٨٤٥ تحـت عنوان يفـسر نفسه

---

(٣٤) سوكولو ، ج ١ ، ص ١٥٦ ·
(٣٥) كوبلر ، ص ٦٥ ـ ٦٧ · توخمان ، ص ١٣٤ ·
(٣٦) توخمان ، ص ١٣٩ ·

بنفسه : « نداء لمصلحة الامـــة اليهودية حـــول السياسة الانكليزية في الليفانت » (٣٧) ٠

وجدير بالذكر ان ميتفورد كان الاول ، على ما يبـــدو ، بين دعاة استعمار فلسطين في اقتراح حل « للمشكلة » الناتجة عن وجود الشعب الفلسطيني فيها ٠ وكما هو متوقع جاء حله منسجمـــا تماما مع السياسة الاستعمارية التي كان يمثلها وينفذها والتي تبنتها الصهيونية الهرتزلية فيما بعد ونفذتها بدقة : اجلاء الشعب الفلسطيني عـــن ارضه ٠ يقول ميتفورد حول هذا الموضوع :

« فالبلد قليل السكان في الوقت الحاضر بالنسبة الى مساحته ٠ الا ان الضغط الذي يولده ادخال كتلة بهذا الحجـــم من الغرباء على السكان الفعليين قد تترتب عنه نتائج مؤذية ٠ لذا يستحسن قبل القيام بمحاولـــة للاستطيان ان يتم اعداد البلاد لاستقبال القادمـين ٠ ويمكن تحقيق ذلك بحـث الحكومة العثمانية للعمل على جعل السكان المحمديين يتراجعون صوب تلك البلدان الشاسعة والمزروعة جزئيا في آسيا الصغرى ، حيث يتم تمليكهـم قطع وحصص من الارض مساوية في حسناتها ومتفوقـــة الى حد بعيد في قيمتها بالقياس الى الاراضي التي تخلوا عنها » (٣٨) ٠

وعبر جورج جاولر ايضا عن المنشأ الامبريـــالي الاول للمشروع الصهيوني بتقديمه خطة مفصلة لاستعمار سوريا وفلسطين من قبل اليهود تحت اشراف الامبريالية البريطانية ولحماية مصالحها ومنع أية دولة اخرى من التدخل في المنطقة ٠ قال بهذا الصدد :

(٣٧) كوبلر ، ص ٧٦ ٠

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٧٧ ٠ الترجمة العربية « الصهيونية وحقوق الانســـــان العربي » ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ٠

« لقد وضعت العناية الالهية سوريا ومصر تماما في الفجوة التي تفصل بين انكلترا واكثر اقاليم تجارتها الاستعمارية والاجنبية اهمية : الهند والصين والارخبيل الهندي واوستراليا ··· وتحتاج انكلترا **بصورة ماسة جدا** الى اقصر خطوط المواصلات واكثرها آمانا مع المناطق التابعة لها · ترتبط سوريا ومصر بروابط حميمة ، لذلك فان أية دولة اجنبية معاديةوقوية في أي من هذين البلدين ستهدد بسرعة التجارة البريطانية ··· وقد آن الاوان لان تقوم انكلترا باحياء سوريا بواسطة الشعب الوحيد الذي ستنصرف طاقاته بشكل واسع ودائم لهذا العمل - ابناء الارض الحقيقيين ، ابناء **اسرائيل** » (٣٩) ·

وقد تقدم جاولر باقتراحه الصهيوني النابع من مصالح التوسع البريطاني عام ١٨٤٥ في كتاب يحمل العنوان التالي ، والذي لا يحتاج الى تفسير ايضا :

« تهدئة سوريا والشرق : ملاحظات واقتراحات عملية لتعزيز اقامة مستعمرات يهودية في فلسطين ، بوصفها العلاج الاكثر واقعية ومنطقية لبؤس تركيا الاسيوية » (٤٠) ·

ج) الدكتور توماس كلارك الذي نشر كتابا عام ١٨٦١ يحمل عنوانا بمنتهى الوضوح بالنسبة لموضوعنا : « الهند وفلسطين : او احياء اليهود من وجهة نظر علاقة ذلك بطريق الشرق الادنى الى الهند » ·

وقد عبر هذا الكاتب عن المصالح الامبريالية التي انبثق عنها المشروع الصهيوني بقوله عن انبعاث الامة اليهودية :

« سوف ينعش بعث الامة اليهودية بني اسرائيل الى حد لا يقدر ، كما

(٣٩) سوكولو ، ج ١ ، ص ١٣٨ · كوبلر ، ص ٧٧ · التشديد في النص الاصلي ·
(٤٠) سوكولو ، ج ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ·

سيعود علينا بأفضل المنافع الممكنة على الاطـــلاق · ولئن قضت الضرورة فيما مضى ببقاء المملكة التركية كدولة محايدة وبعدم مس حدودها باعتبارها عائقا وخطا دفاعيا ··· فمن المؤكد ان احتلال اليهود لفلسطين تحتحماية انكلترا اصبح يشكل ضرورة اعظم اكثر من أي وقت مضى ··· فاذا كانت انكلترا تعتمد من جديد على تجارتها بوصفها حجـــر الزاوية في عظمتها ، واذا كان أقرب مجرى لهذه التجارة وأفضله يمر عبر محور القارات الثلاث الكبرى ، واذا كان اليهود يؤلفون شعبا تجاريا في الجوهر الا يكون مـــن الطبيعي جدا القيام بغرسهم على مقربة من تلـــك الطريق العظيمة للتجارة القديمة » (٤١) ·

بطبيعة الحال كان للمصالح الامبريالية البريطانية ممثليها في اوساط البورجوازيةاليهودية الانكليزية العليا ممنابدوا اهتماما بمشاريع بالمرستون وشافتسبوري الصهيونية لما فيهامن امكانات لتعزيز الامبراطورية وتقويتها· وكان القطب المالي اليهودي الكبير السير موسى مونتيفيوري ابرز الوجوه على هذا الصعيد · عبر هذا الثري عن اهتماماته المذكـــورة بزيارة فلسطـين مرتين ومقابلة محمد علي باشا اثناء الزيارة الثانية (١٨٣٩) حيث عرض على حاكم مصر استئجار اراض في فلسطين وسوريا لمدة خمسين سنةبغية تشجيع اليهود في اوروبا على استيطانها من خلال تشكيل شركة تجاريـــة انكليزية لهذا الغرض (٤٢) · لم تكن مشاريـــع مونتيفيوري وافكاره فـــي تلك المرحلة الا انعكاسا واضحا للتفكير الاستعماري الامبراطوري السائـد عند الطبقة الانكليزية الحاكمة ، كما هو واضح من قولـــه بأن فلسطين يجب ان تكون ملكا لليهـــود ، وان القدس مقدر لهـــا ان تكون مركز الامبراطورية اليهودية ، بالاضافة الى اقتراحه بأن تبدأ عمليـــة استعمار فلسطين الان :

(٤١) سوكولو ، ج١ ، ص ١٣٨ـ١٣٩ · الترجمة العربية، « الصهيونية وحقوق الانسان العربي » ، ج١ ، ص ١٨٢ ·

(٤٢) توخمان ، ص ١٢٥ · كوبلر ، ص ٦٤ ·

على سبيل المثال ، عن طريق البدء ببناء المنازل في القدس حالا (٤٣) .

مع ان الامثلة التي قدمناهاتكفي لتبيان المنشأ الامبريالي والاستعماري للمشروع الصهيوني قبل ان تعيره البورجوازية اليهودية اي اهتمام جدي وعملي بفترة طويلة نسبيا ، لا بد من الاشارة ايضا الى ان اهتمام الدولتين الاوروبيتين الاستعماريتين الرئيسيتين،من وجهة نظر مصالحهما الامبريالية، بالصهيونية ظل مستمرا بدون انقطاع حتى سقوط فلسطين تحت الاحتلال البريطاني بعد الحرب الامبريالية الاولى . في فرنسا اهتم نابليون الثالث بالمشروع الصهيوني وبتحقيق اهدافه (٤٤) بصورة خاصة في الوقتالذي كان يفاوض فيه حكام مصر من اجل شق قناة السويس وتعزيز النفوذ الفرنسي في المنطقة (شق قناة السويس ١٨٦٦ ـ ١٨٦٩) . وكجزء من نشاط فرنسا في هذا الميدان لا بد من ذكر جان هانري دونان (٤٥) باعتبار انه كان شخصية مقربة من نابليون الثالث وعلى صلات وثيقة بحكام اوروبا ، ولانه قام بنشاط كبير في الدعوة للمشروع الصهيوني والعمل على تحقيق اهدافه . على سبيل المثال أسس « جمعية استعمار فلسطين » في فرنسا برعاية الامبراطورة اوجيني زوجة نابليون الثالث (٤٦) . كما دعا الىاستخلاص امتيازات اوروبية من الدولة العثمانية تؤدي الى تنازلها (أي السلطات العثمانية) التدريجي لكن الكامل عن فلسطين من اجل اقامة مستعمرات « غربية » فيها ووضع شعب « غربي » على ارضها من خلال شركة تجارية تقوم بادارة فلسطين وحكمها تماما كما كانت تقوم شركة

....

(٤٣) توخمان ، ص ١٢٤ .

(٤٤) سوكولو ، ج١ ، ص ٢٠٠ ، ج٢ ، ص ٤١٦ ـ ٤١٧ .

(٤٥) صاحب فكرة الصليب الاحمر الدولي واول حائز على جائزة نوبل للسلام .

(٤٦) سوكولو ، ج١ ، ص ٢٠٣ . راجع نص النداء الذي اصدرته الجمعية حول استعمار فلسطين عام ١٨٦٧ ، المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ .

انكليزية بادارة الهند وحكمها (٤٧) . وفي الفتـــرة نفسها عبر السكرتير الخاص لنابليون الثالث ارنست لاهاران عن المطـامح الامبريالية الفرنسية نفسها في الشرق وعن اهمية المشروع الصهيونـــي بالنسبة لها في كتاب اصدره عام ١٨٦٠ تحت عنوان يفسر نفسه بنفسه : « المسألـــــة الشرقية الجديدة ... واعادة احياء القومية اليهودية » (٤٨) . يدعو لاهاران اليهود لاستعمار فلسطين واقامة دولة فيها عن طريق جهـود اثريائهم (واصحاب البنوك بالتخصيص) او عن طريق اكتتاب مالي يهودي عام يمكنهم من شراء « وطنهم » القديم من السلطنة العثمانية . ثم يوضح الاسباب التي تجعـل الدول الاوروبية تنظر بعين العطف الى هذه الخطة :

« لن يعترض احد على تحقيق خطة من هذا النوع . وسوف يتم السماح لملكة يهوذا بتوسيع حدودها من السويس الى مرفـــأ ازمير بحيث تشمل منطقة سلسلة جبال لبنان الغربية بكاملها ... على الصناعة الاوروبية ان تبحث كل يوم عن اسواق جديدة باعتبارها منفذ لمنتجاتها . وليس لدينا أي وقت لاضاعـــته . لقد آن الاوان الـــذي يفرض اعـــادة احـــياء الامـــم القديمة لشق طرق رئيسية وفرعية امام الحضارة الاوروبية » (٤٩) .

ويحدد لاهاران بكل وضوح طبيعة الدور الكبير الذي يفترض ان تقوم به الدولة اليهودية لخدمة المصالح الامبريالية في الشرق كمـا يحدد موقف السلطة الفرنسية من المشروع كله . يقول بهذا الصدد :

....

(٤٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٥٩ـ٢٦١ .

(٤٨) سوكولو ، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٤٩) كما وردت في كتاب موسى هس « روما والقدس : دراسة في القومـية اليهودية » ، نيويورك ١٩١٨ ، ١٩٤٥ ، ص ١٣٦ . الترجمة العربية « الصهيونية وحقـــــوق الانسان العربي » ، ص ١٨٠ .

« هناك دعوة عظيمة موقوفة على اليهود : ان يكونوا قنـاة الاتصال الحية بين القارات الثلاث · ستكونون حملة الحضارة الى شعوب ما زالت غراء ، وستكونون معلميها في العلوم الاوروبية التي ساهم فيها جنسكم الى حد كبير · ستكونون الوسطاء بين اوروبا وآسيا البعيدة وتشقون الطريق المؤدية الى الهند والصين ـ تلك الاصقـاع المجهولـة التي ينبغي تعريضـها للحضارة في المطاف الاخير · سيروا قدما ! ان انبعاثكـم سيجعل قلوبنا تختلج (أي قلوب الطبقة الحاكمة الفرنسية) وستقف جيوشنا الى جانبكم مستعدة لتقديم المعونة · سيروا الى الامام يا ايـها اليهود في كل ارض ! ان وطنكم القديـم يناديكم وسيكون مـن دواعي افتخارنا ان نفتـح لكم ابوابه » (٥٠) ·

أما في بريطانيا فلم تفقد الطبقة الحاكمة اهتمامها الجـدي بالمشروع الصهيوني في أية فترة من الفـترات منذ ان نضجت الاسس الماديـة التي أدت بها الى طرحه في منتصف القرن السابع عشر · ان أية لائحة باسماء ممثلي الطبقة الحاكمة الانكليزية في السلطـة من المتبنين للمشروع الصهيوني والعاملين من اجل تنفيذه كجزء من جهودهم لتحقيق اهـداف الامبريالية البريطانية ومطامحها ستكون طويلة جدا وستضم اسماء شهيرة في تاريخ الاستعمار الحديث مثل دزرائيلي وجوزيف تشامبرلين ولويد جورج ولورنس اوليفانت وآرثر ج· بلفور وت· اي· لورنس الخ · وسنكتفي هنا بالاشارة الى موقف دزرائيليباعتباره احد اهم المشرفينعلى تعزيز بناء الامبراطورية الانكليزية وتوسيعها بخاصة وانه كـان المسؤول الاول عن اقدام حكومة بريطانيا على السيطرة على قناة السويس عام ١٨٧٦ · في العام التاليلهذا الحدث الهام وضع ديزرائيلي مذكـرة دبلوماسية حول استعمار اليهود لفلسطين نشرت في النمسا دون توقيع تحت عنـوان « المسألة اليهودية في

(٥٠) المرجع السابق ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ · انظر الترجمة العربية (وهي غير دقيقة ابدا) «الفكرة الصهيونية » ، ص ٣٧ ·

المسألة الشرقية » (٥١) . وكان هدفه من المذكرة التحضير لاثارة موضوع الاستيطان اليهودي في فلسطين في مؤتمر برلين الذي كان الاعداد جاريا لعقده في حزيران ١٨٧٨ . الا ان معارضة بسمارك يومها جعلت ديزرائيلي يغض النظر عن مناقشة الموضوع في جلسات المؤتمر . دعا ديزرائيلي في مذكرته الى انشاء دولة يهودية في فلسطين تحت حماية بريطانيا واشرافها متوقعا بأن تكون لغة الدولة الجديدة الانكليزية . تساءل ديزرائيلي في مذكرته عن ارض فلسطين :

« اليس محتملا ان ينمو في تلك الارض خلال نصف قرن مثلا شعب يهودي متراص ، قوامه مليون انسان بكامل عدتهم يتكلمون لغة واحدة ـ لغة حاميتهم انكلترا ـ وتحركه روح واحدة : الروح القومية النموذجية والرغبة في تحقيق الحكم الذاتي والاستقلال ؟ » (٥٢) .

وفي العام الذي استولى فيه الاستعمار البريطاني على قناةالسويس قدم اللورد شافتسبوري ما يمكن اعتباره التعبير الكلاسيكي عن العلاقة الحميمة بين المشروع الصهيوني والمصالح الحيوية للامبراطورية الانكليزية بالعبارات الوردية التالية :

« ستتمتع سوريا وفلسطين قبل مرور وقت طويل بأهمية قصوى ... ستعود الامور الى سابق عهدها ... وعندها ستتبوأ سوريا مكانا تجاريا ممتازا . ومن هم تجار العالم المتفوقون ؟ وهل يوجد ميدان اكثر ملاءمة لطاقات اليهود (من سوريا وفلسطين) بعد ان يكون هذا التغيير قد اخذ مجراه ؟ فالبلاد تحتاج الى رأس المال والسكان . وباستطاعة اليهود توفيرهما لها . او ليس لانكلترا مصلحة خاصة في تشجيع مثل هذا الاحياء ؟ ستصاب انكلترا بضربة ان تمكنت اية من منافستيها الاستيلاء على

(٥١) كوبلر ، ص ٩٤ .

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

سوريا ... ينبـــغي على انكلـترا الاحتـفاظ بسوريـــا لنفسها . الا تحض السياسة انكلترا اذن على رعاية القومية اليهودية وتقديم العون لليهود وفقا لما تسمح به الفرص كي يعودوا كخميرة الى بلادهم القديمة ؟ انكلترا هــي الدولة التجارية والبحرية العظمى في العالم . لذا تقع عليها بصورة طبيعية تبعة تشجيع استيطان اليهود في فلسطين . ان قومية اليهود موجودة ، والروح لا تزال حية منذ ثلاثة آلاف سنة ، الا ان الصورة الخارجية ، التي تشكل الرابطة التي تتوج الاتحاد ، ما زالت غائبة . لا بد للامة من وطـــن . الوطن القديم ، الشعب القديم . وهذه ليست تجربة مصطنعة : بل هي الطبيعة بالذات والتاريخ بعينه » (٥٣) .

يتبين لنا من هذه المناقشة ان المشروع الصهيوني استكمـل عناصره الاساسية وبرنامج عمله المبدئي (استعمـار فلسطين ، انشاء دولة يهودية فيها ، اجلاء الشعب الفلسطيني ، خدمة المصالح الامبريالية السائدة فـــي الشرق وحمايتها ...) خارج الاوساط اليهودية في مرحلة مبكرة سابقة على المرحلة التي شهدت بروز اهتمام البورجوازية اليهودية الغربية الجاد والعملي به . وبما ان العوامل الرئيسيـــة التي نشأ عنـها المشروع الصهيوني شكلت مقومات حقبة تاريخية كاملة يمكن تلخيصها بتطور الرأسمالية الاوروبية باتجاه الامبريالية والاستعمار، تحركت الشهيونية دوما (بكل مراحلها وبكافة اشكالها) ضمن اطار خصائص هذه الحقبة ، وفعلت فعلها على اساس مطلباتها ، كما فكرت قياداتها وعملت بوحي من المقومات الاساسية لهذه الحقبة .

نتيجة ذلك عندما يضطر كاتب صهيوني يدعي شيئا من التقدمية ،مثل اوري افنيري ، الى مواجهة بعض الوقائـــع التاريخية حـــول منشأ المشروع الصهيوني وتطـــوره لا يجد امامه من مخـــرج الا الدفاع عن الامبريالية

---

(٥٣) سوكولو ، ج١ ، ص ٢٠٧ . الترجمة العربية : « الصهيونـــية وحقوق الانســـان العربي » ، ص ١٨٨ .

والاستعمار (والا كان عليه التخلي عن صهيونيته) باسلوب لا يخلو من الطرافة وقلة الامانة التاريخية ايضا ٠ يقول افنيري بهذا الصدد :

« في تلك الايام كانت الامبريالية في اوجها ولم تكن قد اصبحت بعد لفظة حقيرة ومرادفة للاستغلال والاضطهاد ٠ كانت الامبريالية يومئذ مفهوما مجيدا ومفعما بالمثالية ٠ كان الناس يمتدحون اشعار راديارد كيبلنغ في تمجيد عبء الانسان الابيض ٠ اما سيسيل رودس فكان في افريقيا الجنوبية رمزا للسوبرمان الاوروبي وبطل كل انسان بدون استثناء ٠ ولم يفكر احد حتى في الاحلام بيقظة آسيا وافريقيا ، او بالقومية الجديدة في الشرق ٠ ولم يكن الانسان الاسود وشبه الاسود سوى من السكان « المحليين » او البرابرة(الذين ينبغي حماية اوروبا منهم)الذين صدف انهم كانوا يسكنون الاماكن التي ارسلت اليها الامم الاوروبية سفنها – وجيوشها – بحثا عن المواد الخام لتأمين ضروريات الثورة الصناعية المزدهرة » (٥٤) ٠

واضح ان هدف هذا الدفاع هو تبرئة الصهيونية من التبعات المترتبة على ارتباطها العضوي بالامبرياليةوشرورها عن طريق القول بأنالصهيونية ارتبطت بحركة التوسع الاوروبي في فترة كانت الامبريالية لا تعني ما تعنيه اليوم ، اي يوم كانت تعني « المجد» و « البطولات » الاوروبية بدلا من الاستغلال والاضطهاد ٠ ان منبع الطرافة وعدم الامانة في دفاع افنيري يكمن في تجاهله لواقع بسيط هو ان الامبريالية لم تكن في يوم من الايام تعني الاستغلال والاضطهاد بالنسبة للطبقات الحاكمة التي تمارسهاوتستمد مقومات حياتها واستمرارها منها ٠ كانت هذه الطبقات وما زالت تضم في صفوفها من ينتج لها ما يكفيمن الشعر والنثر علىانواعه لتجميلممارساتها

---

(٥٤) **Israel Without Zionists**, Macmillan, New York, 1968, p. 42.

الامبريالية وصبغها بصبغة الامجاد والبطولات بالاضافة الى تنظيرهـا عن طريق الكلام المعهود « عـن الرسالة الحضاريـــة او التمدينية الـتي يحملـها الاستعمار الاوروبي » وعن « عبء الانسان الابيض » ومـــا شابه ذلك من الصيغ المعاصرة التي تم ابتداعها لتأدية المهمة نفسها وخدمـــة الاغراض ذاتها · تبدو الامبريالية لافنيري في مرحلة عنفوانها على الصورة البريئـة التي يرسمها لانه يتبنى بكل بساطة وجهة نظر الطبقـات الاوروبية الحاكمة في النظر الى نشاطاتها التوسعية والاستعمارية ، ثم يعممهـــا زاعما انها كانت وجهة النظر السائدة كليا وبدون منازع في اوساط كافة طبقاتالمجتمع الاوروبي ، كما يوحي بأن طبيعة الامبريالية كانت في تلك الفترة حقا وبالفعل كما كان يصورها دعاتها ·

ليس من الضروري ان نسترسل في تفنيد هذا الدفاع الاعتذاريالمهلهل عن الصهيونية عبر الدفاع عن الامبريالية في القرن التاسع عشر ، بل يكفي ان نشير الى ان سيسيل رودس وامثاله لم يكونوا ابطـــال كل انسان في المجتمعات الاوروبية كما يزعم افنيري ، بل كانوا ابطـــــال طبقة معينة من ناحية ، وألد اعداء الطبقة العاملة الاوروبية وتنظيماتها واحزابها من ناحية اخرى · وحسبنا ان نذكر هنا ان سيسيل رودس كان من دعاة شن الحروب بالمعنى العادي للعبارة ضد البروليتاريا وحلفائها من اجل تحقيق «السلام» الداخلي في البلاد · بعبارة اخرى كانت الطبقات المعادية للرأسمالية تـــرى الامبريالية على حقيقتها بكل ما تنطوي عليه من استغلال واضطهاد ولم تكن مخدوعة دوما بالصورة الوردية المجيدة التي كانت الطبقات الحاكمة تحاول رسمها عن نفسها وعن نشاطاتها الاستعماريـــــة الواسعة · كما انه ليس صحيحا ايضا ان احدا في اوروبا لم يكن يحلم في تلك الفترة بيقظة شعوب اسيا وافريقيا وبحركاتها الوطنية الناشئة في الشرق ، كما يزعم افنيري ، واكبر برهان على ذلك الاحلام المزعجة جدا التي كانت دوما تنتاب الطبقات الرأسمالية صاحبة الامبراطورياتالاستعمارية وتضطرها لارسال اساطيلها وجيوشها باستمرار من اجل اخماد يقظة شعوب الشرق وضرب حركاتهـا

الوطنية · لقد كان الوعي ببوادر يقظة شعوب أسيا وافريقيا موجودا بحدة في اوساط الطبقات الاوروبية المضطهدة (بكسر الهاء) كما في اوساط الحركات البروليتارية المناوئة لها · ان موقف افنيري الذي ناقشناه يفيد في انه يبين مرة اخرى ان صاحب الموقف الصهيوني عندما يكون منسجما مع نفسه لا بد وان ينتهي الى موقع الدفاع عن الامبريالية مهما كان دفاعه واهيا وفجا وتافها ·

III

الصهيونية اليهودية

أدرك دعاة المشروع الصهيوني في البلدان الرأسمالية المشار اليها ان المصالح الامبريالية لدولهم في الشرق تتطلب تحريك اهتمامات الجاليات اليهودية بمشروع استعمار فلسطين والاستيطان فيها · اذ حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا لم تكن قد ظهرت في الاوساط اليهودية اية اهتمامات جدية وعملية بالمشروع الصهيوني باستثناء بعض الحالات المحصورة في دوائر عدد من اقطاب المال الكبار الذين ارتبطت مصالحهم المباشرة والواعية بالتوسع الاوروبي التجاري وبناء الامبراطوريات الكولونيالية · لذلك عمد دعاة المشروع الصهيوني الى توجيه النداءات لليهود والى حث البورجوازية اليهودية واستثارتها لتبني فكرة استعمار فلسطين والشروع بالاستيطان فيها تمهيدا لاقامة دولة على أرضها بمساعدة الدول الاوروبية (بخاصة بريطانية) وتحت اشرافها · على سبيل المثال اقام الكولونيل تشارلز هنري تشرشل ، الذي مر ذكره معنا ، اتصالات متعددة مع موسى مونتيفيوري وامثاله في الجالية اليهودية الانكليزية هدفها تحريك الاهتمام اليهودي على نطاق واسع بعمليات الاستيطان في فلسطين · وبما ان تشرشل كان يريد من اغنياء البورجوازية اليهودية اخذ زمام المبادرة « في اعادة تعمير فلسطين » (١)

(١) كوبلر ، ص ٦٨ ·

فقد وجه نداء الى اليهود عام ١٨٤١ على صورة رسالة موجهة الى مونتيفيوري تدعواليهود الى اخذ زمام المبادرة في تحقيق عودتهم الى فلسطين والى شن حملة مركزة في اوروبا من اجل تحقيق هذا الهدف ٠ ولم تفته الاشارة الى اهمية دعوته بالنسبة لسياسات الدول الاوروبية ، اذ شدد على ان مثل هذه الخطوات من قبل اليهود سوف تدخل عنصرا جديدا على السياسة الاوروبية في الشرق وبخاصة بالنسبة لضرورات الاستيلاء الاوروبي على سوريا وفلسطين (٢) ٠ وفي ١٨٤٢ اقترح تشرشل على مونتيفيوري ان يقوم يهود انكلترا مع اخوانهم في القارة الاوروبية برفع عريضة الى الحكومة البريطانية تدعوها لارسال مسؤول من قبلها ليقيم في سوريا وتكون مهمته الوحيدة رعاية مصالح اليهود المقيمين هناك ٠ (٣)

مثال آخر يبين لنا رغبة انصار المشروع الصهيوني في التأثير على الاوساط اليهودية لتبنيه ووضعه موضع التنفيذ يبرز في رواية انتشرت انتشارا واسعا في بريطانيا ، ألفتها سيدة مسيحية ثرية من اتباع اللورد شافتسبوري عام ١٨٤٣ تحت عنوان « اسد يهوذا » ٠ بطل الرواية شاب يهودي انكليزي يعتبر ان مجده الرئيسي في الحياة هو ان يكون انكليزيا ٠ واثناء قيامه برحلة الى الشرق يتحول هذا الشاب ، تحت تأثير مجموعة من المسيحيين الصهيونيين من دعاة اعادة بناء دولة اسرائيل في فلسطين ،تحولا عميقا بحيث يصل الى وعي جديد لهويته اليهودية التي تدعوه للعمل على تمهيد الطريق لاعادة الشعب اليهودي الى فلسطين بمساعدة بريطانيا وتحت اشرافها (٤) ٠ كذلك عبر عن الرغبة نفسها رجل دين مسيحي انكليزي متنفذ في كتاب (٥) اصدره اثناء حرب القرم (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦) دعا فيه الامة

....

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٤ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٥ ـ ٦٦ ٠

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٢ ٠

(٥) و٠هـ جونستون ، « اسرائيل في العالم او رسالة العبرانيين الى الممالك العسكرية الكبرى » ، ١٨٥٤ ٠ انظر كوبلر ، ص ٨١ ٠

اليهودية الى وعي رسالتها الحقيقية التي تتلخص في الوقوف بوجه ما سماه «بالمملكة العسكرية» (اي روسيا القيصرية وامبراطوريتها عدوة بريطانيا في تلك الحرب وصاحبة مطامح معروفة في فلسطين و « الليفانت » ايضا) ومقاومتها وتحقيق مصير الامة اليهودية باقامة مملكة الصلاح في الارض المقدسة . وفي محاولة واضحة لاستمالة البورجوازية اليهودية الى جانب المشروع الصهيوني البريطاني يقول رجل الدين هذا انه لو قام اليهود باستخدام قوتهم المالية في سبيل الخير ومن اجل اسقاط الاستبداد (اي روسيا القيصرية) لساهموا بشكل فعال في تحقيق السلام الدائم واكتسبوا امتنان العالم الغربي كله ، مما من شأنه التعجيل في حل المسألة الشرقية ووضع فلسطين في قبضة مالكيها القدماء (٦) .

لم تبدأ اوساط من البورجوازية اليهودية بابداء استجابات اولية للمشروع الصهيوني بشكل جدي من ناحية ، وبالتحرك العفوي من قبلها باتجاه الاهتمام بالاستيطان في فلسطين من ناحية ثانية ، حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبخاصة حتى بداية ستيناته . على سبيل المثال تألفت في فرانكفورت عام ١٨٦٠ اول جمعية يهودية لرعاية الاستيطان في الارض المقدسة (٧) . كما تأسست في لندن جمعية يهودية مشابهة عام ١٨٦١ اسمها « جمعية لندن العبرانية لاستعمار الارض المقدسة » (٨) وقد نص البند التاسع من مخطط عملها على ان « يوضع المستوطنون تحت حماية الدول الاوروبية الكبرى » اما البند العاشر فقد اوضح كيف سيتم فرض الاستيطان الاجنبي على سكان فلسطين بالقوة :

« سوف تعين الجمعية اخوانا في الدين ممن تدربوا على استخدام السلاح لحماية المستعمرة من هجمات البدو وللقيام بدور الشرطة من اجل

....

(٦) كوبلر ، ص ٨١ ــ ٨٢ .

(٧) « الفكرة الصهيونية » (الاصل الانكليزي) ، ص ١١٠ .

(٨) سوكولو ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

تنفيذ القوانين والحفاظ على النظام » . (٩)

ثم قامت جماعــة يهودية بجهود الحاخام الثري كاليشر وتحت اشرافه بشراء قطعة ارض واستيطانها في ضواحي يافا عام ١٨٦٦ (١٠) ، كما قــام هذا الحاخام بدور هام في تحقيــق مشروع المدرسة الزراعيــة قرب يافا (١٨٧٠) التي انشأتها الجمعية الفرنسية للاتحاد الاسرائيلي العالمي المدعومة من قبل اقطاب المال اليهودي من امثال البــارون موريس دي هيرش والبارون ادموند دي روتتشايلد (١١) .

وهنا لا بد من التذكير بسرعة ببعض التطورات الهامة التي كان لهــا التأثير الرئيسي في تحريك اوساط من البورجوازية اليهودية لابداء الاهتمام الجدي بالمشروع الصهيوني . في ستينات القرن الماضي بدأت موجة جديدة من التوسع الامبريالي ـ الكولونيالي تجتاح الــدول الرأسمالية الرئيسية استمرت حتى نهاية القرن . واحتلت الطبقة الحاكمة الانكليزية مواقع الريادة والصدارة في عملية التنافس الضاري بين هذه الدول على اقتسام العــالم واعادة توزيعه فيما بينها وتحويله الى مستعمرات واشباه مستعمرات تابعة لمتطلبات تطور الرأسمالية الاوروبيــة . وكانت الامبراطورية العثمانية في طريقها الى التحول الى شبه مستعمرة تتنافس بلدان مثل بريطانيا وفرنســا والمانيا على اقتسامها والسيطرة على اجزائها بشكل علني وصريح . ومن الملفت للانتباه انه كلما اشتد التنافس بين هذه الامبرياليات كلما ازداد اهتمامها

....

(٩) سوكولو ، ج٢ ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨ .

(١٠) « الفكرة الصهيونية » (الاصل الانكليزي)، ص ١١٠ . سوكولو ، ج١ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(١١) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ٥٥ . « الفكرة الصهيونية » (الاصل الانكليزي)، ص ١١٠ . راجع أيضا :

Arie Bober (ed.) **The Other Israel,** Doubleday & Co. New-York, 1972, p. 36.

بالمشروع الصهيوني كأداة استعمارية مهمة لضمان مصالحها وتوسيعها في « الليفانت » والشرق وعرقلة تقدم نفوذ منافسيها . حتى الرأسمالية الالمانية التي دخلت ميدان التنافس في بناء الامبراطوريات الكولونيالية متأخرة كثيرا اخذت تهتم بالمشروع الصهيوني وترعاه من زاوية مصالحها المذكورة . ولقد بيَّن لينين في دراسته الشهيرة « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » ان ظاهرة التوسع الامبريالي المشار اليها ترجع بصورة رئيسية الى انتقال الرأسمالية تدريجيا الى مرحلة اندماج الرأسمال المصرفي بالرأسمال الصناعي (مما يعني توسعا كبيرا وسريعا وتمركزا هائلا في التصنيع الرأسمالي) وتقدم الرأسمال المالي الاحتكاري لاحتلال مواقع الصدارة المطلقة والسيطرة على بقية الانواع من رؤوس الاموال . وكان من اهم النتائج التي افرزها انتقال الرأسمالية الى هذه المرحلة : (أ) التنافس الامبريالي الضاري بين الرأسماليات الاحتكارية على اقتناء المستعمرات والسيطرة على الاسواق ومصادر الثروات ومواد الخام فيها ، (ب) اشتداد التنافس ، بضراوة لا مثيل لها ، داخل صفوف كل بورجوازية من البورجوازيات الاوروبية مع الضغط الشديد على البورجوازية الصغيرة بسبب نزعة الرأسمال الاحتكاري للتوسع المستمر على حسابها . نتيجة لهذا الوضع دخلت البورجوازية الصغيرة صراعا مريرا ضد كافة اخصامها للمحافظة على حصتها من السوق الداخلية . وبما ان الطابع التجاري والحرفي كان يطغى على النشاط الاقتصادي اليهودي اصبح اليهود هم العدو اللدود لهذه الطبقة واصبح العداء للسامية جزءا جوهريا من ايديولوجيتها السائدة . (ج) على الصعيدين الاجتماعي والايديولوجي اخذت هذه التطورات مظهر اشتداد النزعات الشوفينية والعنصرية وتفاقم الحركات المعادية للسامية وقيام الطبقات الحاكمة بنشر ايديولوجية «الداروينية الاجتماعية» (بخاصة في بريطانيا والولايات المتحدة) القائلة بأن التنافس الامبريالي في الخارج والتنافس الاقتصادي في الداخل يؤديان الى بقاء الانسب والاحسن ، والى تلاشي الاضعف والاسوأ ، اي تلاشي كل من ليس له «القدرة» على الاستمرار في الحياة وفقا لقانون الانتخاب الطبيعي . والمفهوم من هذا الكلام ان « الضعفاء » الذين لا يستحقون اكثر من تعاستهم الراهنة في الحياة هم العمال والبورجوازية الصغيرة المفقرة في الداخل ، والشعوب المستعمرة في الخارج . وفي الفترة نفسها قام المستشرق غوبينو بنشر كتابه الشهير « رسالة في تفاوت الاجناس البشرية » (١٢) في

(١٢) Gobineau, Essai sur L'Inegalité des Races Humaines.

١٨٥٣ ، الذي بقي انجيل الحركة العنصرية الاوروبية لفترة طويلة · ومما زاد في تفاقم هذه الانعكاسات الاجتماعية والايديولوجية الرهيبة لموجة التوسع الامبريالي في الخارج واشتداد التنـــافس الاقتصادي فـــي الداخل الهجـرة اليهودية المتزايدة تدريجيا الى البلدان الرأسمالية المتقدمة آتية مـــن روسيا القيصرية واوروبا الشرقية حيث كان النظام الاقتصادي التقليدي ينهار تحت وطأة ضربات الرأسمالية النامية هناك ويقذف باليهود خارج « مسامه » الذي عاشوا فيه لفترة طويلة · وبما ان النظام التقليدي كـــان ينهار بسرعـة تفوق باضعاف سرعة نمو الرأسمالية وقدرتها على استيعاب « ضحايا » الانهيار لم يكن من سبيل امام قسم كبير من هؤلاء « الضحايا » الا الهجرة · اتجهت الهجرة الى بلدان اوروبا الغربية حيث خضعوا لاستغـــلال نظام رأسمالي يتحول نحو توليد المزيد من التناحر والشوفينية والعنصرية والعداء للسامية·

هذا وصف مختصر للخلفيـــة الاقتصادية والاجتماعيـــة التي ولدت الاستجابات اليهودية الجدية في الغـــرب للمشروع الصهيونـــي · واذا دققنا قليلا في طبيعة هذه الاستجابات وجدنا ان اهتمام البورجوازية اليهودية العليا (أمراء المال) بالمشروع الصهيوني جاء متمما لاهتمام البورجوازيات الامبريالية الحاكمة في بلدين مثـــل بريطانيا وفرنسا ★ · بعبارة اخرى لم تكن هذه الشريحة من البورجوازية اليهودية تريد الانتقال الى دولة يهودية في فلسطين او ما شابه ذلك ، بل كان هدفها الاستفادة من خدمة الاهداف الامبرياليـــة العامة التي اشرنا اليها سابقا ، باعتبار ان مصالحها اصبحت مندمجة بشكل كلي مع مصالح الطبقة الحاكمـــة في البلد الموجودة فيـــه · لذلك كان احد الاهداف الاساسية لاقامة البارون ادموند دي روثتشايلد لمستعمراته الزراعية في فلسطين دعم المصالح الاستعمارية للامبريالية الفرنسية في « الليفانت » · اذ كان البارون يستخدم نفوذه لدى الدولة العثمانية الغارقة في الديون لخلق مناطق نفوذ جديدة لفرنسا · كما انه ينبغي الا ننسى الدور الهام الذي قام به روثتشايلد الانكليزي في عملية استيلاء بريطانيا على قناة السويس ، اذ كان

....

★ ننوه هنا بدراسة الياس سعد التي اهتمت بدور البورجوازية اليهودية الكبيرة في صنع الصهيونية وشددت على أهميته · « ملاحظات اولية حول الايديولوجيـــة الصهيونية من حيث نشأتها واصولها المجتمعية» ، «شؤون فلسطينية» ، بيروت ، عدد ١٢ ، آب (اغسطس) ١٩٧٢ ، ص ١٩ ــ ٤٤ ·

هذا المليونير عنصرا اساسيا في الصفقة التي عقدها ديزرائيلي لاستملاك اسهم شركة القناة · يضاف الى ذلك رغبة هذه الطبقة اليهودية في ابعاد شبح انتشار ظاهرة معاداة السامية عن الاوساط التي تتحرك فيها بواسطة التخلص من المصدر الرئيسي لهذه الظاهرة : اليهود الفقراء والمهاجرين والبروليتاريين ، بتهجيرهم الى اماكن بعيدة وتوطينهم فيها (فلسطين والارجنتين وغيرهما) · ولا يخفى ان لعملية التهجير هذه مغزى اضافي هام مرتبط بالشهرة التي اكتسبها هؤلاء اليهود المسحوقين كمساهمين فعالين في الحركات العمالية والاحزاب الاشتراكية وفي النضال العام ضد النظام الرأسمالي وسيطرته : بخاصة وان دعاة العداء للسامية كانوا يستخدمون هذه الشهرة كسلاح ايديولوجي قوي عن طريق تلفيق وترويج حكايات حول كون اليهود وراء كل « الحركات الهدامة » التي تريد تقويض اركان المجتمع القائم وتدميره · لذلك لا غرابة ان وجدنا ان الترجمة العملية لاهتمام البورجوازيات العليا بالمشروع الصهيوني جاءت على صورة تشكيل جمعيات الاستعمار والتهجير والتوطين ودعمها ، كما فعل البارون موريس دي هيرش عام ١٨٩١ بتأسيسه « الجمعية اليهودية للاستعمار » ، وتمويلها لابعاد اكبر عدد ممكن من فقراء اليهود عن القارة الاوروبية كلها · وغني عن الذكر ان شرائح من البورجوازية اليهودية الوسطى في ميادين الاعمال التجارية والمهن الحرة والمجالات العلمية والادبية تحالفت مع البورجوازية اليهودية العليا بالنسبة لطبيعة استجابتها للمشروع الصهيوني ، وذلك بسبب تضايقها الشديد من اشتداد سعير المنافسة الاقتصادية وتفاقم العنصرية والعداء للسامية في اوساط الطبقات الوسطى الاوروبية ، ورغبة منها في المحافظة على مكاسبها الاجتماعية ومواقعها الاقتصادية المرتاحة نسبيا ·

من ناحية اخرى برزت ايضا علامات اولية تشير الى ان شرائح اخرى من البورجوازية اليهودية الوسطى (ذات التطلعات الصناعية بشكل خاص) مستعدة للاستجابة ، بالتحالف مع الشرائح الاكثر تقدما من البورجوازية الصغيرة ، للمشروع الصهيوني من زاوية مشكلتها الخاصة الآخذة بالتكون، وليس من زاوية المصالح الامبريالية للطبقات الحاكمة فحسب · وتتلخص المشكلة الخاصة هذه بالاصطدام التدريجي لمصالح البورجوازية اليهودية الحيوية (باستثناء برجوازية امراء المال طبعا) بعوائق اساسية لم يكن بالامكان اختراقها ، مما حدّ من نموها وقدرتها على التوسع داخل الاسواق الوطنية الاوروبية اول الامر ، ثم فرض عليها التراجع والانكماش ، ومن بعد

ذلك التدهور السريع • وتمثلت هذه العوائق بالتأثيرات السلبية التي اخذت تعاني منها البورجوازية الصغيرة نتيجة نمو الرأسمال الاحتكاري ، وبتفاقم العنصرية ومعاداة السامية على أثر اشتداد حدة التنافس الاقتصادي والمعيشي في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة • على هذا الاساس يتبين ان استجابة هذه الشرائح من البورجوازية اليهودية للمشروع الصهيوني واهتمامها به ترجع الى املها في ان يؤمن لها سوقا وطنية موحدة خارج القارة الاوروبيــة كلها حيث تستقل بها عن بقية الاطراف فتضمن الهيمنة لنفسها بدون ان يزاحمها على سوقها الداخلية احــد • لذلــك اقتربت هــذه الشرائــح مــن المشروع الصهيوني المطروح بمنطق القومية البورجوازية المقرون بتطلعات نحو تحويل الهجرة الى عملية استعمارية استيطانية واضحة ، وعند ذلك سرى الكــلام الجدي بين صفوفها حول « الوجـــود السياسي اليهودي المستقل » وحول « الامة اليهودية » و « الدولة اليهودية »، مع التشبه بعدد من الحركات القومية الاوروبية التي كانت تقاتل في تلك الفترة من اجل تحقيق اهداف البورجوازية في الاستيلاء على السلطة وتوحيد السوق الوطنية كما حدث في ايطاليا والمانيا وبولونيا ودول البلقان • على سبيل المثال صدر في برلين عام ١٨٤٠ كراس يهودي غير موقع اعتبر اليهود غرباء في البــلاد الاوروبــية التي يقيمون فيــها لانهم ليسوا المانيين ولا فرنسيين ولا سلافيين الخ ، بل هم بنو اسرائيل اقارب العرب • ومن هذا المنطلق دعا الكراس الى عودة يهودية مبكرة لفلسطين والى البحث عن الدعم المناسب لدى حكومة احدى الدول الاوروبية الكبرى لاقامة القاعدة اليهودية اللازمة في فلسطين ، كما دعا اليهود للتشبه بالشعوب التي حاربت من اجــــل تحررها القومي على غرار ما جـــرى في اليونان والصرب (١٣) وولدت دعوة الكراس نقاشا قويا في الاوساط اليهودية المعنية برزت فيه من جديد الفكرة التي مررنا عليها حول مساهمة اقامة دولة يهودية في فلسطين في اعادة التوازن بين الدول الاوروبية الكبرى بالنسبة لسياساتها في الشرق ، وفي مساعدة الباب العالي على محمد علي باشا في مصر ، كما برز وعي يهودي واضح باهتمام بريطانيا بالمشروع كله بسبب انسجامــه مع مصالحها الامبريالية (١٤) •

---

(١٣) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ٤٥ •

(١٤) المرجع السابق •

كذلك نجد في كتابات كل من يهودا القالـــي وكاليشر وموسى هس وفي نشاطاتهم العملية تعبيرا امينا عن نوعية استجابات البورجوازية اليهوديـة للمشروع الصهيوني بخاصة وانهم عاصروا فترة الطرح الملح للمشروع من قبل الطبقات الحاكمة في انكلترا وفرنسا ، واهتموا بالدعوات الموجهـة الى البورجوازية اليهودية كي تتبناه،كما عاشوا التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت بوضوح مع مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر وادت الى بروز اهتمام جدي في اوساط هذه البورجوازية بالمشروع الصهيوني وتبنيها له على النحو الذي ذكرناه · لذلك نجد ان القاسم المشترك بين مواقف الدعاة اليهود الصهيونيين الثلاثة المذكورين اعلاه يتألف من : (أ) التعبيـــر عن ضرورة التبني اليهودي الكامل للمشروع الصهيوني بكل عنفه الاستعماري ، وتبعيته للمصالح الامبرياليـــة في الشرق و « الليفانت » ، وبكل مضامينـه الشوفينية والعنصرية كما تصورتها الطبقـــات التي طرحـــت المشروع اصلا (تحت شعارات مثل الرسالة الحضارية ، وتمدين شعوب الشرق ، وتفـوق العنصر الاوروبي الابيض ، الـــخ) · (ب) التعبيـــر عن انسجام المشروع الصهيوني مع مصالح البورجوازية اليهودية العليا من حيث انه يساعد في مساهمتها في بناء الامبراطوريات الكولونالية والاستفادة من مردود هـذه المساهمة وارباحها ومكاسبها ، كما يؤدي في الوقت نفسه الى تخلصهـــا ، ولو جزئيا ، من مشكلة الطبقات اليهودية الدنيا بابعاد اكبر عدد من افرادها عن اوروبا كلها · (ج) التعبير عن انسجام المشروع الصهيوني مع مصالح تلك الشرائح من البورجوازيـــة الوسطى والصغيـــرة التي راحت تبحث عن السوق الوطنية الموحدة المستقلة التابعة لها فاخذت تتطلع نحو « بناء الدولة اليهودية » وبعث « الامة اليهودية » وتتكلم بوضوح متزايد مع مرور الايام عن « القومية اليهوديـــة » وعن « ارض الآباء والاجداد » الخ · وسنضرب الامثلة على ذلك ·

ميز يهودا القالي من ناحية بين التعلـــق اليهودي العاطفي التقليدي بفلسطين والعودة الفردية اليها بدافع ديني ، وبين العودة الجماعية المنظمـة الى « ارض الآباء » من ناحية ثانيـــة · وهو يعبر تعبيرا مبكرا عـن مطامح البورجوازية اليهودية عندما يدعو الى التخلص مـن النظـــرة الاولى وتبني الثانية بسرعة · كتب حول عودة اليهود الى فلسطين ما يلي في عام ١٨٤٣ :

« تعني العودة الفردية انه على كل انسان ان يبتعد عن طرقه الشريرة

الخاصة بشخصه ويتوب · والسبيل الى مثل هذه التوبة موصوفة في كتب العبادة التابعة لتقاليدنا الدينية · يسمى هذا النوع من التوبة بالتوبة الفردية لانه امر نسبي قياسا الى الحاجات الخاصة لكل فرد· وتعني العودة الجماعية وجوب عودة اسرائيل كلها الى الارض التي هي ارث آبائنا وتلقي الامر الالهي وقبول نير السماء ··· سيبدأ الخلاص بجهود اليهود انفسهم ، عليهم ان ينظموا انفسهم ويتحدوا ويختاروا القادة ويغادروا ارض المنفى » (١٥) ·

ولتحقيق هذه الغاية يكرر يهودا القالي كل ما جاء في المشروع الصهيوني الكلاسيكي من اقتراحات ويعيد تقديمها على انها الادوات المناسبة الوحيدة القادرة على تحقيق الغاية اياها ·لذلك نجده يصور فلسطين على طريقة اللورد شافتسبوري وصحبه ، اي كارض خراب تنتظر مجيء « المعمرين » الاوروبيين المناسبين ، ورؤوس اموالهم لاحيائها وتحويلها الى ارض اللبن والعسل من جديد · كما يسير على خطى كل من السلطة الفرنسية النابليونية (التي قامت بالحملة الشهيرة على مصر) وتشارلز هنري تشرشل من بعدها في الدعوة الى انشاء مجلس يهودي عام يشرف على عملية استعادة فلسطين عن طريق استعمارها بصورة تدريجية وبارسال فقراء اليهود ليستوطنوا فيها تحت سيطرة اموال الرأسماليين اليهود وتوظيفاتهم في المستعمرات هناك (١٦) · ويوضح القالي دور اقطاب المال هنا بقوله ما يلي حول المجلس اليهودي المذكور وحول الاسلوب الافضل للسيطرة على فلسطين :

« يجب ان يقوم اعظم اقطابنا ممن نعتمد جميعا على نفوذهم باختيار هؤلاء القادة ··· واطلب من اخوتنا ان ينظموا شركة على غرار شركات التأمين ضد اخطار الحريق وشركات السكك الحديدية · ولتتوجه هذه الشركة الى السلطان كي يعيد الينا ارض اسلافنا مقابل ايجار سنوي · وما ان يتم تطبيق اسم اسرائيل مجددا على ارضنا حتى يلهم ذلك جميع اليهود ليساعدوا هذه الشركة بكافة الوسائل المتوفرة لهم · ومع ان هذه المجازفة ستبدأ بداية متواضعة فسيكون مستقبلها عظيما » (١٧) ·

....

(١٥) « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٠٦ ، الترجمة العربية ، ص ١١ ، ١٢ ·

(١٦) « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٠٥· الترجمة العربية ، ص١٠ ـ ١١

(١٧) المرجع السابق ، ص ١٠٧ · الترجمة العربية ، ص١٢ ·

اما عن موضوع استعادة فلسطين عن طريق استعمارها فيقول :

« يجب ان يتم استرجاع (الارض المقدسة) ببطء · يجب اعداد الارض وتعميرها بالتدريج » (١٨) ·

وركز هذا الحاخام جهوده العملية على العواصم الاوروبية الغربية (التي انتقل اليها من موطنه في الصرب) حيث تتمركز البورجوازية اليهودية · وخص مدينة لندن باهتمام اضافـــي لاسباب يجب ان تكـــون واضحـــة مما سبق شرحه (١٩) ·

عكس كاليشر تطلعات البورجوازيـــة اليهودية باسلوب مشابه لاسلوب يهودا القالي بدون ان يكون قد تأثر به او تعرف عليه بالضرورة · ميز كاليشر ايضا بين التعلق العاطفي التقليدي بفلسطين المرتبـــط بفكرة قدوم المسيـــح المنتظر وبين استيلاء اليهود الفعـــلي على فلسطين ، ودعا الى طرح الفكرة الاولى جانبا والعمل على تحقيق الثانية عن طريق تبني المشروع الصهيوني من جانب امراء المال (الذين يدعوهم بالمحسنين) وبتجميع اعداد من اليهود في فلسطين (اي الاستعمار الاستيطاني) بموافقة الدول الاوروبية المعنيـــة ودعمها (اي تحت اشراف الامبريالية وفي خدمة مصالحها) · في عام ١٨٦٢ كتب كاليشر ما يلي حول هذا الموضوع :

« قارئي العزيز ! اطرح جانبا الفكرة التقليدية القائلة بان المسيح سينفخ فجأة في البوق فيرتعد كل من على الارض · على العكس من ذلك ، يبدأ الخلاص بايقاظ مساعدة المحسنين وبكسب موافقة الامم علىلم شمل بعض الاسرائيليين المشتتين في الارض المقدسة » (٢٠) ·

وجدير بالذكر انه كان قد عبر عن الموقف ذاتـــه عام ١٨٣٦ في رسالة وجهها الى رئيس فرع برلين من اسرة روثتشايلد (٢١) · كذلك قـــام باسفار عديدة في العواصم الاوروبية الغربية اياها بعيدا عن مدينته بوزن (في غربي بولندا) حيث قدم الى وجهاء الجاليات اليهودية مقترحات المشروع الصهيوني الكلاسيكية (شراء الارض في فلسطين ، اقامة المستعمرات الزراعية فيها ،

....

(١٨) « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٠٥ · الترجمة العربية ، ص ١١ ·

(١٩) كوبلر ، ص ٦٩·

(٢٠) « الفكرة الصهيونية » ، ص ١١١ · الترجمة العربية ص١١ ·

(٢١) المرجع السابق ، ص ١٠٩ ــ ١١٠ · الترجمة العربية ، ص ١٣·

انشاء المنظمات المعنية بالتهجير والتوطين ، الخ ٠) على انها الاداة الوحيدة لتحقيق الغاية المنشودة في « استرجاع » فلسطين ٠ ففي عام ١٨٦٧ اصدر (بالاشتراك مع حاخام آخر) نداءً موجها الى يهود بريطانيا صور فيه فلسطين على انها الارض الخراب ، وبعد وصف المساوىء التي تعاني منها شدد على انـه :

« لكن لا يوجد سوى طريقة **واحدة** وعلاج **واحد** لمنع تكرار هذه المحنة : استعمار ارض فلسطين وزراعتها وتحسينها » (٢٢) ٠

وكان كاليشر واضحا في ان القوة الكامنة خلف امكانية تحقيق كل ذلك والقادرة عليه هي البورجوازية اليهودية بمؤسساتها مثل الاتحاد الاسرائيلي العالمي ــ الآليانس ــ وثروات مونتيفيوري وامثـاله ٠ وكان كاليشر ايضا افضل من عبر عن طموح البورجوازية اليهودية في التشبه بالحركات القومية للبورجوازيات الاوروبية حين قال :

« لماذا تضحي شعوب مثـل شعب ايطاليا وشعوب البلدان الاخرى بأرواحها فداء لارض آبائها في حين نحن لا نفعل شيئا وكأننا رجال مجردون من القوة والشجاعة ؟ هل نحن ادنى شأنا من جميع الشعوب الاخرى التي لا تقيم وزنا للحياة والثروة بالمقارنة مع محبـة أرضها وامتها ؟ لنستوعب في قلوبنا الامثلة التي ضربها الايطاليون والبولنديون والمجريون الذين ضحوا بحياتهم وممتلكاتهم في الكفاح من اجل الاستقلال القومي ٠ بينما نحن بنـو اسرائيل اصحاب اقدس ارض واروعها نبقى صامتين وبدون حراك ٠ يجب ان نخجل من انفسنا ! لقد كافحت جميع الشعوب الاخرى من اجل شرفها القومي فقط ، فاي مزيد من الجهود الاعظم بكثير علينا ان نبذل على اعتبار ان واجبنا لا يقتصر على العمل من اجل مجد اجدادنا ، بل يتعدى ذلك الى مجد الله الذي اختار صهيون » (٢٣)٠

أما بالنسبة لموسى هس فاننا نجد في كتابه « روما والقدس »(٢٤)التعبير الاكثر نضجا وتقدما وتكاملا في تلك الفترة عن الاستيعاب المتنامي من جانب

(٢٢) سوكولو ، ج٢ ، ص ٢٦٢ ٠

(٢٣) « الفكرة الصهيونية » ، ص ١١٤ ٠ الترجمة العربية ، ص ١٧ ٠

(٢٤) المشار اليه سابقا ٠

قطاعات من البورجوازية اليهودية للمشروع الصهيوني باعتبـاره الاداة الاكثر ملاءمة ، على المدى الابعد ، لخدمة مصالحها الحيوية كما كانت تتحدد داخل اطار التحولات التي كان يمر بها النظـام الرأسمالـي والتفاعلات الاجتماعية التي كان يفرزها . ومعروف ان هرتزل ذكر في يومياته ان كـل ما حاول ان يفعله موجود اصلا في كـتاب موسى هس (٢٥) . وانه ما كـان ليصدر كراسه الشهير « الدولة الصهيونية » لو كـان علـى علم بوجود مؤلَّف هس وكتاب ليوبنسكر « التحرر الذاتي » (٢٦) .

اذا كان كل من يهودا القالي وكاليشر قد تطلع الى بريطانيا مـن اجـل رعاية المشروع الصهيوني وتطبيقـه فقد توجه موسـى هس نحو المصالح الامبريالية الفرنسية في الشرق و« الليفانت » معتبرا اياها الضمانة الافضل لتنفيذ المشروع . أي انه قدم مجددا الفكرة الصهيونية القديمة كما كانت تبدو وقتها من وجهة نظر : أ) المصالح الاستعمارية الاساسية للطبقة الحاكمـة الفرنسية ، ب) المصالح الداخلية والخارجية للبورجوازية اليهودية العليـا (امراء المال) ، ج) المصالح « القومية » للطبقة البورجوازيـة الوسطى في بحثها عن سوقها الوطنية المستقلة ، مع التشديد الواعي على تكامـل هذه المصالح والتدعيم المتبادل فيما بينها على مستوى التوسع الامبريالي وعمليات الاستعمار المتممة له . وقد عبر هس عن وجهات النظر هذه في فترة كانـت الامبريالية الفرنسية تمر بمرحلة صعود في « الليفانت » ، فترة شـق قنـاة السويس ، والتدخلات الامبريالية الفرنسية الناجحة في مصر وسوريا التي وصفها هس بالعبارات الوردية التالية :

« لقد اصبح العلم الفرنسي المثـلث الالوان يرفـرف بافتـخار في مصر وسوريا . ولم تعد التسمية التي اطلقها الشاعر الفرنسي على الحملة السورية تشكل مجرد تعبير شعري بل اصبحت نبوّة . كان كل من نابليون الاول ، الذي

(٢٥) **The Complete Diaries of Theodor Herzl**, 5 vols., New York, 1960, Vol. 3, p. 1090.

(٢٦) **The Jewish State**, 2nd edition, London, 1934, p. 4.

راجع ايضا :

Ludwig Lewisohn (ed), **Theodor Herzl**, Cleveland, 1955, p. 252.

جرد حملة على مصر ، ومجموعة السان سيمونيين ، الذين يرأس واحد منهم حاليا مشروع السويس ، قد ادرك اهمية قيام فرنسا بتمدين الشرق · » (٢٧)

وهي ايضا الفترة التي بدا يومها وكأن فرنسا كانت تستعد لتوطين اعداد من اليهود في فلسطين (٢٨) كجزء من مخططها العام للسيطرة على القسم الاكبر من تجارة الشرق وممراتها الحيوية بالاضافة الى المناطق الاستراتيجية الواقعة على طريقها والمحيطة بها · لذلك تبنى هس المشروع الصهيوني كما عرضه السكرتير الخاص لنابليون الثالث ارنست لاهاران مع انه كان يعلم ان مشاريع شبيهة تماما كانت مطروحة أيضا في اوساط الطبقات الحاكمة في بريطانيا والمانيا والولايات المتحدة الامريكية · (٢٩)

عبر هس بوضوح كامل عن ارتباط المشروع الصهيوني ، كما اخذت تستوعبه البورجوازية اليهودية ، بالتوسع الامبريالي في الشرق وارتهانه الكلي به بالعبارات التالية :

« ألا يجري اعداد الامور هناك وتمهيد الطرق ، ألا يجري شق طريق الحضارة في الصحراء بحفر قناة السويس ومد الخطوط الحديدية التي ستصل اوروبا بآسيا ؟ انهم لا يفكرون الآن باحياء شعبنا · الا انك تعرف المثل القائل : « الانسان يقترح والله ينفذ » ··· وكما بحثوا (اي الاوروبيون) في يوم من الايام باتجاه الغرب عن طريق الى الهند فاكتشفوا عرضا عالما جديدا ، كذلك سيتم اكتشاف وطننا الضائع من جديد على طريق الهند والصين التي يجري شقها الآن في الشرق · اما زلت تشك في ان فرنسا ستساعد اليهود على تأسيس مستعمرات قد تمتد من السويس الى القدس ومن ضفاف نهر الاردن الى البحر الابيض المتوسط » (٣٠) ·

اما الدوافع التي من شأنها ان تدعو الطبقة الحاكمة الفرنسية للعمل

---

(٢٧) « روما والقدس » ص ٢٢٨ ·

(٢٨) Stein, Leonard, **The Balfour Declaration,** Vallentine Mitchell, London, 1961, p. 11.

(٢٩) « روما والقدس » ، ص ١٦٠ ·

(٣٠) المرجع السابق ، ص ١٣٢ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ٣٦·

على توطين اليهود في فلسطين فيعبر عنها هس على النحو التالي :

« مما يتفق مع مشاعر الشعب الفرنسي ومع مصالح السياسات الفرنسية قيام فرنسا - بعد ان تكون جيوشها المظفرة قد اطاحت بنبوختنصر الحديث - بتوسيع عملها التحريري ليشمل الامة اليهودية ايضا · من مصلحة فرنسا ان ترى الطريق المؤدية الى الهند والصين وقد استوطنها شعب موال لقضية فرنسا حتى النهاية ، وذلك كي تحقق الرسالة التاريخية التي آلت اليها كتركة من الثورة الكبرى · لكن هل توجد امة اخرى مؤهلة اكثر من اسرائيل لتنفيذ تلك الرسالة على اعتبار ان الرسالة نفسها انيطت باسرائيل منذ بدء التاريخ ؟ » (٣١) ·

ولا يخفي هس مطامح البورجوازية اليهودية في ان تقوم بدور محدد ومهم ومربح ضمن اطار الهيمنة العامة للرأسمالية الاوروبية (والفرنسية بشكل خاص) على تجارة الشرق ، وذلك من خلال استيطان مناطق معينة وتطويعها لخدمة المصالح الامبريالية المعنية · يقول هس بهذا الصدد :

« بعد ان يكتمل العمل على قناة السويس ستتطلب التجارة العالمية بدون ريب اقامة مخازن ومستوطنات على طول الطريق الى الهند والصين ، مستوطنات من النوع القادر على تحويل الحالة المهملة والفوضوية للبلدان الواقعة على طول هذه الطريق الى دول مزروعة ويسودها القانون · ولا يمكن ان يتم ذلك الا في ظل الحماية العسكرية للدول الاوروبية · ان الدبلوماسية الفرنسية الحكيمة كانت تخطط دوما لضم الشرق الى تخوم الحضارة ·»(٣٢)

ولا تقف اية عوائق حقيقية في وجه تحقيق هذا الهدف لان البورجوازية اليهودية تسيطر ، من حيث المبدأ ، على ما يكفي من رؤوس الاموال والمواهب والايدي العاملة لانجاز المهمة · او على حد قول هس :

« من أجل تحقيق الاستعمار اليهودي على الطريق الى الهند والصين لا يوجد أي نقص في اليد العاملة اليهودية او في المواهب والرأسمال

....

(٣١) « روما والقدس » ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ·

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ·

اليهودي ٠ ليجري زرع البذرة بحماية الدول الاوروبية وستنبت شجرة الحياة الجديدة بنفسها وتحمل ثمارا ممتازا » (٣٣) ٠

وفي موضع آخر تبنى هس وصف لاهاران لما يمكن للبورجوازية اليهودية ان تفعله من خلال رساميلها بارض فلسطين كما في الاسطر التالية :

« وسيعيد رأسمالكم الزراعة من جديد الى الاراضي الواسعة الجرداء٠ وسيحول عملكم واجتهادكم الارض العتيقة الى وديان مثمرة مرة اخرى ، كما سيخلص السهول المنبسطة من رمال الصحراء الزاحفة عليها ٠ عندئذ سيعلن العالم تقديره لاقدم الشعوب ٠ » (٣٤)

انطلاقا من هذا التصور ايد هس بحماسة : اولا ، مقترحات لاهاران الداعية الى الاستيلاء على فلسطين عن طريق جهود « رجال المصارف الدوليين من اليهود » أو انشاء اكتتاب مالي يهودي عام لتمويل استعمارها (٣٥) ٠ وثانيا ، الخطة التي وضعها الحاخام الثري كاليشر للاغراض نفسها بحيث يقوم كبار اقطاب المال من اليهود من أمثال مونتيفيوري والبرت كوهن وكل من آل روثتشايلد وفولد وغيرهم بتأسيس جمعية هدفها استعمار فلسطين (٣٦) ٠ وترى خطة كاليشر ـ هس المذكورة في اقطاب البورجوازية اليهودية العليا « أمراء يهود من النوع الذي لم يحظى به الشعب اليهودي منذ الشتات » (٣٧) ٠ كما تتوقع ان ينضم عدد كبير من اليهود الاثرياء والمحترمين في كافة انحاء العالم الى مساعي هؤلاء « الامراء » في ميدان الاستعمار (٣٨) ٠ اما برنامج الجمعية المقترحة فهو لا يختلف من حيث الجوهر عن الآراء التي مررنا عليها عند دعاة المشروع الصهيوني الاوائل من امثال اللورد شافتسبوري واتباعه٠

....

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٥٠ ٠
(٣٤) المرجع السابق ، ص ١٣٩ ٠ الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ٣٧٠
(٣٥) المرجع السابق ، ص ١٣٣ ٠
(٣٦) المرجع السابق ، ص ١٥٤ ٠
(٣٧) المرجع السابق ٠
(٣٨) المرجع السابق ٠

فقد نص برنامجها على جمع الاموال الكافية من اجل شراء القرى والمدن والحقول والبساتين في فلسطين ومن ثم تأجيرها الى اعداد مناسبة من اليهود تجلبهم الجمعية للاستيطان من كافة انحاء العالم ، ولكن بصورة خاصة من روسيا وبولندا والمانيا (وليس من بريطانيا او فرنسا او هولنده مثلا) (٣٩) · وكأي داعية استعماري آخر لم تفت موسى هس حقيقة هامة هي حتمية مواجهة عملية الاستعمار والاستيطان بمقاومة قوية من قبل سكان البلاد الاصليين مما يعني انه لا بد من فرضها بالقوة وتثبيتها بالعنف · لذلك يتوجب على جمعية استعمار فلسطين انشاء قوة مسلحة لحماية المستوطنين من هجمات « البدو » (أي من مقاومة اهل البلاد) ومن أجل حفظ الامن والنظام في البلاد عامة · (٤٠)

يضاف الى كل ذلك تعبير هس الواضح عن مطمح قطاعات مهمة من البورجوازية اليهودية في التخلص ، قدر الامكان ، من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية المتولدة عن الاوضاع المتردية للطبقات اليهودية الدنيا والفقيرة (خاصة اوضاع المهاجرين من روسيا واوروبا الشرقية) عن طريق تبني المشروع الصهيوني ورعايته باعتباره يدعو الى تهجير هذا « الفائض البشري » من اليهود وابعاده الى خارج اوروبا · يقول هس بهذا الصدد :

« من المفهوم جيدا انه عندما نتكلم عن استيطان يهودي في الشرق فاننا لا نعني القول بالهجرة الكاملة لليهود الغربيين الى فلسطين · حتى بعد اقامة الدولة اليهودية (هناك) لا شك ان غالبية اليهود الذين يعيشون حاليا في البلدان الغربية المتمدنة سيبقون حيث هم · » (٤١)

ان هذا الحل البورجوازي الاستعماري للمسألة اليهودية في اوروبا لا يريح البورجوازية اليهودية الباقية محلها ويساعدها على اخذ مكانها المناسب في بنية الطبقات الحاكمة فحسب ، بل من شأنه ايضا ان يرضي

....

(٣٩) المرجع السابق ·

(٤٠) المرجع السابق ·

(٤١) المرجع السابق ، ص ٢٢٩ · الترجمة العربية · « الفكرة الصهيونية » ، ص ٤١ ·

القوى الاجتماعية الواقفة وراء حركة معاداة السامية واحزابها التي كانت تنظر الى اليهود من موقع شوفيني عنصري فتعتبرهم غرباء على حضارة البلاد وثقافتها ودخلاء على اقتصادها · على سبيل المثال يقول هس :

« ··· لن تعارض الامم المسيحية بالتأكيد احياء الدولة اليهودية لانها بهذه الطريقة ستخلّص بلادها على التوالي من شعب غريب يشكل شوكة في جنبها · ولم يقتصر التعبير عن تأييد عودة اليهود الى فلسطين على الفرنسيين وحدهم بل شمل ايضا الالمان والانكليز · » (٤٢)

وبطبيعة الحال لم يتغافل هس عن أهمية الحل الصهيوني التهجيري للمسألة اليهودية في التخفيف من حدة الصراع الطبقي المحتدم بشدة في تلك الفترة · لقد أدركت البورجوازية اليهودية ما كانت تعرفه البورجوازيات الاوروبية المسيحية في البلدان الرأسمالية المتقدمة من قبل : اهمية الامبريالية والاستعمار والاستيطان في الخارج في تخفيف ضغط الصراع الطبقي عليها وتحويل جزء من الطاقات التي يولدها في مجار اخرى لا تؤذي مصالحها الحيوية وهيمنتها ، مع تدعيم كل ذلك بايديولوجية قومية شوفينية عنصرية والممارسات التي تنسجم معها · ونذكر هنا على سبيل المثال الكلام الذي اورده لينين على لسان سيسيل رودس في وصف هذا الواقع :

« كنت امس في الايست اند (حي العمال في لندن) وحضرت اجتماعا من اجتماعات العمال العاطلين · واستمعت هناك للخطابات الهائجة التي لم تكن سوى صرخات من اجل الخبز ! الخبز ! واثناء عودتي الى المنزل تأملت في هذا المشهد فاصبحت اكثر اقتناعا من اي وقت مضى باهمية الامبريالية ··· ان فكرتي المحببة هي الحل للمسألة الاجتماعية · بعبارة اخرى ، من اجل انقاذ الاربعين مليونا من سكان المملكة المتحدة من حرب اهلية دموية ينبغي علينا نحن رجال الدولة المسؤولون عن المستعمرات الاستيلاء على اراض جديدة لنوطن فيها فائض السكان ، ولنوفر اسواقا جديدة للبضائع التي تنتجها المصانع والمناجم · فالامبراطورية ، كما كنت اقول دوما ، هي مسألة

---

(٤٢) المرجع السابق ، ص ١٤٢ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ٣٨ ·

تتعلق بخبز الناس وغذائهم · فاذا كنتم تريدون تجنب الحرب الاهلية فعليكم ان تصبحوا امبرياليين · » (٤٣)

بعبارة اخرى فهمت البورجوازية اليهودية ما للمشـروع الصهيونـي في الاستعمار من اهمية بالنسبة لتلطيف حدة الصراع الطبقي عن طريق تهجير اعداد كبيرة من العمال والفقراء الى مناطق معينة بحيث يتولد لديهم احساس بتحسن ظروفهم وباكتسابهم بعض الامتيازات وخاصة بالمقارنة مع اوضـاع البيئة المحيطة بهم وخارج مستعمراتهم · وفي الوقت نفسه تكون الطبقـات التي يأتي منها المهاجرون قد ساعدت ، من حيث لا تدري ، البورجوازيـة اليهودية والطبقة الحاكمة في البلد الرأسمالي الاصلي علـى ترسيـخ نفوذهما الامبريالي وتحويل مجرى الصراع الطبقي باتجاهات اكثر أمانا لمصالحهما ، بالاضافة الى قذف طاقات بشرية مؤهلة خارج حلبة الصـراع وتحييدها او « رشوتها » بحيث تنتقل من مواقف العداء الطبقي الـى مواقف التعاون علـى تثبيت مواقع البورجوازيات الامبريالية وهيمنتها في الداخل والخارج · وقد عبر موسى هس عن هذا الواقع بقوله :

« يسعى الاستعمار بوصفه نوعا مـن الهجرة الجماعية التي يحميـها القانون الى البحث عن ارض افضل للعمال وحقوق اكثر شمولا لهم · واذا عمل اليهود (٤٤) ، بمساعدة فرنسا ، على اطـلاق هـجرة جماعية لاخوانـهم المضطهدين باتجاه الشرق فان الهجرة ستتم لان المستعمرين اليهود سيجـدون مجالا أفضل (هناك) لكسب عيشهم ، ولان العمال اليهود سيحصلون على حماية قانونية مساوية علـى أقل تعديل للحمايـة التي يتمتعـون بها في الغرب » (٤٥) ·

مع استيعابها التدريجي للمشروع الصهيوني لم تترك البورجوازيـة اليهودية سلاحا من الاسلحة الايديولوجيـة اللازمة لتدعيـم الاتجاهات

....

(٤٣) « الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية » ، القسم السادس ·

(٤٤) واضح من معنى الفقرة ان هس يقصد هنا اغنياء اليهـود او البورجوازيـة اليهودية ·

(٤٥) « روما والقدس » ، ص ٢٢٧ ·

الاستعمارية التي كانت تسير فيها الا" واستخدمته : من القومية الشوفينية الى العنصرية مرورا بخدعة « الرسالة التمدينية » التي تحملها الشعوب الاوروبية البيضاء · في الواقع حمل المشروع الصهيوني داخل بنيته كل هذه الاسلحة منذ البداية بحكم المصالح الطبقية التي نشأ عنها في الاصل كما رأينا · وتعززت هذه النزعات الكامنة فيه بعد ان تم استيعابه تدريجيا من قبل قطاعات متعددة من البورجوازية اليهودية بسبب اتجاه البورجوازيات الحاكمة في الدول الاوروبية كلها نحو التمادي الكلي في استخدام الشوفينية والعنصرية الخ · من اجل المحافظة على نفسها والدفاع عن مصالحها الحيوية في وجه المقاومة الطبقية الضارية التي كانت تواجهها · على هذا الاساس اصبحت القومية الشوفينية تشكل سلاحا بيد البورجوازية اليهودية ايضا لتخفيف حدة الصراع الطبقي المحتدم ضدها ودعوة للتعاون بين الطبقات المستغلة والمستغلة وللِّقاء بينها على أرضية القومية اليهودية · أو كما يعبر عن ذلك هس بقوله :

« ستلتقي جميع الطبقات اليهودية على الارض المشتركة للوطنية اليهودية : الطبقات التقليدية منها والتقدمية ، الثرية والفقيرة » (٤٦) ·

وبقوله ايضا :

« تشكل الارض القومية المشتركة شرطا اوليا ان كنا نريد اقامة علاقات افضل واكثر تقدمية بين الرأسمال والعمل فيما بين اليهود » (٤٧) ·

أما العنصرية كما حملتها الصهيونية اليهودية في تلك الفترة فقد عبر عنها هس على النحو التالي :

«لم يكن تاريخ الانسانية السابق بأكمله يتحرك الا ضمن دائرة الصراعين العرقي والطبقي· والصراع العرقي هو الاساسي في حين ان الصراع الطبقي هو الثانوي » (٤٨) ·

(٤٦) المرجع السابق ، ص ١٥٣ ·
(٤٧) المرجع السابق ، ص ١٤٦ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ٤٠ ·
(٤٨) المرجع السابق ، ص ١٩٩ ·

وقد نظر هس لهذا الموقف العنصري بقولـــــه ان الانسانية مؤلفة من مجموعة اجناس او اعراق مستقلة بعضها عن البعض الاخر تحمل خصائص جسمية وعقلية وراثية ثابتة ولا تتبدل بتأثير التغيـــرات البيئية او التاريخية الحادثة · كما ان لكل عرق من هذه الاعــراق وظيفة طبيعية يميل الى القيام بها بشكل عفوي او شبه غريزي (٤٩) · اما النتيجة المنطقية لهذا المنحى فــي التفكير فتتلخص في وضع بعض الاجناس في موقع التــفوق والسيادة الدائمة على الاجناس الاخرى بحكم خصائصها الوراثية المزعومة والوظيفة «الطبيعية» التي تميل الى القيام بها بشكل غريزي · لذلك يقول هس ما يلي عندمـــا يتكلم عن « العرق » اليهودي :

« العرق اليهودي هو أحد اعراق الجنس البشري الاوليــة ، وقد حافظ على سلامته على الرغم من التغييرات المستمرة في بيئته المناخية · لــقد حافظ النوع اليهودي على نقائه عبر القرون » (٥٠) ·

ثم يقول لليهود :

« تحولوا ، اذن ، الى مثقفي (بكسر القاف) القطعان العربية المتوحشة ومثقفي الشعوب الافريقية » (٥١) ·

ويتكلم عن « غريزة اليهود العنصريـــــة » (٥٢) و « العنصر الجرماني الخالص » (٥٣) وعن « عداء الالمان العنصري لليهود » (٥٤) · ولم تتقاعس البورجوازية اليهودية المتصهينة عن اضافة اسطـــورة « الرسالة التمدينية » التي تحملها اوروبا الرأسماليـــة الى شعوب الشرق الى جهـــاز اسلحتها الايديولوجية ، وقد عبر هس عن ذلك بتبنيه الكامــل لرأي لاهــاران الــذي مر

---

(٤٩) المرجع السابق ، ص ٢٣ ، ٣٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ·
(٥٠) المرجع السابق ، ص ٥٢ ـ ٥٣ ·
(٥١) المرجع السابق ، ص ١٤٠ ·
(٥٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ ·
(٥٣) المرجع السابق ، ص ٥١ ·
(٥٤) المرجع السابق ·

معنا حول رسالة اليهود الاوروبية في تمديـــــن شعوب آسيا البدائية · لقد سمعت الشعوب التي خضعت للاستعمار هذا الكلام مرارا وتكرارا على لسان المستعمرين الاوروبيين وهي تعرف معناه الواقعـــي والحقيقي عن طريق ما تعرضت له من معاناة وألم واضطهاد ونهـب ، ولا فارق ان كان قائله يهوديا صهيونيا او مسيحيا رأسماليا من فرنسا او انكلترا أو هولندا ·

IV

الحركة الصهيونية

شهدت بداية ثمانينات القرن الماضي بلـوغ الصهيونية اليهودية مرحلة نضجها · وقد تجلى هذا التطور في ظواهر رئيسية مثل :

١) تبلور عملية استيعاب قطاعات من البورجوازية اليهوديـة للمشروع الصهيوني في تحركات اجتماعية منظمـة نسبيا ذات طابع قومي بورجوازي واضح ، وتحت سيطرة قيادات من البورجوازيـة المتوسطة (١) وأتباع من

....

(١) لو سجلنا بشكل سريع وعشوائي عشرة من ابرز الاسماء القيادية في تاريخ الحركة الصهيونية لوجدنا ما يلي بالنسبة لوضعها الطبقي :

★ ثيودور هرتزل : صحافي ناجح وابن اسرة عملت في ميدان المصارف والبورصة ·

★ ماكس نورداو : طبيب وكاتب لامع من اسرة بورجوازية صغيرة · كان والده مدرسا ورجل دين ·

★ جاكوباس كان : من اصحاب المصارف الناجحين في هولندا ·

★ دافيد ولفسوهن : تاجر اخشاب ناجح جدا ·

★ اوتو واربورغ : عالم طبيعي مشهور واستاذ جامعة وابن اسرة تملك مصارف في هامبورغ ·

★ ناحوم سوكولو : صحافي وكاتب معروف ، ابن اسرة بورجوازية على جانب من الثراء وتعمل بالتجارة ·

البورجوازية الصغيرة . ففي روسيا القيصرية عمل الوضع الاقتصادي والاجتماعي المتدهور لغالبية اليهود على بلورة هذا الاتجاه القومي بسرعة كبيرة . كما أثر فيه عامل آخر هو كون الامبراطورية القيصرية في تلك الفترة تعج بالحركات القومية بقيادة البورجوازيات الناشئة بين الشعوب والاقليات الخاضعة . وكان تفجر المذابح العنصرية الشهيرة في روسيا ضد اليهود عام ١٨٨١ تحت اشراف الطبقة الحاكمة وبمشاركتها المباشرة احد اشكال التعبير عن الازمة الحادة المتولدة من انهيار النظام الاجتماعي القديم والناتجة عن عجز الرأسمالية النامية في البلاد عن مجابهة المعضلات التي سببتها التحولات الاقتصادية والاجتماعية الكبرى . ومع ان ٢٠ الف يهودي هاجروا من روسيا على أثر هذه الاعتداءات الدامية لم يتوجه منهم الى فلسطين الا بضعة مئات من بينها المجموعة الصغيرة التي تسميها المصادر الصهيونية بموجة الهجرة الاولى الى فلسطين . كما قامت عناصر من الطلاب والشباب اليهود بتشكيل جمعيات محلية في عدد من المدن الروسية (عرفت فيما بعد باسم « احباء صهيون ») لتشجيع الهجرة الى فلسطين والاستيطان في ارضها بشكل منتظم . وفي الفترة نفسها اصدر الطبيب المعروف ليو بنسكر كراسه المشهور « التحرر الذاتي » (١٨٨٢) الذي عبر فيه بوضوح عن تبلور الاتجاه القومي في اوساط البورجوازية اليهودية ودعا الى تبنيه وتحويله الى حركة جماهيرية منظمة باعتباره الحل الحقيقي الوحيد للمسألة اليهودية في العالم .

٢) اعادة صياغة المشروع الصهيوني القديم استنادا الى وجهة نظر المصالح البورجوازية الكامنة وراء الدعوة القومية اليهودية ، وتقديمه على انه الاستجابة الطبيعية لتطلعات الدعوة ومطامحها . وهذا تماما ما حققه كل من

★ آرثر روبين : مثقف من اسرة بورجوازية صغيرة . عمل في الشركات التجارية الكبيرة قبل انغماسه الكلي في النشاط الصهيوني .

★ مناحيم اوسيشكين : كان والده تاجرا ثريا ولذلك سمحت له السلطات القيصرية بالاقامة في موسكو .

★ فلاديمير جابوتنسكي : صحافي وكاتب .كان والده موظفا كبيرا في الشركة الروسية للملاحة والتجارة .

★ حاييم وايزمان : استاذ جامعي وعالم كيمياء معروف ، ابن اسرة متوسطة . وكان والده يعمل في تجارة الاخشاب .

بنسكر في كتابه « التحرر الذاتي » وهرتزل ، فـي كراسه « الدولـة اليهودية » (١٨٩٦) ٠ أي بديل ان تتبنى الصيغة الامبرياليـــة الكلاسيكية للمشروع من مواقع ساكنة منفعلة ومن حيث هـــي استجابة لنـداءات اتـباع شافتسبوري وامثاله (التي تدعـو اليـهود الى أخذ مكانهم الطبيـعي في تنفيذ مشاريـــع الامبراطورية في « الليفانت » وخدمة مصالحها) ارادت الصهيونية اليهودية، في مرحلة نضجها وتبلورها ، ان تكون قوة مادية فاعلة تتحرك وفقا لمصالحها الطبقية المستقلة ، بحيث تتقدم هي الى الطبقات الحاكمة في الدول الامبريالية من اجل عقد التحالفات وتبادل الخدمات اثناء سيرها في سبيل تحقيق اهداف المشروع الصهيوني ★ ٠ لذلك نرى ان الصياغـــة التي قدمها كل من بنسكر وهرتزل للمشروع الصهيوني ركزت على ايجاد الادوات التنفيذية المباشرة ، تنظيميا واداريا وسياسيا وماليا ، من اجل العمـل الفوري على تطبيقه ، كما تميزت باقدام الرجلين على الاضطلاع بمهمـات بناء الاجهزة المطلوبة وخلق الادوات اللازمة لذلك ٠ لقد وجد بنسكـــر في جمعيات تشجيع الهجرة الى فلسطين النواة المطلوبة لبناء الهيكـــل التنظيمي الاولي لاستيعاب التحرك

....

★ رفضت بديعة امين في كتابها المشار اليه سابقا هذا النـــوع من التحديد الطبقي لطبيعة الحركة الصهيونية ونفت بذلك عنها كل سمة من سمات الحركات القوميـــة البورجوازية ٠ وقد ادى بها هذا التوجه الى الوقوع في عدد من الاخطاء الجديـة واهمها : (أ) قولها ان الصهيونية لم تكن الا حركة فئة محدودة من المثقفين اليهود دون ان يكون لها اي اساس مادي او طبقي ، (ب) قولهـــا ان الصهيونية لم تكن بالتالي سوى حركة استعمارية ومجرد مظهر من مظاهر الاستعمار الغربي في نزعه الاخير ، وكأن كون مثل هذه الحركات ظواهر قومية بورجوازية يمنعها من ان تكون حركات استعمارية في الوقت ذاته ، وهذا بالفعل ما كانته الصهيونية ، (ج) وقولها بعدم دخول الشرائح المتوسطة والدنيا للبوارجوازية اليهودية في اي صراع اقتصادي حاد مع البورجوازية الاوروبية المسيحية في العقود الاخيرة من القرن الماضي، هذا على الرغم من ان كبار دارسي تطور الوضع الطبقي في تلك الفترة من امثال انجلز ولينين وكاوتسكي يؤكدون عكس ذلك تماما ٠ وجدير بالذكر ايضا ان هرتزل كـــان مدركا لهذه الحقيقة ادراكا عميقا كما هو واضح في « الدولة اليهودية » (ص ٢٥ مثلا) وفي يومياته ٠ (انظر : « المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية » ص ١٣٥ ـ ١٤٥ ، ١٧٣ ، ١٨٣) ٠

القومي اليهودي وتجسيده (٢) • لذلك دعا الجمعيات الى توحيد نفسها في « مجلس قومي » او في « هيئة ادارية » تكون تعبيرا عن الوحدة المطلوبة في صفوف الصهيونية اليهودية (٣) • وعلى اساس هذا البرنامج عقدت جمعيات تشجيع الهجرة مؤتمرا تأسيسيا عام ١٨٨٤ انبثقت عنه حركة « احباء صهيون » برئاسة بنسكر نفسه • أما هرتزل فقد ناقش في كراسه الشهير ادق التفصيلات المتعلقة ببناء الدولة اليهودية وبعمليات الاعداد المطلوبة لتشييدها من خلال اعادة صياغة المشروع الصهيوني الكلاسيكي من وجهة نظر الصهيونية اليهودية • وكما هو معروف لم يكتف هرتزل بمناقشة التفاصيل بل بذل جهودا كبيرة في بناء المؤسسات السياسية،والاجهزة التنظيمية والادارية والمالية التي تحركت الصهيونية اليهودية من خلالها باتجاه استيطان فلسطين واستعمارها ومن ثم الاستيلاء عليها كليا بحماية الامبريالية المسيطرة على الشرق الاوسط •

وجدير بالذكر هنا ان الصهيونية اليهودية، في اعادة صياغتهاللمشروع الصهيوني الكلاسيكي على النحو المذكور ، لم تدخل اية تعديلات مهمة على اهدافه او على ركائزه الاساسية او خطوطه العريضة • ولا ينفي هذهالحقيقة نشوء بعض الخلافات المبكرة في الاوساط الصهيونية اليهودية حول ما اذا كانت فلسطين هي الارض الاكثر ملاءمة لانشاء الدولة اليهودية أم لا ؟ لقد نشأت هذه الخلافات والمناقشات اثناء انتقال الصهيونية اليهودية من مرحلة التقبل الساكن المنفعل للمشروع الصهيوني الكلاسيكي (موسى هس مثلا) الى مرحلة اعادة طرحه مجددا من زاوية المبادرة البورجوازية اليهودية المستقلة ذات الطابع القومي استعدادا لتحقيقه (مرحلة بنسكر وهرتزل) • وقد عكست هذه الفترة الانتقالية نفسها في كَرّاسي « التحرر الذاتي » و « الدولة اليهودية » على شكل تردد في تحديد الارض المناسبة تماما لاقامة الوطن القومي اليهودي مع الميل الواضح لتفضيل فلسطين على غيرها• يقول بنسكر حول هذا الموضوع :

« من المحتمل ان تعود الارض المقدسة الينا مرة اخرى ، واذا حدث هذا

(٢) « الفكرة الصهيونية » (الاصل الانكليزي) ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ • الترجمة العربية ، ص ٩٣ ـ ٩٤ •

(٣) المرجع السابق•

فزيادة في الخير · لكن **قبل كل شيء** علينا ان نحدد اي بلـد من البلـدان يتاح لنا الوصول اليه ويشكل في الوقت نفسه مكانـا ملائما بحيث يوفر لليهود من كافة الاصقاع ··· ملجأ آمنا لا جدال حوله » (٤) ·

أما هرتزل فقد قارن بين مزايا كل من فلسطين والارجنتين في « الدولة اليهودية » وترك الاختيار النهائي معلقا ومرهونا بالرأي العام اليهودي · الا ان أية مراجعة دقيقة لمقارنته ستبين تحيزه العميق لفلسطين المتحدر دون شك من تراث المشاريع الصهيونية الامبريالية التي راجعناها في ما سلف · لذلك يقول هرتزل :

« فلسطين هي وطننا التاريخي الذي نذكره أبدا · ان اسم فلسطين بحد ذاته سيجذب شعبنا بقوة رائعة من حيث فاعليتها » (٥) ·

ونلحظ الاتجاه نفسه في قوله :

« قولنا المأثور هو « العام القادم في القـدس » · المسألة في الوقت الحاضر هي ان نبين انه بالامكان تحويل هذا الحلم الى واقع حي » (٦) ·

الا ان هذا التردد المفترض لم يستمر طويـلا اذ اصبح بنسكر رئيسا لحركة « احباء صهيون » المتعصبة جدا لهجرة اليهود الى فلسطين وليس الى غيرها ، كما ساد في صفوف الحركة التي اطلقها هرتزل وقادها التيار المصر على انشاء الدولة اليهودية في فلسطين وليس في الارجنتين او اوغندا مثلا · اي ان الصهيونية اليهودية التصقت بالمشروع الصهيوني الكلاسيكي بكـل حذافيره وتفاصيله · وهذا واضح ايضا من مذكرات هرتزل حيث يظهر جليا ان اهتمام الحركـة الصهيونية بمناطق الاستعمار والاستيطـان الاخرى (اوغندا ، سيناء ، قبرص الخ·) لم يكن الا اهتماما عرضيا وتكتيكيا غرضه الوصول الى فلسطين في آخر المطاف · ففي محادثاته مع تشامبرلين أوضح هرتزل للوزير البريطاني ان هدفه من مناقشة مسألة الاستيطان اليهودي في

(٤) المرجع السابق ، ص ١٩٤ · الترجمة العربية ، ص ٩٢ ·
(٥) « الدولة اليهودية » ، ص ٣٠ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص١٢٠·
(٦) المرجع السابق ، ص ١٩ · الترجمة العربية ، ص ١١٠ ·

العريش او قبرص كان مجرد الحصول على نقطة تجمع للشعب اليهودي تكون قريبة من فلسطين بغرض الانقضاض عليها فيما بعد(٧) · وقد فهم تشامبرلين مقاصد هرتزل تماما (٨) ولذلك قارن اكثر من مرة نوايا هرتزل بالنسبة لفلسطين « بغارة جيمسون » في افريقيا الجنوبية (٩) ، وهي الغارة التي كان الهدف منها الاستيلاء على جوهانزبورغ في عام ١٨٩٥ وضم اقليم الترانسفال الى الاتحاد الفدرالي الاقتصادي في تلك المنطقة تحت راية السيطرة البريطانية · وكان تشامبرلين متورطا بصورة شخصية في هذه الغارة على ما يبدو · اما بالنسبة لمشروع اوغندا (١٠) فقد اكد هرتزل لتشامبرلين موقفه من الموضوع بقوله :

« يجب ان تكون قاعدتنا في فلسطين او بقربها · فيما بعد يمكننا ان نستوطن في اوغندا ايضا اذ لدينا كتل من الناس المستعدين للهجرة » (١١)·

وعاد هرتزل الى ايضاح الموقف نفسه في رسالة بعثها الى « المؤسسة اليهودية للاستعمار » عام ١٩٠٣ حيث كتب :

« على طريقنا الى فلسطين ــ التي ما زلنا مستمرين في متابعتها بعزم وبكل طاقاتنا ــ لقد حققنا نتيجة مؤقتة · لقد عرضت علينا الحكومة البريطانية مستعمرة تتمتع بالحكم الذاتي في افريقيا الشرقية » (١٢) ·

في صيف ١٨٩٧ انعقد المؤتمر الصهيوني العالمي الاول في مدينة بازل (سويسرا) بدعوة من هرتزل وبرئاسته · وتم في هذا الاجتماع انشاء المنظمة الصهيونية العالمية وصندوق الائتمان اليهودي للاستعمار باعتباره

---

(٧) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ٤ ، ص ١٣٦٢ ·

(٨) المرجع السابق ، ص ١٤٧٣ · الترجمة العربية ، « يوميات هرتزل »، مركز الابحاث والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٨٠ ·

(٩) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ٤ ، ص ١٣٦٩ ·

(١٠) وهي تسمية غير دقيقة كان يطلقها الساسة البريطانيون على مناطق نفوذهم في افريقيا الشرقية ، اي كينيا في الوقت الحاضر ·

(١١) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ٤ ، ص ١٤٧٣ · الترجمة العربية ، « يوميات هرتزل » ، ص ٢٨٠ ·

(١٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦٣ · الترجمة العربية ، ص ٣٠٧ ·

الاداة المالية الرئيسية للمنظمة ، كما نوقشت فكرة انشاء الصندوق القومي اليهودي كي يكون الاداة الاساسية فـي شراء الاراضي الفلسطينية لحساب المنظمة الصهيونية (وصادق المؤتمر الصهيوني الثـاني على مشروع انشاء هذا الصندوق) • واختتم المؤتمر اعماله باعلان برنامج بازل الشهير الـــذي نص رسميا على نية الحركة الصهيونية في استعمـــار فلسطين واستيطانها واقامة الوطن اليهودي فيها بالاضافة الىتسخير الطاقات الممكنة جميعا وخلق كافة المؤسسات اللازمة لتحقيق هذا الهدف •

كان مؤتمر بازل نتيجة طبيعية لوصول الصهيونية اليهودية الـى مرحلة نضجها في الربع الاخير من القرن المــاضي ، اذ حدد لها برنامجا سياسيا استعماريا واضحا ، واعطاها الادوات التنظيمية والادارية والمالية لتنفيـذه كما جعلها قادرة على استيعاب التيارات القومية اليهودية المختلفة التي برزت في صفوف الطبقات الوسطى اليهودية في اوروبا الغربية والشرقية • بعبارة اخرى اطلق المؤتمـــر الصهيونية كحركة قومية منظمة وفاعلـــة في وسطها الاوروبي •

هنا لا بد من الاشارة الى الظروف التي احـــاطت بوصول الصهيونية اليهودية الى مرحلة النضج وأثرت تأثيرا كبيرا في انطلاقها كحركة سياسية واستعمارية منظمة ، ومن ثم الاشارة الى طبيعتها الرجعية تماما النابعة من نوعية المصالح الطبقية التي كانت موظفة في خدمتها •

نتيـجة للمذابـح الشهيرة الـتي وقعـت في روسيا القيصرية في مطلع ثمانينات القرن المـــاضي هاجرت اعداد كبيرة من اليهـــود الى العواصم الاوروبية الغربية والى المدن الامريكية في فترة شهدت تركيز سلطان الرأسمال الاحتكاري في هذه البلدان ، مع موجة جديدة مـــن التوسع الامبريالي ومـــن التناحر على تقاسم العالمغير الاوروبي بين حفنة منالدول الاوروبية الكبرى، بالاضافة الى تصعيدٍ كبير في حـــدة الصراع الطبقي ، واشتداد متزايد في المنافسة الاقتصادية والمعاشية بين فئات الطبقة الوسطى وشرائحها المختلفة• واقترنت هذه الظواهر باتساع نطـاق سيادة الايديولوجـــيات الشوفينـــية والعنصرية والمعادية للسامية في مجتمعات الدول الاوروبية (وامريكا) عموما وفي اوساط الطبقات الوسطى على وجه التخصيص • في خضم هذه التطورات لا بد من التنبه الى واقعتين مهمتين ومترابطتين : أولا ، مجيء انطلاق الحركة الصهيونية في فترة شهدت انتهاء المرحلة التحررية الليبرالية من تاريخ تطور

الحركة القومية في اوروبا الغربية انتهـاء كليا ، وحلول الشوفينية القومية والعنصرية محلها ، اذ تخلت البورجوازيات الحاكمـة عن كل ما يمت بصلة الى الدور التحرري الذي اقترن بكفاحها القومي السابق ، واخذت تدخل في مجابهة مفتوحة مع الطبقات البروليتارية فانتقلت الى مواقع رجعية تماما كما هو معروف • وعليه لم تكتف الحركة الصهيونية منـــذ انطلاقها بحمل كل الخصائص المميزة للمشروع الصهيوني الامبريالـي الكلاسيكي الذي ورثته والتصقت به كما رأينا ، بل حملت ايضا كل الخصائص المعروفة لهذه المرحلة الرجعية السوداء في تاريخ تطور الحركة القومية فـي اوروبا • ثانيا ، كون المهاجرين اليهود الى الغرب لم يجدوا هناك سوى الاستغلال الرأسمالي البشع والتمييز العنصري المتمادي ضدهم • هذا بالاضافة الى الانزعاج الشديد الذي ابدته البورجوازية اليهودية الموجودة هناك اصلا من قدوم اليهودي الشرقي الى مناطقها في وقت كانت تعاني بدورها (وبخـاصة فـي قطاعاتـها الوسطى والصغيرة) مـن التنافس الضاري القائم فـي المجتمـعات الرأسمالية ، ومـن انتشار معاداة السامية وممارساتها واحزابهـــا ، ومن انسحاق شرائحها الادنى تحت وطأة امتداد سيطرة الرأسمال الاحتكاري الى كافة مرافق الحياة وميادينها • لا غرابة اذن ان وجدت قطاعات متزايدة من البورجوازية اليهودية الوسطى ، بالتحالف مع امراء المال اليهود والطبقـــات الحاكمة في الدول الامبريالية الرئيسية ، في الحركـة الصهيونية حلا لمشكلاتها على مستويات متعددة : منها خلق السوق الوطنية الموحدة لمن يريـــد الخلاص من المنافسة القاسية مع بورجوازيات الدول « المضيفة » ، ومنهـا الخلاص من الجماهير اليهودية العمالية المفقرة عن طريق تهجيرها الى خـارج اوروبا كلها وعزلـها عن النضال البروليتاري الذي كانت مجلية فيه بشكل واضح ان كان ذلك فـي روسيا القيصرية او في البلدان الرأسمالية المتقدمة •

ولا ينفي هذا الواقع تردد البورجوازية اليهودية العليا اول الامر فـي دعم جانب معين من المشروع الصهيوني بصيغتـه الهرتزلية وهو العمل على اقامة الدولة اليهودية ، على الرغم من ان اقطابهـــا كانوا يمولون عمليات الاستعمار والتوطين في فلسطين وفي غيرها من الامـاكن • جاء هذا التردد نتيجة تخوفها من ان يؤثر مشروع انشاء الدولة اليهودية تأثيرا سلبيا علـى المكان الطبقي الممتاز الذي تشغله في المجتمعات الاوروبية • او ان يؤدي الى نقلها او جرها (لسبب من الاسباب او بصورة من الصور) من المواقع التـي تحتلها حاليا الى مواقع جديدة في الدولة المزمـــع انشاؤها • الا ان هذه

المخاوف لم تستمر طويلا اذ تبين للبورجوازية اليهودية العليا ان نجاح الحركة الصهيونية لن يؤثر في مكانتها على الاطلاق ولن يمس أيـــا من مصالحها الحيوية بسوء ، بل على العكس من ذلك سينطوي هـــذا النجاح على فوائد كبيرة يمكن ان تجنيها من نمو الحركة وتصاعدها . لذلـك لم يكن من بـــاب المصادفة على الاطلاق ان يصدر وعد بلفور المشهور على شكل رسالة موجهة من الحكومة البريطانية الى اللورد ليونـيل روثتشايلد كبـير اقطاب الرأسمال اليهودي المصرفي ، وان تتضمن الرسالة ـ الوعد تطمينا واضحا بـعدم تأثر مكانة اليهود السياسية والمدنية والحقوقية في البلدان التي يعيشون فيها نتيجة العمل على انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين . وما ان تبددت شكوك البورجوازية العليا حول تأثير الدولة اليهودية على وضعها الطبقي حتى رأت في الحركة الصهيونية حركتها هي ، فأعلن البارون ادمون دي روثتشايلد عـن اسفه لعدم تجاوبه منذ البداية مع فكرة هرتزل في العمل على اقامة الدولـة اليهودية ، وعن اقتناعه التام ببرنامج الحركـة الصهيونية (١٣) . وقد عبر البارون عن موقفه هذا قبل الحرب الامبريالية الاولى بفترة قصيرة بقوله :

« لولاي لما كان بامكان الصهيونية ان تنجـح ، الا انه لولا الصهيونية كان عملي سيتلقى ضربة مميتة » (١٤) .

لذلك اطلقت الحركة الصهيونية على البارون لقـب ابي « اليشوف » ، اي ابي عمليات الاستعمار والمستعمرات الصهيونية في فلسطين التي لم يكن بامكانها ان تستمر في الوجود لولا رعايته المالية .

بعد هذه الاشارة السريعة الى الظروف التاريخية التي احاطت بوصول الصهيونية اليهودية الى مرحلة النضج وانطلاقها من حيث هي حركة سياسية قومية واستعمارية منظمة ، لا بد من مناقشة تفصيلية ، نوعا مـا ، للمضمون الطبقي المغرق في الرجعية لهذه الحركة . وربما كانت افضل طريقة لاجراء هذه المناقشة هي دراسة الجبهـــات الاساسية التي عملت عليهـــا الحركة

---

(١٣) Halbrook, Stephen, «The Class Origins of Zionist Ideology», **Journal of Palestine Studies**, Beirut, Vol. II, No. 1, 1972, pp. 105-106.

(١٤) Morton, Fredrick, **The Rothschilds**, Atheneum, N.Y., 1962, p. 205.

انظر ايضا : يوري ايفانوف ، « احذروا الصهيونية » ، ص ٣٦ .

الصهيونية من اجل تنفيذ المشروع الصهيوني الكلاسيكي بعد ان استوعبته البورجوازية اليهودية ثم اعادت طرحه من مواقعها هي من اجل التحرك نحو تطبيقه الفعلي · عملت الحركة الصهيونية على ثلاث جبهات رئيسية : أ) جبهة القوى الطبقية الرجعية التي كانت تمثلها وتسعى لخدمتها وتحقيق اهدافها ، ب) جبهة القوى العنصرية والمعادية للسامية ، ج) جبهة المصالح الامبريالية والاستعمار الاستيطاني ، مع التذكير بأن هذا التقسيم ليس الا تقسيما منهجيا هدفه تسهيل البحث لا اكثر ·

الجبهة الطبقية :

ان الشهرة التي اكتسبتها البروليتاريا اليهودية في ميادين النضال الطبقي عموما وفي مجالات العمل الثوري للاطاحة بالنظام القيصري على وجه التحديد كانت تخيف الطبقات الحاكمة وترعب البورجوازية اليهودية بشكل خاص · اذ من المعروف انه لم تكن لامراء المال اليهود استثمارات مالية كبيرة في بلدان اوروبا الغربية فحسب بل في روسيا ايضا (هذا بالاضافة الى القروض الضخمة التي قدموها الى الحكم القيصري في اوائل العقد الاخير من القرن الماضي) لذلك كان من شأن اي تفاقم للمسألة اليهودية على الصعيد الجماهيري ، او أية مبادرة نضالية طبقية تهدد السلام الاجتماعي للطبقات الحاكمة ان يوقعا اضرارا بالغة بمصالح البورجوازية اليهودية العليا وبمصالح الشرائح الاجتماعية المرتبطة بها · لا غرابة اذن ان فهمت الحركة الصهيونية المسألة اليهودية على انها مجموع المشكلات المتولدة في وجه البورجوازية اليهودية (والطبقات الحاكمة)من جراء وجود اليهود الفقراء والمهاجرين والبروليتاريين في بلدان القارة الاوروبية واستمرارهم في حالة من الغليان الطبقي المتصاعد وانخراط اعداد كبيرة منهم في العمل الثوري النشيط · من هنا يقول هرتزل بتمركز المسألة اليهودية في صفوف الطبقات الوسطى (١٥) ويتوجه توجها كليا نحو خدمة مصالحها في نشاطه العملي وتفكيره· ومن هنا تشديده على طرح حلها من خلال مقومات القومية البورجوازية المعروفة (١٦) · لذلك كان الحل الصهيوني للمسألة

---

(١٥) « الدولة اليهودية » ، ص ١٦ ـ ١٧ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ص ١٠٧ ·

(١٦) المرجع السابق ، ص ١٥ · الترجمة العربية، ص ١٠٥ ·

اليهودية يعني ، من ضمن ما يعنيه ، تهدئة هـذا الغليان واخراج اكبـر عـدد ممكن من اليهود من حلبة الصراع الطبـقي وتحييدهم لصالح قـوى الثورة المضادة عن طريق تحويل انظارهم وجهودهم وطاقاتهم نحو هدف استعمـار فلسطين · وهذا كله مدون بدقة في كراس هرتـزل « الدولة اليهوديـة » كما ستبين المناقشة التالية ·

لقد اوضح هرتزل منذ البداية حرص الحركة الصهيونية الكامل علـى مصالح البورجوازية اليهوديـة وممتلكاتها واستثماراتها ، كمـا عبر عن تلاؤمها التام مع متطلبات الرأسمال الخاص واحتياجاتـه · وهذا ما يفسر اقدامه على وضع المسودات الاولى لكراسه الشهير على صورة رسالةموجهة الى اقطاب البورجوازيـة اليهودية العليا تحت عنـوان « خطاب الى آل روثتشايلد » (١٧) وذلك من اجل الاستخدام الخاص للاسرة · ويؤكـد هرتزل في عمله هذا :

« اريد ان امنع منذ البداية اي سوء فهم من البروز ، وخاصة الفكـرة الخاطئة القائلة بأن تحقيق مشروعي ـ هذا اذا تحقق ـ سيؤذي ولـو بصورة ضئيلة جدا الملكية الموجودة حاليا في حوزة اليهـود · لذلك سأشرح شرحا كاملا كل ما له صلة بحقوق الملكية » (١٨) ·

ثم يعبر في المقطع التالي عن موقف الحركة الصهيونية الاساسي مـن مؤسسة الملكية الخاصة البورجوازية بقوله :

« سنطور الملكية الخاصة ـ وهي الاساس الاقتصادي للاستقلال ـ بدون أية عوائق ونحترمها · وستتاح الفرصة فورا لاوائل عمالنا غير الماهرين كـي يشقوا طريقهم صعودا ليكونوا في عداد المالكين الخاصين » (١٩) ·

وبطبيعة الحال كانت البورجوازية اليهودية تأمل بتحقيق فوائد كبـيرة من تنفيذ المشروع الصهيوني على نطاق استعماري واسع تتعدى مجرد الحفاظ

....

(١٧) « الفكرة الصهيونية » (الاصل الانكليزي) ، ص ٢٠٢ · لويسوهن ، ص ٥٥ ·
(١٨) « الدولة اليهودية » ، ص ١٧ · الترجمة العربية، « الفكرة الصهيونية »، ص١٠٨ ·
(١٩) « الدولة اليهودية » ، ص ٤٧ ·

على مركزها الراهن وممتلكاتها الحاضرة · أما اهم هذه الفوائد الاضافية فكانت : أولا ، التهدئة الطبقية على الصعيد الاجتمـــاعي باخراج « عناصر الشعب »اليهودية من اوروبا كي تتمكن هذه البورجوازية من اخذ مكانهـــا المناسب وبشكل طبيعـــي وبدون ضوضاء في صفـــوف الطبقات الحاكمة الاوروبية · وقد اعطانا بنسكر التعبير الكلاسيكـــي عن هذا الهدف الطبقي للحركة بقوله :

« على اعظم رجالاتنـــا ـ من رجال المـــال والعلم والاعمال والدولة والاعلام ـ ان يتعاضدوا برأي واحد من أجل عمليـــة التوجيه نحو الغاية المشتركة · يجب ان تهدف هذه المؤسسة (أي المؤسسة القوميـــة اليهودية) بصورة رئيسية وخاصة الى ايجاد وطن آمن ومنيع لذلك **الفائض** مـــن اليهود الذين يعيشون كبروليتاريين في البلدان المختلفة ويشكلون عبئا على المواطنين الاصليين · بطبيعة الحال ان مسألة الهجرة الموحدة للشعب كله غير مطروحة على الاطلاق · باستطاعة العدد الصغير نسبيا من اليهود فـــي الغرب البقاء حيث هم في المستقبل ··· كذلك بامكان الاثرياء البقاء حتى في الاماكن التي لا يجري فيها تحمل اليهود بسهولة ··· ان هذا الفائض ـ الذي يشكل عبئا على نفسه وعلى غيره ـ هو الذي يجلب مصير الشر هذا الى الشعب كله · وقد آن الاوان لايجاد مأوى لهذا الفائض » (٢٠) ·

ثم جاء هرتزل بعده ليؤكد الهدف نفسه حيث كتب :

« سيفيد اليهود « المندمجون » اكثر من المواطنين المسيحيين من رحيل اليهود المؤمنين ، لانهم سيتخلصون بذلك من مزاحمة البروليتاريا اليهودية ـ وهي مزاحمة مزعجة ولا مفر منها ولا يمكن التنبؤ بنتائجها ـ التي يدفعهـــا الفقر والضغط السياسي من مكان الى آخر ومن ارض الى ارض · ستصبـــح هذه البروليتاريا العائمة ثابتة » (٢١) ·

بعبارة اخرى ان الاستعمار سياسة لا يمكـــن ان تحيد عنها الطبقات

---

(٢٠) « الفكرة الصهيونية » (الاصل الانكليزي) ، ص ١٩٦ · الترجمة العربية ، ص ٩٤ · التشديد في النص الاصلي ·

(٢١) « الدولة اليهودية » ، ص ١٨ · الترجمة العربيـــة ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٠٩ ·

الرأسمالية الحاكمة ان هي ارادت المحافظة على « سلمها الاجتماعـي » ومنع الصراع الطبقي من الانفجار لصالح البروليتاريا وثورتها · يؤكد هرتزل هذا الموقف الرجعي بقوله ما يلي عن الهجرة اليهودية الى المستعمرة الفلسطينية المبتغاة :

« فائدة اخرى من فوائدها - وربمـــا كانت هذه اعظم فوائدها على الاطلاق - تكمن في الانفراج الاجتماعي الـــذي سينتج عنها · سيتم تسكين الاستياء الاجتماعي خلال فترة الاعـــوام العشرين او اكثر التي ستشغلها الهجرة اليهوديـــة · على كل حال ستجري تهدئته خـــلال فترة الانتقال كلها » (٢٢) ·

ومن نافل القول انه لن تفيد البورجوازية اليهودية الكبيرة وحدها مـــن التهدئة الطبقية بل ستشعر بفوائدها ايضا الطبقات الحاكمة والبورجوازيـة المسيحية بشكل عام بحلول عناصرها محل العنـاصر اليهودية المنسحبة مما سيساعد على انهاء اللاسامية وتثبيت « السلم الاجتمـــاعي » او على حد تعبير هرتزل :

« لن يؤدي رحيل اليهود الى اية اضطرابات اقتصادية او أزمات او أي اضطهاد · في الواقع ستنتعش البلدان التي سيتركونها وتشهد مرحلة ازدهار جديدة · سيكون هناك هجرة داخلية للمواطنين المسيحيين الـى المواقع التي اخلاها اليهود · سيتدفق هذا التيار الخارج بصورة تدريجيـــة وبدون اي اضطراب وسضع بداية حركته نهاية للعداء للسامية » (٢٣) ·

ثانيا ، تخلص البورجوازية اليهوديـة في اوروبا الغربيـة من اليهود الآتين باعداد كبيرة من روسيا واوروبا الشرقية وما يخلقه هؤلاء من مشكلات اجتماعية ومنافسة شديدة تنعكس اثارها السلبية علـى الطبـقات الوسطى بسرعة · وكان هرتزل صريحا في تعبيره عن هذه الرغبة :

---

(٢٢) « الدولة اليهودية » ، ص ٧٤ ·

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٢٠ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١١٠ - ١١١ ·

« باستطاعة الكثيرين من المواطنين المسيحيين ـ من الذيـــن نسميهم اعداء السامية ـ مقاومة هجرة اليـهود الاجانب مقـاومة عنـيدة · لكن ليس بامكان المواطنين اليهود ان يفعلوا ذلـــك · على الرغم من ان هذه الهجرة تؤثر فيهم (أي المواطنين اليهود) اكثر بكثير ، وتظهر عليهم قبل غيرهم اثار المنافسة الحادة التي يأتي بها اشخاص يقومون باشغال مشابهة · يضاف الى ذلك قيام المهاجرين اما بادخل معداة السمية الى الاماكن التي لم تكن موجودة فيها او بتقويتها حيث هي موجودة » (٢٤) ·

ثالثا ، الفوائد والارباح التي كان الرأسمال اليهودي الكبير يتطلع الى تحقيقها من خلال تنفيذ مشروع الاستعمار الاستيطاني في فلسطين على نطاق واسع · ومن الملفت للانتباه بهذا الصدد تعبيـــر هرتزل ، في كراسه ، عن ضيقه بالاسلوب المتبـــع حتى ذلك الوقت في عمليـــات استعمار فلسطين واستيطانها (اسلوب التسلل كما يسميه) بسبب تنفيـــذه على نطاق ضيق وصغير · لذلك اقترح استبداله بالاستعمار الاستيطـــاني على نطاق واسع وبطريقة شاملة وبمساعدة الدول الامبريالية المعنية ، لان هناك من المشاريع ما لا يمكن ان ينجح الا' اذا قام عـلى النطـاق الـواسع والكبير (٢٥) · يقـول هرتزل عن عمليات الاستعمار التي تمت في فلسطين حتى ذلك الوقت :

« كانت هذه المحاولات مثيرة للاهتمام من حيث انهـــا مثلت على نطاق صغير البشائر العملية لفكرة الدولة اليهودية · يمكننا القول حتى انها كانت مفيدة بمعنى ان اخطاءها تؤدي الى جمع الخبـــرات اللازمة لتنفيذها بنجاح على نطاق كبير ··· اذ ان الامر الذي يكون تحقيقـه مستحيلا او غير عملي على النطاق الصغير قـــد لا يكون كذلك بالضرورة علـــى النطاق الكبير · فالمشروع الصغير قد يؤدي الى الخسارة في ظل الشروط نفسها التي تجعل المشروع الكبير مربحا » (٢٦) ·

بعبارة اخرى لقد وصلت الرأسمالية اليهودية بدورها ، وفي فترة بلوغ النظام الرأسمالي ذروته بشكل عام ، الى مرحلة التطلـع الى تنفيذ المشاريع

---

(٢٤) المرجع السابق ، ص ١٨ ـ ١٩ · الترجمة العربية ، ص ١٠٩ ·
(٢٥) المرجع السابق ، ص ١٩ · الترجمة العربية ، ص ١٠٩ ·
(٢٦) المرجع السابق · الترجمة العربية ، ص ١٠٩ ·

الاستعمارية الفرعية وعلى نطاق واسع ايضا · من هنا ازدراؤها ، الذي عبر عنه هرتزل ، « لاسلوب التسلل » القديم الذي لم يعد يتناسب مع نموها الحالي وطموحاتها الحاضرة ·

أما الاداة التنفيذية الرئيسية في عملية الاستعمار المربحة فستكون الشركة اليهودية التي اقترح كل من بنسكر (٢٧) وهرتزل انشاءها باشراف امراء المال اليهود ولمصلحتهم · يصف هرتزل طبيعة هذه الشركة على النحو التالي :

« ستحتذي الشركة اليهودية جزئيا نموذج شركات التملك العقارية الكبرى · بامكاننا ان نسميها ايضا الشركة اليهودية ذات الامتياز ، على الرغم من انها غير قادرة على ممارسة سلطات السيادة ولها مهمات غير المهمات الاستعمارية المحض· سيتم تأسيس الشركة اليهودية كشركة مساهمة بحماية انكلترا ، وتكون خاضعة للتشريع الانكليزي ومنظمة وفقا للقوانين الانكليزية » (٢٨) ·

وكأي شركة اخرى مشابهة سيكون هدفها الربح ، او على حد قول هرتزل :

« بالاضافة الى ذلك من المؤكد انه لن يطلب الى كبار رجال المال جمع مبلغ بهذه الضخامة بدافع الاحسان المحض ··· على العكس من ذلك ان هدفنا هو ان يعقد مؤسسو الشركة اليهودية والمساهمون فيها صفقة تجارية جيدة · وسيكون بامكانهم حساب احتمالات نجاحهم بصورة مسبقة » (٢٩)·

ومن الواضح ان الرأسمال اليهودي الكبير كان يطمح لان تكون له شركة استعمارية ناجحة وكبيرة تعمل في « الليفانت » ويكون مثالها الاعلى

---

(٢٧) « الفكرة الصهيونية » (الاصل الانكليزي) ، ص ١٩٧ · الترجمة العربية ، ص ٩٥ ·

(٢٨) « الدولة اليهودية » ، ص ٣٣ ·

(٢٩) المرجع السابق ، ص٥٠ ·

من حيث المردود ، كما يحدده هرتزل ، هو شركة قناة السويس (٣٠) ٠

أما اهم مصادر الربح التي كان الرأسمال اليهودي الكبير يتطلع الى استغلالها عبر الشركة اليهودية فقد حددها هرتزل على النحو التالي ٠

أ) تعاطي الشركة بكل ما يخلفه المهاجرون وراءهم من مصالح ومتاع، بالاضافة الى انشاء المشاريع التجارية في المستعمرة ٠ يقول هرتزل :

« ستعمل الشركة اليهودية على تصفية المصالح التي يتركها اليهود الراحلون وراءهم في ميدان الاعمال كما انها ستنظم التبادل والتجارة في البلد الجديد » (٣١) ٠

ويعني هذا النشاط ، من ضمن ما يعنيه ، قيام الشركة ببيع الممتلكات اليهودية المتروكة وتقديم بديل عنها للمهاجرين في فلسطين مما سيؤدي الى ارباح تجنيها الشركة :

« وسيكون هذا الانتقال مصدرا ضخما ومعترفا به للربح بالنسبة للشركة ٠٠٠ لانها ستكون قد اشترت الارض (في المستعمرة) بسعر منخفض جدا » (٣٢) ٠

ب) المضاربة ببيع الاراضي وشرائها بين اوروبا وفلسطين مما سيعود على الشركة بأرباح طائلة ، او على حد قول هرتزل :

« وستعود كل الارباح الهائلة الناتجة عن هذه المضاربات العقارية الى الشركة التي لا بد لها من ان تحصل على هذه العلاوة غير المحددة مقابل تحملها المجازفة التي ينطوي عليها المشروع » (٣٣) ٠

ج) استغلال الاحتياطي الكبير من اليد العاملة الرخيصة المتوفرة في يهود شرقي اوروبا : (٣٤)

....

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٣٥ ٠
(٣١) المرجع السابق ، ص٢٨ ٠ الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١١٨ ٠
(٣٢) المرجع السابق ، ص ٣٤ ٠
(٣٣) المرجع السابق ، ص ٣٥ ٠
(٣٤) المرجع السابق ٠

« وسيأتي عمالنا غير الماهرين أول الامر ··· من الاحتياطي الضخم في روسيا ورومانيا » (٣٥) ·

وسيتم تنظيم قوة العمل هذه على النحو التالي :

« وسيتم تنظيم كل هذه الامور تنظيما عسكريا مما يعني وجود الاوامر والترقيات ورواتب التقاعد » (٣٦) ·

كما سيتم تشغيلها ، في مراحل الاستعمار الاولى على اقل تعديل ، دون اجور وعلى اساس المقايضة :

« ذكرت سابقا ان الشركة لن تكون ملزمة بدفع أية اجور لهؤلاء العمال غير الماهرين ··· ستنهض الشركة بأعبائهم بشتى الطرق بحيث تصبح مسؤولة بصورة كلية عن اعالتهم » (٣٧) ·

وستلجأ الشركة اليهودية الى ما يسميه هرتزل بنظام « الاعانة من خلال العمل » (٣٨) في استغلالها لليد العاملة مما سيدر عليها ارباحا هائلة · يقول هرتزل حول النتائج التي سيوصل اليها الاتفاق من اجل تطبيق هذا النظام :

« لكن الشركة اليهودية لن تخسر الف مليون، بل ستحقق ارباحا هائلة نتيجة هذه النفقات » (٣٩) ·

د) التجارة والاعمال المربحة الاخرى التي ستنشأ وتزدهر في المستعمرة نتيجة لعمل المستوطنين وجهودهم في كسب خبزهم اليومي · او كما يقول هرتزل :

« اذا وجدت الرغبة الجدية والحقيقية بين اليهود لتحسين اوضاعهم

---

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٣٧ ·
(٣٦) المرجع السابق ·
(٣٧) المرجع السابق ·
(٣٨) المرجع السابق ، ص ٣٩ ·
(٣٩) المرجع السابق ، ص ٤٠ ·

واذا كانت الواسطة التي يجب خلقها ـ الشركـــــة اليهودية ـ قوية بما فيه الكفاية فستمتد التجارة بكثافة الى البلد الجديد » (٤٠) ٠

كما أنه :

« سيكون من الطبيعي ان تخلق التجارة نتيجة للعمل الذي سيجري نقله الى البلد الجديد » (٤١) ٠

وبالاضافة الى ذلك :

« ستخلق متطلبات الحياة الرفيعة التي سيدخلها موظفونا الذين يشغلون المراكز الممتازة سوقا افضل تناسب هذه المتطلبات ، وستستمر هذه السوق في تحسين نفسها » (٤٢) ٠

وعندئذ :

« سيدرك المتعهدون اليهود بسرعة طبيعة الامكانات التي سيوفرها البلد الجديد في مجال الاعمال » (٤٣) ٠

وبطبيعة الحال لن تقتصر الفوائد والارباح الناتجة عن تنفيذ المشروع الاستيطاني في فلسطين على الرأسمالية اليهودية وحدها بل ستفيد منه ايضا الدول الرأسمالية بشكل عام وذلك على النحو التالي :

« ستحصل الدول (الاوروبية) على فائدة اضافية تأخـذ شكل الزيادة الضخمة في صادراتها التجارية ، اذ بما ان المهـــاجرين اليهود « هناك » سيعتمدون لفترة طويلة في المستقبل على المنتجات الاوروبية سيضطرون بحكم الضرورة الى استيرادها من تلك الدول » (٤٤) ٠

رابعا ، استفادة شرائح البورجوازية الوسطى ذات التطلعات القومية

....

(٤٠) المرجع السابق ، ص ٣١ ٠
(٤١) المرجع السابق ، ص ٤٠ ٠
(٤٢) المرجع السابق ، ص ٤١ ٠
(٤٣) المرجع السابق ، ص ٤٠ ٠
(٤٤) المرجع السابق ، ص ٧٤ ٠

والصناعية من الاستعمار الاستيطاني لفلسطين في الافلات من حياة المنافسة القاسية التي كانت تتعرض لها بصورة متزايـــدة في الدول المتقدمة ، وفي الحصول على ارض « قومية » تابعة لها توجد فيها المواد الخام الزهيدة الثمن واليد العاملة الرخيصة ، بالاضافة الى الفرص الجيـــدة للاستثمار المربح ٠ ولقد عبر هرتزل في « الدولة اليهودية » عن مطامح هذه الفئات ومطالبهابقوة وبوضوح ٠ لذلك نراه يبدأ كراسه بالهجوم على الفكـرة الشائعة بين اليهود والتي تقول :

« اننا نعتمـــد من اجل بقائنا على الامم المضيفـــة والتي لولاها لمتنا جوعا » (٤٥) ٠

ويبني نقده لهذه الفكرة على اساس التبـــدل الكبير الذي طرأ على القاعدة المادية لحياة البورجوازية اليهودية معتبرا ان ضرورة وجود «مجتمع مضيف » ليتمكن اليهود من انتاج الثروة قد مضى عليها الزمن تماما٠ بعبارة اخرى كان هرتزل يعكس متطلبات الوعـــي المتبلور تدريجيا لدى فئات من البورجوازية اليهودية الوسطى بأن عصر الاعتماد التقليدي للحياة اليهودية على التعامل بالقيم التبادلية وعلى العيش فيمسام المجمتع المضيف قد انتهى، وبأن تحولها قد جعلها قادرة على انتاج القيم الاستعماليةمن حيث هي اساس مادي لانتاج ثروتها ولاستقلالها عـن « حيـاة المسام » ٠ وبما انه مـن شأن وضعها الخاص في « المجتمعات المضيفة » ان يكبتها فانها بحاجة للانتقال الى وضع اجتماعي وسياسي جديد يسمـــح لطاقاتها الانتاجية بالانطلاق دون عوائق ولقدراتها الاقتصادية بالنمو والتطور دون حدود ٠ لا غرابـة اذن ان وجدنا هرتزل يعلن بقوة :

«حتى لو كنا أمة من المتعهدين ـ كما تصورنا الاقوال التي تصل الى حدود السخف في مبالغاتها ـ فاننا لا نحتاج الى امة اخرى كي نعيش منها ٠ نحن لا نعتمد على تداول القيم القديمة فقط بل ننتج قيما جديدة ايضا » (٤٦) ٠

كما تفسر الاعتبارات التي اوردناها تأكيده المفعم بالثقة :

(٤٥) المرجع السابق ، ص ١٣ ٠ الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ٠

(٤٦) المرجع السابق ، ص ١٣ ٠ الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٠٤ ٠

« نعم ، نحن اقوياء بما فيه الكفاية لنشكل دولة وحتى دولة نموذجية · لدينا جميع الموارد البشرية والمادية اللازمة لهذا الغرض » (٤٧) ·

وبما ان البورجوازية اليهودية بشكل عام (باستثناء الرأسمال المصرفي الكبير) كانت في طريقها لان تصبح مثل اية بورجوازية اخرى كان من الطبيعي ان تتجه نحو طلب ما حققته البورجوازيات الاخرى : الدولة القومية الحديثة ذات السوق الوطنية الموحدة · لذلك لا غرابة ان اعلن هرتزل ما يلي في معرض مطالبته بانشاء الدولة اليهودية :

« ان خلق دولة جديدة ليس عملية سخيفة او مستحيلة · لقد شاهدناها تتم في يومنا هذا عند امم لم تكن الاكثرية في اية منها تنتمي الى الطبقة الوسطى ، بل كانت اكثر فقرا منا واقل ثقافة وبالتالي اضعف منا ايضا » (٤٨) ·

بعد تأكيد هرتزل على تخلص البورجوازية اليهودية المتوسطة من الحاجة الى « مجتمع مضيف » وانتقالها الى مرحلة القدرة على الاستقلال بنفسها انتاجيا وسياسيا الخ · يكشف في مناقشاته المطالب الحقيقية التي كانت تعمل هذه الطبقة على تحقيقها في سعيها الحثيث للحصول على المستعمرة ـ الدولة في فلسطين · وتتلخص اهم هذه المطالب في :

أ) توفير فرص الاستثمار المربح في سوق داخلية نامية تدريجيا تتصرف بها البورجوازية المعنية على هواها ودون ان ينافسها في الاستفادة منها احد او تنازعها في السيطرة عليها اية قوة غريبة ، ودون ان تحد من انطلاق طاقاتها المكبوتة حاليا اية حدود خارجية · يقول هرتزل في معرض كلامه عن التأثيرات التي سيتركها عمل المستوطنين الفقراء من « روسيا ورومانيا » على المستعمرة اليهودية :

« ··· سيخلق عملهم التجارة وستخلق التجارة الاسواق ، وستجذب الاسواق مستوطنين جدد ··· وسيرفع العمل المستثمر في الارض من قيمتها وسيدرك اليهود بسرعة ان مجالا جديدا ودائما يجري فتحه هنا امام تلك

---

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٢٧ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١١٧ ·
(٤٨) المرجع السابق ، ص ٢٨ · الترجمة العربية ، ص ١١٧ ·

الروح التجارية التي لم تقابل حتى الآن الا بالكراهية والذم » (٤٩) ٠

كما يشير الى ضرورة بناء الاجهزة اللازمة من اجل تسهيل نمو هــذه السوق وتطورها السريع :

« بكل تأكيد يجب تشجيع الروح التجارية عبر جميع الوسائل الممكنة ٠ وسيجري تشجيع انشاء الصناعات من خلال نظام حكيم للرسوم واستخدام المواد الخام الرخيصـــة وتأسيس مجلس لجمع الاحصاءات الصناعيـة ونشرها » (٥٠) ٠

فتصبح المستعمرة بذلك محطا لانظار كل بورجوازي يهودي يبحث عــن فرص للاستثمار او للتسلق الاجتماعي خارج الحدود التي يفرضها « المجتمع المضيف » :

« اما بالنسبة لليهود الذين يبحثون عـــن الفرص ويهربون في الوقت الحاضر من الاضطهاد في بلدهم الاصلي كي يكسبوا عيشهم في اراض غريبة فسيجتمعون في ارض تعد الى اقصى الحدود بكل مـا هو جميــل » (٥١) ٠

وبطبيعة الحال ستحتاج المستعمرة ـ الدولة الى اعـــداد كبيرة من المهنيين والفنيين ، المتوفرين بكثـــرة في صفوف البورجوازية المتوسطـــة ، والذين سيتجهون نحوها بسبب المنافسة الشديدة التي يعانون منها في « المجتمعات المضيفة » مما سيريحهم ويريح منافسيهم :

« سيجد المثقفون ـ ذوو المستوى العادي ـ الذيــن تنتجـهم طبقاتـنا الوسطى بهذه الوفرة مخرجا فوريا لانفسهم في تنظيماتنا الاولى ٠ سيشكلون الفنيين والضباط والاساتذة والموظفين والمحامين والاطباء الاوائـل عندنـا ٠ وبذلك ستستمر الحركة في تقدمها السريع دون مصاعب ٠٠٠ » (٥٢) ٠

ب) توفير اليد العاملة « الشرقية » الرخيصة القابلة للاستغلال السريع ولصب الربح الوفير في جيوب مستغليها ٠ لذلك يقترح هرتزل انشاء «وكالات مركزية للعمل » (٥٣) همها تأمين اليد العاملة المطلوبة من قبل اصحـــاب

....

(٤٩) المرجع السابق ، ص ٢٨ ٠ الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١١٨ ٠
(٥٠) المرجع السابق ، ص ٤٧ ٠
(٥١) المرجع السابق ، ص ٥٦ ٠
(٥٢) المرجع السابق ، ص ٧٨ ٠ الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٢٢ ٠
(٥٣) المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠

المشاريع والرأسماليين العاملين في المستعمرة · فأذا طالب احد هؤلاء بخمسمائة عامل مثلا ، عندئذ :

« بعد ذلك تقوم وكالة العمل بتجميع خمسمائة عامل من العمال غير الماهرين من كل مصدر ممكن وترسلهم على الفور لتنفيذ المشروع الزراعي او الصناعي · وبناء عليه سيجري استدعاء جماعات من العمال بصورة منتظمة من مكان الى آخر كما لو كانوا مجموعة من الجنود » (٥٤) ·

ج) توظيف الامكانات التقنية الحديثة جميعا في بناء السوق الوطنية التي تسعى البورجوازية اليهودية المتوسطة للحصول عليها · لذلك اكد هرتزل على ضرورة استخدام منجزات التكنيك الحديث كلها من اجل بناء الوطن القومي اليهودي · يقول :

« وبذلك علينا ان نستكشف البلد اليهودي الجديد ونستملكه مستعملين كل وسيلة من وسائل العالم الحديث » (٥٥) ·

ويتوسع في شرح اهمية هذه المسألة على النحو التالي :

« ويجب استخدام كل انجاز من الانجازات الاجتماعية والتقنية التي حققها عصرنا – والتي سيجري تحقيقها قبل ان يتم التنفيذ البطيء لخطتي – من اجل هذا الغرض · يجب استعمال كل اختراع قيم موجود او يمكن ان يوجد في المستقبل · بهذه الوسائل يمكن احتلال بلد من البلدان وتأسيس دولة بطرق لم يعرفها التاريخ من قبل واستنادا الى امكانات للنجاح لم ترد في السابق على الاطلاق » (٥٦) ·

رأينا ان البورجوازية اليهودية بشكل عام كانت تريد تحقيق التهدئة الطبقية وتوطيد السلم الاجتماعي في الدول الرأسمالية من جهة ، وجني الفوائد والارباح من جهة ثانية من خلال تنفيذ المشروع الصهيوني · ولتحقيق هذه الاهداف لم تر هذه الطبقة بديلا عن محاولة تهجير البروليتاريين واشباه البروليتاريين اليهود الى فلسطين واستخدامهم هناك في تحويل البلد الى

---

(٥٤) المرجع السابق ·
(٥٥) المرجع السابق ، ص ٦٧ ·
(٥٦) المرجع السابق ، ص ٦٩ ·

ارض « اللبن والعسل» التي كان الرأسمال اليهودي يحلم بالتفرد بها لنفسه. وحتى عملية التهجير نفسها كان يفترض فيهـــا ان تدر ربحا على الشركة اليهودية ، اذ يقول هرتزل حول موقف الشركة من المهاجرين :

« ومن ناحية اخرى ستقول الشركة لن ندفع لهم بل سنجعلـــهم يدفعــون لنا · لن نقدم لهم اكثر من دافع كي يرحلوا » (٥٧) ·

وقد عبر هرتزل عن هذه التوجهات في الصهيونية اليهودية بكل صراحة · كان يخاف منظر فقراء اليهود وهم يتحولون الى بروليتاريا ثورية ، ومنظـــر المثقفين اليهود وهم يعتنقون الاشتراكية باعداد متزايدة لما في ذلك من مخاطر على هيمنة البورجوازية اليهودية واستقرار سلطة الطبقات الحاكمة · لذلــك يقول هرتزل متذمرا من حالة المثقفين اليهود :

« ما زلنا مستمرين في انتاج عدد وافر من المثقفين ذوي المستوى العادي من الذين لا يجدون مخرجا لانفسهم ، مما يعرض مركزنا الاجتماعي للخطر ··· اليهود المثقفون الذين يجدون انفسهم دون موارد اخذوا الآن بالتحول بسرعة الى اشتراكيين » (٥٨) ·

كما يصف المعدمين الذين يدخلون جيش البروليتاريا بالعبارات التالية:

« عندما ننحدر نتحول الى بروليتاريا ثورية ، الى عرفاء كافــة الاحزاب الثورية » (٥٩) ·

لذلك اقترح هرتزل الخلاص من هـــذا المصدر البشري الذي تنبع منــه البروليتاريا الثورية والمثقفون الاشتراكيون عن طريق تأسيس حركة تهدف الى نقل هذه العناصر البشرية تدريجيا الى المستعمرة فـي فلسطين حيث يعملــون على اعدادها لاستقـــبال الرأسمال اليهودي ومشاريـــعه المربحة ، ومن ثــم على بناء دولة البورجوازية اليهودية الحديثة · يقــول هرتزل موضحا هذه النقطــة :

« سيرحل في اول الامر اكثر النــاس فقرا ليزرعــوا الارض · سيشقون

....

(٥٧) المرجع السابق ، ص ٥٨ ·
(٥٨) المرجع السابق ، ص ٢٣ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١١٣ ·
(٥٩) المرجع السابق ، ص ٢٦ · الترجمة العربية ، ص ١١٦ ·

الطرق ويشيدون الجسور والخطوط الحديدية والتجهيزات التلغرافية ويضبطون الانهار ويبنون المساكن لانفسهم ، كل ذلك وفقا لخطة موضوعة سلفا . سيخلق عملهم التجارة وستخلق التجارة الاسواق ... وعلى اعقاب المهاجرين الذين ينتمون الى ادنى درجات السلّم الاقتصادي سيأتي ببطء المهاجرون الذين ينتمون الى درجة اعلى من درجاته . سيذهب اولا اولئك الذين يعيشون حياة بائسة في الوقت الحاضر ، سيذهبون بقيادة المثقفين ـ ذوي المستوى العادي ـ الذين ننتجهم بهذا الشكل الوافر والذين يتعرضون للاضطهاد في كل مكان » (٦٠) .

وبعد ان يكون الفقراء والبائسون قد بذلوا حياتهم في وضع الاسس المطلوبة لبناء المستعمرة اليهودية ستتقدم عندئذ البورجوازية اليهودية للافادة من نتائج عملهم والتمتع بها . او على حد قول هرتزل :

« الآن ، ان شرائحنا الاكثر فقرا تكفي وحدها لتأسيس دولة . فهي تشكل مادة بشرية بمنتهى القوة من اجل الاستيلاء على اية ارض لان شيئا من عنصر اليأس لا بد منه في تكوين اي مشروع عظيم . واثناء قيام « رجالنا الذين يدفعهم اليأس » برفع قيمة الارض بوجودهم هناك . وبالعمل الذي يوظفونه فيها فانهم يقومون ايضا وفي الوقت ذاته بزيادة جاذبيتها كمكان للاستيطان بالنسبة لمن هم احسن حالا » (٦١) .

وستعم الفوائد على البورجوازية لا فارق ان كانت موجودة في اوروبا او في الدولة اليهودية . اذ سترتاح الاولى من منافسة المهاجرين وسيتحسن وضعها مع خفوت حدة التناقض الطبقي والعداء للسامية (٦٢) . اما الثانية فانها ستتمتع بممتلكاتها الثمينة ورأسمالها المستعاد وبحياة الرفاهية دون ان تحتاج لاخفاء ذلك ، كما كانت تضطر ان تفعل في « المجتمعات المضيفة » ، لانها ستكون عندئذ في دولة هي سيدتها . يعبر هرتزل عن هذا المطمح البورجوازي على النحو التالي :

« وسيكون باستطاعة اليهود الاغنياء المضطرين في الوقت الحاضر للتستر على نفائسهم واقامة ولائمهم الكئيبة خلف الستائر المغلقة ان يتمتعوا بممتلكاتهم « هناك » بسلام . فاذا تعاونوا على تنفيذ خطة الهجرة هذه سيعاد

---

(٦٠) المرجع السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ . الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١١٨ ، ١١٨ ـ ١١٩ .

(٦١) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(٦٢) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

الاعتبار للرأسمال هذا هناك بعد ان يكون قد ادى خدمة في تشجيع مشروع لا مثيل له » (٦٣) ·

كما يؤكد بان هذه البورجوازية لن تتأخر في العودة الى توظيف اموالها من جديد في البلدان الاوروبية التي تركتها من قبل (٦٤) ·

ورد معنا تخوف هرتزل من عملية هبوط شرائح اجتماعية يهودية الى اسفل السلم الطبقي لانها تتحول بسرعة الى جزء من البروليتاريا الثورية · لكن تنبغي الاشارة هنا الى ان هذه العملية ولدت ايضا ظاهرة ما يسمى بالصهيونية العمالية واحزابها في روسيا التي قامت بالدور الاهم في تاريخ الحركة الصهيونية وتطورها ، وبخاصة على ارض فلسطين · ان الشرائح البورجوازية الصغيرة الفاقدة لوسائل عيشها والمدفوعة الى دخول صفوف الطبقة العاملة لم تتحول كلها الى بروليتاريا ثورية بطبيعة الحال ، بل ظهرت من بينها فئات نادت بضرورة الجمع بين الصهيونية من ناحية والاشتراكية من ناحية ثانية معبرة بذلك عن موقفها الطبقي الملتبس والمتأرجح · وكان ن· سيركن ودافيد جوردون وبر بوروشوف من اعلام هذا الاتجاه وقادته ومنظريه· وتبلورت هذه الظاهرة في احزاب متعددة كان اشهرها حزب عمال صهيون الذي تحول فيما بعد الى حزب الماباي (حزب بن غوريون ودايان والهيمنة الامريكية)· لقد تعززت احزاب الصهيونية العمالية نوعا ما على أثر ثورة ١٩٠٥ في روسيا بسبب اليأس الذي اصاب اعدادا لا بأس بها من الشباب اليهودي الثوري ذي المنبت البورجوازي الصغير والمتأثر بالاتجاهات الاشتراكية والراديكالية السائدة يومها، مما دفعهم الى نشدان الخلاص في احزاب يهودية كانت تدعي القدرة على الجمع بين الصهيونية والاشتراكية · وليس هدفنا هنا تحليل ظاهرة الصهيونية العمالية ودراسة تطورها التفصيلي ، بل سنكتفي بالاشارة الى انها جاءت تلبية لحاجات ومتطلبات الفقراء واليائسين من اوساط البورجوازية الصغيرة ، اي الذين قال هرتزل انهم سيكونون اول الذاهبين الى فلسطين من اجل ارساء قواعد المستعمرة ـ الدولة فيها · وبهذه الصفة وقفت هذه التنظيمات الصهيونية موقفا معاديا من حركة البروليتاريا الثورية في روسيا ومن احزابها ، وبخاصة الحزب البلشفي الذي كان يعمل بدأب لا هوادة فيه لتوحيد صفوف الطبقة العاملة بما في ذلك البروليتاريا اليهودية

....

(٦٣) المرجع السابق ، ص ٤١ ·
(٦٤) المرجع السابق ، ص ٧٥ ·

في صراعها التحرري ضد المجتمع القيصري وسلطان طبقاته الحاكمـــة ٠ ونتيجة لارتباط احزاب الصهيونية العمالية بمشاريع الاستعمار والاستيطان عملت المنظمة الصهيونية العالمية كـــل ما في وسعها على مناصبة الشيوعية العداء وشق الوحدة البروليتارية في روسيا وتخريبها بالاضافة الى انتـزاع عناصر من صفوف الحركة العمالية بحيث تنفض يدها من العمل البروليتاري الثوري وتتحول الى ارستقراطية عماليـــة في المستعمرة تتمتـــع بامتيازات واضحة بالنسبة للبيئة الاجتماعية المحيطة بها ٠ وجدير بالذكر ان موجـــة الهجرة اليهودية الثانية الى فلسطين (١٩٠٥ ـ ١٩١٤) تألفت في غالبيتها من عناصر منتمية الى الصهيونية العمالية بلـــغ عددها حوالي ٣٥ الى ٤٠ الف نسمة ٠ وكان هرتزل قد عبر في كراسه عن عزم الصهيونية على خـلق مثل هذه الارستقراطية العمالية بتعداده للامتيازات التي سيتمتع بهـا العمال والفقراء المهاجرون الى فلسطين ، وبخاصة اتاحـــة الفرص امامهم للتسلق الطبقي مما سيضمن ولاءهم المستمر للمصالح الطبقية المسيطرة على بنـاء المستعمرة ـ الدولة ٠ لذلك يشدد هرتزل على عمليـــة التسلق الطبقي هذه بقوله :

« لن يرحل الا المتأكدون من تحسين حالـهم بذلـــك ، اي سيرحـل اول الامر اليائسون وسيتبعهم الفقراء ومن ثم الميسورون وفي آخر الكل سيأتـي الاثرياء ٠ سيرتفع الراحلون الاوائل بانفسهم الى مستوى اعلى مساو لمستوى الفئة التي سيأتي ممثلوها بعدهم ٠ بناء عليه سيشكل هذا الخروج صعودا طبقيا ايضا وفي وقت واحد » (٦٥) ٠

وفي معرض آخر يؤكد الفكرة نفسها على النحو التالي :

« ستتاح الفرصة حالا لاوائل عمالنا غير الماهرين ليشقوا طريقهم صعودا نحو الملكية الخاصة » (٦٦) ٠

لذلك لم تتردد الحركة الصهيونية في تأمين مستوى من الحياة للعمال اليهود في فلسطين شبيه بالمستوى الاوروبي في حين ان فلسطين تنتمي الى مستعمرات واشباه مستعمرات العالم الآسيوي ٠ لا غرابة اذن ان وقفت هـذه

(٦٥) المرجع السابق ، ص ٢٠ ٠ الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١١٠٠

(٦٦) المرجع السابق ، ص ٤٧ ٠

الارستقراطية العمالية موقفا معاديا من كل الانتفاضات والثورات التي نفذتها الجماهير العربية في فلسطين والمناطق المحيطة بها ضد السيطرة الاستعمارية على البلاد وانحازت باستمرار الى جانب المضطهد (بكسر الهاء) والمحتل الاجنبي ·

الجبهة العنصرية :

منذ البداية واجهت الحركة الصهيونية عقبة اساسية في تنفيذ برنامجها وهي ، بكل بساطة ، رفض الجماهير اليهودية الفقيرة والبروليتاريا في شرقي اوروبا وغربها ترك مواقعها في سبيل خدمة اهداف البورجوازية اليهودية والعمل على تحقيق مشروع استعماري موظف في خدمة مصالح الطبقات الحاكمة · لذلك نجد انه على الرغم من حركة الهجرة الواسعة التي تعرضت لها الجماهير اليهودية في اوروبا في اواخر القرن الماضي ومطلع القرن العشرين لم تستقطب فلسطين الا اعدادا ضئيلة جدا من المهاجرين على الرغم من كل الجهود التي بذلتها الحركة الصهيونية والاموال التي انفقها امراء المال اليهود لتشجيع الهجرة الى « الارض المقدسة » · ونجد تعبيرا واضحا ومبكرا نسبيا عن وعي الصهيونية اليهودية لمشكلة افتقادها لاية قاعدة شعبية عند موسى هس الذي اعتبر ان المشكلة الاساسية التي تواجهها الحركة القومية اليهودية تكمن في تحويل « التقدميين اليهود » و « الجماهير اليهودية » باتجاه قومي · كتب هس :

« ان المشكلة الرئيسية التي تواجهها الحركة القومية اليهودية ليست ذات طبيعة دينية بل تتمحور حول نقطة واحدة هي كيفية ايقاظ المشاعر الوطنية في قلوب اليهود التقدميين وكيفية تحرير الجماهير اليهودية عبر ذلك من الشكلية المميتة للروح » (٦٧) ·

كما اعترف بنسكر بهذا الواقع بصورة مباشرة تماما في قوله :

« الا ان العامل الاقوى الذي يؤثر في منع اليهود من السعي لاجل تحقيق وجود قومي مستقل هو عدم شعورهم بالحاجة لمثل هذا الوجود · وهم لا يكتفون بعدم تحسس الحاجة اليه بل يذهبون الى حد انكار حتى ان تكون

....

(٦٧) « روما والقدس » ، ص ١٤٤ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية »، ص٣٩ ·

مثل هذه الحاجة امرا معقولا » (٦٨) ٠

ويضيف بنسكر قائلا انـــه بنـــاء علـــى « غيـــاب هـــذه الرغبة في الاستقلال القومـــي » بيـــن الجماهيـــر اليهودية لا بـــــد لنـــا اذن (اي الصهيونيين) من العمل على اثارتها ومن « البرهنة على انه ينبغي **عليهم** (اي اليهود) **ان يصبحوا امة** »(٦٩)٠

لكن على الرغم من كل الجهود التي بذلتها الحركة الصهيونية لم تنجح في حل هذه المشكلة الاساسية بدليل ان الهجرة اليهوديـــة الى فلسطين لم تصبح ظاهرة ذات شأن الا بعد الاحتلال البريطاني (عندئذ بدأ الرأسمـــال اليهودي بالتوجه الى فلسطين) ٠ ومما ساعد في ازدياد ظاهرة الهجـــرة صعود الفاشية في اوروبا واستصدار الـــدول التي كان يهاجر اليها اليهود قوانين عنصرية (بموافقة المنظمة الصهيونية وتشجيعها) لمحاربة الهجـــرة اليهودية واغلاق الابواب في وجهها (وبخاصة بريطانيا والولايات المتحـــدة الامريكية) ٠ ولم يؤيد الصهيونية حتى البونديون المعروفون بنزعاتهم القومية الانشقاقية داخل صفوف الطبقة العاملة في روسيا ٠

الا ان ذلك لم يمنع هرتزل من البحث عن تلك القوة المطلوبـــة او تلك الرافعة اللازمة من اجل «اثارة هذه الرغبة عند الجماهير اليهودية»في الوجود القومي المستقل والسعي من اجل تحصيله ٠ ووجد هرتزل ضالته في معاداة السامية بكل ما تنطوي عليه من مواقف وممارسات عنصرية شوفينية مقيتة ٠ بعبارة اخرى نظر هرتزل الى معاداة السامية ليس من حيث هي قوة غاشمـــة ينبغي الكفاح ضدها واستئصال مسبباتها ، بل من حيث هي حـــل نموذجي لمشكلة الصهيونية كما طرحها كل من هس وبنسكر ، وذلك من حيث امـــكان استغلالها كمحرك اساسي فيتحويل الجماهير اليهودية باتجاه خدمة المصالح الطبقية والامبريالية الكامنة وراء تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين ٠

ذكرنا سابقا ان فترة بلوغ الرأسمالية اعلى مراحلهـــا شهدت ازدهارا كبيرا للايديولوجيات العنصرية والشوفينية والحركات المعادية للسامية في

(٦٨) « الفكرة الصهيونية » ، (الاصل الانكليزي) ، ص ١٨٣ ٠ الترجمة العربيـــة ، ص ٨٢ ٠

(٦٩) المرجع السابق ، ص ١٨٤ ٠ الترجمة العربيـــة ، ص ٨٣ ٠ التشديد في النص الاصلي ٠

اوساط الطبقات الوسطى بشكل عام ، وانتهاء كـــــل ما كان يمت بصلة الى المضامين التحررية القديمة للحركات القومية البورجوازية الاوروبية · وقد ادى انطلاق الصهيونية المنظمة في هذه الفترة الى اتصافها،من حيث هي حركة قومية بورجوازية ، بكافة خصائص المرحـــــلة · وقد سجل بنسكر الموقف العنصري الاساسي للحركة الصهيونية من مسألة معاداة السامية في التحليل التالي :

« الهلع المرضي من اليهود ★ هو شذوذ سيكولوجي · ومــن حيث هو شذوذ سيكولوجي فانه موروث ، ومن حيث هو داء انتقلت عدواه خلال الفي سنة فانه غير قابل للشفاء » (٧٠) ·

وبناء على ذلك توصل الى الاستنتاج القائل بأن اي عمل او كفاح ضد حركة معاداة السامية هو عبث ولا طائل منه ، او على حد قوله :

« بعد الانتهاء من تحليل الهلع المرضـــي من اليهـــود كنوع مـــــن الديمونوباثيا★الموروثة التي يختص بها الجنس البشري،وبعد تصوير معاداة السامية على انها ظاهرة تستند الى شذوذ موروث للعقل البشري علينا ان نستخلص النتيجة الهامة التالية : لا يمكن للصراع ضد هذه الكراهية الا ان يكون عبثا مثله في ذلك كمثل اي صراع ضد الميول الموروثة » (٧١) ·

بعبارة اخرى انطلقت الحركة الصهيونية من موقف العنصرية السائـدة وقتها والقائل بان معاداة السامية هي من خصائص الانسان الثابتة (مـــن خصائص الطبيعة البشرية غير اليهودية) والموجودة في كل مكان وزمـان وهي تطفو الى السطح حيثما تواجد اليهود مع غيرهم من الناس · ومـع ان هرتزل اشار في «الدولة اليهودية»(٧٢) الى العوامل الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية المرتبطة بمعاداة السامية وبخاصة في العصور الحديثة ، الا ان

★ Judeophobia

(٧٠) المرجع السابق ، ص ١٨٥ ·الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ٨٤ ·

(٧١) المرجع السابق ، ص ١٨٦ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ·

(٧٢) ص ١٥ ، ٢٥ · الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٠٥ ، ١١٥ ـ ١١٦ ·

★ Demonopathy نوع من الاضطراب العلقي او الجنون الذي يتمحور حـــول الشياطين والارواح الشريرة والخوف منها ·

تفكيره السياسي برمته ظل مبنيا على الفرضية العنصريــة القائلة بأن العداء للسامية موجود مع الانسان وجودا دائما واصيــــلا ، مما يستتبع النتيجتين الصهيونيتين المعروفتين : (أ) الامة اليهودية كانت موجودة دائما بسبب قدم العداء للسامية واستمراره ٠ (ب) لا حل للمسألة اليهودية الا بتجميع اليهود في وطنهم القومي في فلسطين لان استئصال معـــاداة السامية من الطبيعة البشرية (غير اليهودية) امر مستحيل ٠ لذلك اعتبر هرتزل معاداة السامية « القوة الدافعة » (٧٣) الاساسية التي ستمكن الحركة الصهيونية من تحقيق اهدافها ٠ لا غرابة اذن ان وصف موقفـــه من العداء للسامية على النحـــو التالي :

« اعتقد بانني افهم معاداة السامية التي تشكل في الواقع حركـة على مستوى عال من التعقيد ٠ انا انظر اليها من وجهة نظر يهوديـــة لكن دون اي خوف او كراهية » (٧٤) ٠

وستعمل هذه القوة عملها على صعيدين :

الصعيد الاول هو دفع الجماهير اليهودية نحو الهجرة ، او كما يقول في معرض كلامه عن حركة الهجرة الى فلسطين :

« لن تحتاج الحركة الى بذل جهود ضخمة من اجل دفعها الى الامام ٠ اذ سيقدم المعادون للسامية القوة الدافعة اللازمـــة لذلك ٠ ما عليهم الا ان يقوموا بما كانوا يقومون به في الماضي كي يولدوا الرغبة في الهجـــرة حيث لم تكن موجودة في السابق ويعززوها حيث كانت موجودة اصلا » (٧٥) ٠

اما الصعيد الثاني فهو رغبة الحكومات الشوفينية في البلدان الاوروبية في التخلص من فقراء اليهود في دولهم وسد ابواب الهجـــرة امام القادمين منهم بوحي من قناعاتها الرجعية والعنصرية والمعادية للسامية ، مما لن يترك لهؤلاء اليهود اي خيار غير الهجرة الى فلسطين ٠ لذلك توقع هرتزل النجاح لدعوته في البلدان الاكثر عراقـــة وشراسة في معـــاداة طبقاتها السائدة

....

(٧٣) «الدولة اليهودية» ، ص ٥٨ ٠

(٧٤) المرجع السابق ، ص ١٥ ٠ الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٠٥ ٠

(٧٥) المرجع السابق ، ص ٥٧ ٠

لليهود (٧٦) ٠ ولم يكن هرتزل مخطئا في توقعاته كما بينت الاحداث اللاحقة، اذ دخلت الحركة الصهيونية منذ انطلاقها في سلسلة طويلة من المعاملات والمبادلات والتحالفات المصلحية المشتركة مع اعتى القوى الرجعية المعادية للسامية ، واكثر السلطات تشددا في عدائها للثورة وفي اضطهادها للجماهير اليهودية ، كل ذلك بهدف وضع « القوة الدافعة » لمعاداة السامية في خدمة المخطط الصهيوني على كافة المستويات ٠ وسنأتي في الصفحات التالية على ذكر عدد من الامثلة الحية على هذا الواقع ٠

١) في السنوات الاولى من القرن العشرين عينت الحكومة البريطانية لجنة ملكية لدراسة مشكلة الهجرة اليهودية من اوروبا الشرقية الى انكلترا بغية استصدار قوانين ذات طابع عنصري واضح موجهة ضد اليهود خصيصا للحد من الهجرة ٠ وكانت الحركة المعادية للسامية في البلاد تعمل عملا حثيثا لصالح سن مثل هذه القوانين وتلوم اليهود ، كما جرت العادة ، على كل المشكلات الطبقية والاجتماعية جميعا التي كانت تعاني منها بريطانيا في تلك الفترة (٧٧) ٠ ولما استدعي هرتزل ، بصفته رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، للادلاء برأيه وشهادته امام اللجنة الملكية وجد في هذه المناسبة احدى فرصه المبكرة لاستخدام « القوة الدافعة » التي تكلم عنها في « الدولة اليهودية » لتوليد مزيد من الضغط على الجماهير اليهودية الوافدة الى بريطانيا والمقيمة فيها ٠ ومع انه كان حريصا امام اللجنة على عدم تأييد استصدار قوانين الحد من الهجرة الا انه انحاز في شهادته الى جانب القوى المعادية للسامية وطالبها بتحويل الجماهير اليهودية ، التي ضاق العنصريون ذرعا بها ، الى المستعمرة المطلوبة حيث يمكنها ان تؤسس وطنا لها هناك (٧٨) ٠ وكان هرتزل قد اجرى مناقشة مع اللورد روتشايلد (عضو اللجنة الملكية) حول موقع هذه المستعمرة (٧٩) (فلسطين او اية منطقة قريبة منها : سيناء ، قبرص)

(٧٦) المرجع السابق ، ص ١٧ ٠ الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ٠

(٧٧) انظر : خالدي ، ص ٩٧ ٠

(٧٨) المرجع السابق ، ص ٩٨ ٠

(٧٩) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ٤ ، ص ١٢٩٤ ٠ الترجمة العربية ، « يوميات هرتزل » ، ص ٢١٧ ٠

ومع رئيس اللجنة نفسه (٨٠) ، كما اوضح اللورد جوزيف تشامبرلين وزير المستعمرات بان اهتمام هرتزل بالمناطق القريبة من فلسطين لم يكن يهدف الا لاستخدامها من حيث هي نقاط تجمع من اجل الوصول الى فلسطين نفسها في الوقت المناسب كما ذكرنا (٨١)۰ وعلى الجانب الآخر فقد رحـــب كبار دعاة العداء للسامية بموقف هرتزل وخطط المنظمة الصهيونية۰على سبيل المثال،مع ان تشامبرلين كان معروفا بمواقفه العرقية الصريحة وبقيادته للحملة الداعية الى استصدار القوانين العنصرية الموجهة ضد المهاجرين اليهود الى بريطانيا فقد اظهر نفسه في البرلمان البريطاني من اكثر الناس حماسة للصهيونية حيث كال المديح لهرتزل واعلن اقتناعه الكامل بالحل الصهيوني المقترح للمسألـــة اليهودية (٨٢) ۰ كذلك كان رئيس الوزراء البريطاني يومها،اللورد آرثر بلفور الشهير ، نصيرا من النوع نفسه للصهيونية اذ كان عنصريا من الطـــراز الاول ، مؤمنا بتفوق الجنس الاوروبي على بقية الاجنـــاس البشريـــة (٨٣) ومعاديا للسامية بصورة صريحة حتى داخل البرلمان الانكليزي (٨٤) ، ممـا ادى الى اتهامه العلني في المؤتمر الصهيوني السابـــــع « بالعداء الصريح للسامية الموجه ضد الشعب اليهودي برمته » (٨٥) ۰ ان لائحة انصار الحركة الصهيونية من العنصريين والمعادين للسامية في الدوائر البريطانية الحاكمة طويلة ولا لزوم للدخول في تفصيلاتها هنا (٨٦) ۰ كانت هذه القوى الرجعية

---

(٨٠) المرجع السابق ۰ لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ١٢٠ ۰

(٨١) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج٤ ، ص ١٣٦٢ ، ١٤٧٣ ۰ الترجمة العربيـــة (جزئية) ، « يوميات هرتزل »، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ ۰

(٨٢) خالدي ، ص ١٠٢ ، ١١١ ۰

(٨٣) « تهويد فلسطين » ، ص ٦٠ ـ ٦١ ۰

(٨٤) خالدي ، ص ١١١ ۰

(٨٥) المرجع السابق ، ص ١١٢ ۰

(٨٦) من ابرز الاسماء واشهرها في هذه اللائحة : لويد جورج ، مارك سايكس ، لورد ميلز ، والجنرال جان سماتس من افريقيا الجنوبية ۰ وجدير بالذكر هنا ان اللورد ادوين مونتاغيو ، الوزير اليهودي الوحيد في الحكومة البريطانية اثناء مناقشات وعد بلفور ، كان معاديا للصهيونية وعارض اصدار الوعد وقام برفع مذكـرة الى الحكومة سجل فيها اتهامه للحكومة نفسها بمعاداة السامية بسبب تبنيها للحركـة الصهيونية ومطالبها ۰ وحملت مذكرته العنوان التالي : « حول عداء الحكومـــة (البريطانية) الحالية للسامية » ۰ (انظر خالدي ، ص ١٤٣) ۰

من صهيونية ومعادية للسامية ، تحاول حل الازمات والمشكلات الاجتماعيـة التي واجهتها المجتمعات الرأسمالية يومها بالاسلوب الاستعماري الكلاسيكي المعروف الذي اشار اليه لينين من خلال استشهاده بما كتبـه احد المفكرين البورجوازيين في تلك الفترة قائلا :

« ... ان التبرم والسخط والكراهية آخذة بالتراكم في بلدان الحضارة القديمة جميعا وهي في طريقها لان تصبح عنصرا مهددا للنظام العام. ينبغي تشغيل الطاقات التي يجري قذفها خارج الاقنية الطبقية المحددة في الخارج من اجل تجنب انفجار هنا في الداخل » (٨٧) .

من هنا المغزى الهام للنصيحة التـي قدمها هرتـزل الـى تشامبرليـن حـول الاسلـوب « السليـم » للتعامل مع المهاجرين اليهود حيث قال له : « فرغهم في مكان آخر » (٨٨) . ولم تحد الحـركة الصهيونية في كل تطوراتها اللاحقة عن هذا اللقاء المبدئي مع اعداء السامية حول « تفريغ » اليهود في المستعمرة الفلسطينية . على سبيل المثـال بين الزعيم الصهيوني اليهودي الامريكي لويس براندايس في مقابلة تمـت بينه وبين اللورد بلفور في باريس عام ١٩١٩ (٨٩) ان التزامه بالحركة الصهيونية نابع من قناعاته بانها تقدم الحل الصحيح للمشكلات الاجتماعية والطبقيـة الناتجة عن اوضاع فقراء اليهود وبروليتارييهم في الولايات المتحدة ، وعـن هجرتهم المستمرة الى البلاد (٩٠) . وهنا عبر بلفور (وهو المعروف بمعاداته للسامية) عن موافقته التامة على شرح براندايس واضاف مؤكدا :

« طبعا هذه هي الاسباب التي تجعل منك ومني صهيونيين غيورين الى هذا الحد » (٩١) .

اكثر فروع المنظمة الصهيونية تنظيما ونشاطا و ولاء هو الاتحاد الصهيوني في افريقيا الجنوبية . يقول المؤرخ الصهيوني والتر لاكور حول هذا الموضوع :

(٨٧) « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » ، القسم السادس .
(٨٨) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ٤ ، ص ١٤٧٥ .
(٨٩) خالدي ، ص ١٩٥ ـ ١٩٩ .
(٩٠) راجع ايضا : « الفكرة الصهيونية » (الاصل الانكليزي) ، ص ٨٥ ، ٨٦ .
(٩١) خالدي ، ص ١٩٦ .

« كانت الصهيونية في جنوب افريقيا فريدة من نوعها من حيث انها لم تكن تواجه اية مقاومة في اوساط الجالية (اليهودية) هناك باستثناء مجموعة صغيرة من البونديين ، وكان الافريقيون الجنوبيون من اكثر الانصار ولاء لهرتزل ومن بعده لولفسوهن★ ... (الذي) لقي استقبالا ملكيا لدى زيارته (لجنوب افريقيا) في ١٩٠٦ . ولم يكن يتملق احدا عندما اخبر المستمعين اليه ان الاتحاد الصهيوني في جنوب افريقيا هو افضل الاتحادات الصهيونية تنظيما ... لقد ظل هذا البلد دوما احد الدعائم الاساسية للصهيونية العالمية » (٩٢) .

٢) في محاولة لعقد صفقة بين المنظمة الصهيونية والحكم القيصري في روسيا يفيد منها الطرفان قام هرتزل عام ١٩٠٣ بمقابلة وزير الداخلية القيصري المرعب فون بليهفه والمشهور بتنظيم المذابح ضد اليهود في كيشينيف عام ١٩٠٢ . وكان هرتزل قد بعث قبل ذلك برسالة الى بليهفه طلب فيها مقابلة القيصر لاسباب شرحها هو بنفسه. كتب هرتزل في معرض كلامه عن اوضاع اليهود في روسيا :

« ... لقد بدأ الشباب يصغون الى تعاليم الثورة . فتيان فيسن الخامسة عشرة والسادسة عشرة ممن لا يفقهون شيئا عن الجنون الثوري الذي يبشرونهم به اخذوا يسمحون لانفسهم الوقوع في أضاليل نظريات العنف. من المنجزات الكبرى التي حققتها الحركة الصهيونية في السنوات الاخيرة اعطاء هؤلاء التعساء مثالا اعلى يواسيهم ويعيد الطمأنينة الى نفوسهم . ولا اظن ان هذا الامر قد فات على معاليكم . في الوقت الحاضر يخبرني اشخاص جديون تماما بانه توجد طريقة لتهدئة المزاج اليائس بين فقراء شعبنا بصورة فورية وهي تكرم جلالة القيصر بالسماح لي بمقابلته . وسيكون لهذا الامر تأثير فوري وملطّف حتى لو لم تتسرب كلمة واحدة الى الخارج حول مجرى المحادثة » (٩٣) .

★ رئيس المنظمة الصهيونية العالمية .

(٩٢) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ١٦١ .

(٩٣)« يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ٤ ، ص ١٤٩٣ ـ ١٤٩٤ . الترجمة العربية ، « يوميات هرتزل » ، ص ٤٩٧ .

ولـــم يكن كـــلام هرتزل هـــذا مجرد مجاملة تكتيكية تهدف كسب رضاء بليهفه وعطفه من اجل الوصول الى مقابلة القيصر ، بل كان يعبر عن الاستراتيجية الثابتة للحركة الصهيونية في التوجه الى كل القوى الرجعيـة المضادة للثورة من اجل التعاون معها على اضعاف احتمالات الثورة بين صفوف الجماهير اليهودية . لذلك اعلن هرتزل في المؤتمر الصهيوني الاول في معرض كلامه عن علاقة الحكومة القيصرية بالجماهير اليهودية :

« لكن اذا اخذت الحكومة موقفا محايدا سيجد اليهود انفسهم دون ايـة حماية من جانب الحكم القائم فيندفعون للارتماء في احضان الثوريين» (٩٤).

من هنا يستمد لقاء هرتزل وبليهفه الجانب الاول من اهميته باعتبار ان الحركة الصهيونية تطرح نفسها امام السلطات الرجعيـــة على انها القوة الوحيدة القادرة على منع الجماهير اليهودية من الوقوع في احضان الحركات الثورية وعلى ابقائها في عهدة السلطات القيصرية الى ان يتم للحركـة تنفيذ برنامجها الاستعماري . ان « الصهيونية هي صانعة السلام » (٩٥) على حد قول هرتزل ، بين اعداء السامية الحاكمين والجماهير اليهودية . اما الجانب الثاني من اهمية اللقاء فيكمن في التفاهم الضمني بين الطرفين بأنه مـا لم تتعاون القوى الرجعية الحاكمة مع الحركة الصهيونية فستواجه الاولى متاعب مضاعفة بسبب المادة الثورية المتفجـــرة التي تشكلها الجماهير اليهوديـة الفقيرة . لقد اوضح هرتزل هذه النقطة في مقـال نشره عام ١٨٩٧ عـــلى النحو التالي :

« سيقوم اليهود بدور المادة الثورية المتفجرة طالما بقيت المسألة اليهودية دون حل وفقا للخطوط التي اقترحناها » (٩٦) .

اي ان تنفيذ برنامج الحركة الصهيونية لم يكن الا جـــزءا من خشبة الخلاص التي كانت تتمسك بها الطبقات الحاكمة في وجه التيارات البروليتارية الثورية التي كانت تعصف ببلدان القارة الاوروبيـــة (والولايـــات المتحدة الامريكية) يومها .

---

(٩٤) الفكرة الصهيونية ، (الاصل الانجليزي) ، ص٢٢٩ . الترجمة العربية ، ص١٢٧.

(٩٥) المرجع السابق .

(٩٦) Adler, Joseph, **The Herzl Paradox**, Hadrian Press and Herzl Press, New York, 1962, p. 33.

ومع ان هرتزل لم يقابل القيصر الا ان التفاهم تم (بين رئيس المنظمة الصهيونية واكثر الانظمة رجعية ومعاداة لليهود في اوروبا) ، من خلال بلهيفه ، على تحقيق التهدئة الطبقية وابعاد الشباب اليهودي عن الحركة الثورية (كما جاء في رسالة هرتزل) عن طريق تنفيذ البرنامج الصهيوني الداعي الى « تفريغ » الجماهير اليهودية في المستعمرة الفلسطينية · قال بليهفه لهرتزل حول هذا الموضوع :

« لقد ساءت الحالة حتى اكثر من المتوقع في الآونة الآخيرة لان اليهود اخذوا بالانضمام الى الاحزاب الثورية · كنا نعطف على حركتكم طالما انها كانت تعمل من اجل الهجرة · ولا داعي لان تبرر الحركة امامي لانك تكون عندئذ كمن يبشر بها امام شخص اهتدى اصلا » (٩٧) ·

وفي محادثة اخرى مع هرتزل اكد بلهيفه موقف الدعم هذا نحو الحركة الصهيونية وبين ان الحكم القيصري لا يريد التخلص الا من الاكثرية اليهودية وليس من الاغنياء ، على حد قوله :

« ··· بناء عليه فان اقامة دولة يهودية مستقلة قادرة على استيعاب بضعة ملايين من اليهود يناسبنا اكثر من اي شيء آخر · الا ان هذا لا يعني اننا نريد خسارة جميع اليهود التابعين لنا ··· نريد التخلص من ضعاف العقول والذين لا يملكون شيئا » (٩٨) ·

وعلى اساس هذا التفاهم المضاد للثورة بين الطرف الصهيوني والطرف المعادي للسامية تقدم هرتزل بالمطالب التالية الى الحكم القيصري (٩٩) :

أ) تدخل القيصر الشخصي لدى الباب العالي من اجل الحصول على براءة لاستعمار فلسطين التي كان هرتزل يسعى للوصول اليها ، ب) تقديم

---

(٩٧) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ٤ ، ص ١٥٢٥ · الترجمة العربية ، « يوميات هرتزل » ص ٤٩٨ ·

(٩٨) المرجع السابق ، ص ١٥٣٥ · الترجمة العربية ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ · (انظر ايضا ج ٤ ، ص ١٥٢٣) ·

(٩٩) المرجع السابق ، ص ١٥٢٠ ـ ١٥٢١ · الترجمة العربية ، « يوميات هرتزل » ، ص ٢٩٥ ·

الاموال من جانب الحكومة القيصرية للمساعـــدة على الهجـــرة اليهودية وتشجيعها ، (ج) اجراءات من قبل الحكومة القيصرية «لتسهيل تنظيم جمعيات صهيونية روسية موالية وفقا لبرنامـــج بازل » ، (د) موافقة السلطات على انشاء فرع روسي لصندوق الائتمان اليهودي للاستعمار (١٠٠) ٠

وقد وافق بليهفه على مطـــالب هرتزل (١٠١) ووعده باثارة موضوع التدخل لدى الباب العالي مع القيصر مجددا :

« اخيرا اخبرني بليهفه بانه سيثير الموضوع مرة ثانية مع القيصر ويلح عليه بقوة ٠ ولم تترك نظراته ولهجته اي مجال للشك من انه جاد حقـــا في المسألة » (١٠٢) ٠

كذلك توسط بلهيفه لدى وزير المال ويته (وهو مـــن مشاهير معـــادي السامية ايضا) الذي قابل هرتزل و وافق على السماح بتأسيس فرع روسي لصندوق الائتمان اليهودي (١٠٣) كمساهمة من طرفه في مساعدة الحـــركة الصهيونية ٠ بالاضافة الى ذلك تفاهم هرتزل مع بلهيفه حول ما سيقوله الاول في المؤتمر الصهيوني السادس الذي كان سينعقـــد في بازل بعد انتهاء زيارة هرتزل لروسيا (١٠٤) ٠ في الواقع اوضح بليهفـــه لزائره ان الاتجاه الذي سيسير فيه المؤتمر سيؤثر كثيرا على موقف الحكومة القيصرية مـــن الحركة الصهيونية ومن تنفيذ المطالب التي تقدمت بها (١٠٥) ٠ اي كان بليهفه يريد من هرتزل السيطرة على المؤتمر بحيث يبعد النقاش عن موضوع المذابح التي وقعت ضد اليهود في العام السابق (١٩٠٢) في كيشينيف والتي كان الوزير متورطا في الاعداد لها وتنفيذها ٠ وظل هرتزل عند حسن ظن الوزير اذ اعلن في المؤتمر السادس ان الحكومة القيصرية لن تضع اية عراقيـــل في وجه

---

(١٠٠) المرجع السابق ، ص ١٥٢٦ ٠

(١٠١) المرجع السابق ٠ انظر ايضا « يوميات هرتزل » ، ص ٤٩٨ ٠

(١٠٢) المرجع السابق ، ص ١٥٣٩ ٠

(١٠٣) المرجع السابق ، ص ١٥٣١ ـ ١٥٣٢ ٠

(١٠٤) المرجع السابق ، ص ١٥٢٦ ٠

(١٠٥) المرجع السابق ، ص ١٥٣٩ ، ١٥٤٠ ٠

الحركة الصهيونية طالما بقيت نشاطاتها ضمن نطاق الشرعية والقانون(١٠٦). ثم كتب رسالة الى بليهفه (نزولا عند رغبة الاخير) وافاه فيها بأخبار المؤتمر. وقد جاء في الرسالة :

« انسجاما مع سماحكم لي بالعودة الى المسألة الصهيونية بعد مؤتمر بازل يشرفني ان اضع بين يدي معاليكم الوصف التالي : كانت ادارة المؤتمر عملية مجهدة اكثر من اي وقت مضى اذ كانت النفوس منفعلة بشكل غير عادي بسبب الاحداث المؤلمة ★ . لكن على الرغم من ذلك نجحت في المحافظة على النظام واعادة فرض الهدوء . ولا شك انه دون الرسالة التي تكرمتم بارسالها لي في ١٢ آب (اغسطس) لما كان باستطاعتي ان احقق ذلك . تمكنت من اخماد كل نقاش عن طريق اعلان محتويات رسالتكم » (١٠٧) .

بالاضافة الى ذلك اكد هرتزل في رسالته مجددا الدور الهام الذي تقوم به الحركة الصهيونية في استيعاب العناصر اليهودية المتذمرة والراديكالية وابعادها عن النضال الطبقي والاحزاب الثورية مما يستدعي دعم الحركة من قبل السلطات القيصرية . كتب هرتزل الى بليهفة ما يلي حول الموضوع :

«... اذا تم استيطان الشعب اليهودي في فلسطين ستجد العناصر الراديكالية نفسها مرغمة على المشاركة في الحركة ... ان احباط هذه الآمال (الصهيونية) سيقلب الوضع بكامله رأسا على عقب ... وستكسب الاحزاب الثورية كل ما تخسره الصهيونية التي امثلها انا واصدقائي»(١٠٨).

٣) بعد انتصار الثورة البروليتارية في روسيا وانتهاء الحرب الامبريالية الاولى اخذت القوى الفاشية (المعادية للطبقات العاملة وللسامية على حد سواء) تصعد وتقوى في صفوف الطبقات البورجوازية ، وبخاصة في بلدان اوروبا الوسطى والشرقية. ومرة اخرى توجهت القيادات الصهيونية نحو القوى الفاشية من اجل عقد الصفقات والتعاون معها لما فيه مصلحة الطرفين . اي بما ان الفاشية اصبحت هي المجسدة الفعلية للعداء للسامية

(١٠٦) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ١٢٥ .
★ اي مذابح العام السابق في كيشينيف .
(١٠٧) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ٤ ، ص ١٥٥٠ – ١٥٥١ .
(١٠٨) المرجع السابق ، ص ١٥٥٢ .

كان لا بد من التعاون معها باعتبار ان معاداة السامية هي « القوة الدافعة » التي لا يمكن للقاطرة الصهيونية ان تتحرك دونها ٠لذلك نجد الزعيم الصهيوني فلاديمير جابوتنسكي ، عضو الهيئة القيادية العليا للمنظمة الصهيونية العالمية يومها ، يدخل في مفاوضات عام ١٩٢١ مع زمرة سيمون بيتليورا التي كانت الثورة البلشفية قد طردتها من اوكرانيا ، حول انشاء قوة مسلحة يهودية ملحقة بجيوش بيتليورا البيضاء ٠ كانت هذه الجيوش محتشدة على حدود الاتحاد السوفياتي في بولونيا ، وتمولها بريطانيا وتعدها لغزو الاراضي السوفياتية في ربيع عام ١٩٢٢ (١٠٩) كجزء من حرب الدول الرأسمالية ضد ثورة اكتوبر ٠ وتوصل جابوتنسكي الى عقد اتفاقية مع مكسيم سلافينسكي ، الوزير في حكومة بيتليورا المطرودة،تنص على ان تقوم القوة اليهودية المسلحة بالمحافظة على أمن المواطنين اليهود وحمايتهم في المناطق التي ستقع تحت سيطرة الجيوش البيضاء بعد بدء الغزو (١١٠) ٠ ولكن من كان يتهدد أمن السكان اليهود ويجعل من الضروري تشكيل فرق مسلحة لحمايتهم؟ لا احد سوى بيتليورا وجيوشه البيضاء طبعا ، اذ كان مسؤولا هو وحكومته وجيوشه عن سلسلة رهيبة من المذابح التي وقعت ضد اليهود في اوكرانيا بين ١٩١٧ و ١٩٢٠ (قدر عددها بـ ٨٩٧ مذبحة) عندما كانت البلد كلها واقعة تحت سيطرته (١١١) ٠ بعبارة اخرى اراد جابوتنسكي الحاق فرق حماية يهودية مسلحة بجيوش كان يعلم علم اليقين بأنها سترتكب المذابح ضد اليهود، مهما كانت الظروف ، بعد غزوها لاراضي الاتحاد السوفياتي حيث وضعت حكومة الثورة حدا نهائيا لمثل هذه الاعمال الارهابية واصدرت القوانين التي تحرم معاداة السامية وتعطي اليهود كافة الحقوق التي كانوا محرومين منها كمواطنين ٠ أي مرة أخرى نجد ان التعاون الصهيوني مع القوى المعادية للسامية كان موجها بصورة رئيسية ضد الثورة الاشتراكية ، وبخاصة في تلك الفترة التي شهدت صعود موجة رجعية عارمة في صفوف الطبقات

---

(١٠٩) Schechtman, Joseph, **Rebel and Statesman, The Vladimir Jabotinsky Story: The Early Years.** Thomas Yoseloff, New York, 1956, p. 400.

(١١٠) المرجع السابق ، ص ٤٠٢ ٠

(١١١) المرجع السابق ، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ ٠

الوسطى في الدول الرأسمالية بعد الانتصار النهـائي لثورة أوكتوبر على اعدائها في الداخل والخارج وبسببه · وقد عبر جابوتنسكي عن هذا التوجه الفاشي العام حين كتب عام ١٩٢٧ :

«انا لا اعتبر ان اقامة نظام اشتراكي هو أمـر مرغوب فيه او محتم او حتى ممكن عمليا ··· فالانسانية ليست متجهة نحو الاشتراكية بل انها تسير في الاتجاه المعاكس » (١١٢) ·

كان جابوتنسكي يعبر عن مصالح القطاعات الاكثر يمينية ورجعية في صفوف البورجوازية اليهودية وعن مواقفها بقوله ان الانسانية تسير بالاتجاه المعاكس للاشتراكية ، اي نحو الفاشية · وكانت هـذه القطاعات اخذت تفرز جناحا فاشيا (تحول فيما بعد الى حزب مستقل)في المنظمة الصهيونية بزعامة جابوتنسكي نفسه · اي ان صـلات الصهيونية بالقوى الرجعيـة والمعادية للساميـة تعـدت مستـوى التعـاون الـى مستـوى انتـاج البرجوازيـة اليهوديـة لحزبهـا الفاشـي الخاص باعتبـار انها لم تكن قادرة على المشاركة في الحركـات الفاشية للطبقات الوسطى المسيحية بشكل عام بسبب تشدد الاخيرة في عنصريتها · لذلك نجد مجـلة حزب جابوتنسكي في فلسطين تقف موقفـا متعاطفا ومؤيدا من القومية ـ الاشتراكية الالمانيـة التي كان ينادي بها هتلر باستثناء جانبهـا المعادي للسامية (١١٣) ، كما تعد هتلر منقذ المانيا ، والحركة الفاشية منقذة اوروبا من البرلمانات العاجزة ومن الشيوعية والحرب الاهلية(١١٤)·ونظر بعض كبار رجالات الحزب الى موسوليني على انه « اعظـم نابغة سياسي في القرن العشرين » وطلب احدهم الى جابوتنسكي نفسه بأن يكون « الدوتشي »(١١٥) بديلا من قائد الحزب ، كما اراد اخرون ان يجعلوا منه الفوهرر (١١٦) · ولم

(١١٢) Schechtman, Joseph, **Fighter and Prophet, The Vladimir Jabotinsky Story: The Last Years,** Thomas Yoseloff, New York, 1961, p. 235.

(١١٣) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ ·

(١١٤) المرجع السابق ، ص ٣٦٢ ·

(١١٥) المرجع السابق ·

(١١٦) المرجع السابق ، ص ٣٦١ ·

تنقص هذا الحزب الصهيوني ولا حتى « القمصان الرمـــادية » و « قوات الزوبعة » (١١٧) التي اشتهرت بها الحركـات والاحزاب الفاشية ، بالاضافة الى عنصريته الخـــاصة التي تلائمه · يصف جابوتنسكـــي « العنصرية السيكولوجية » التي يقوم عليها حزبه بقوله :

« ··· في المقام الاول « العنصرية السيكولوجية » هـي عقلية موروثة محددة ولا يمكن نقلها الى من لا يملكونهـــا اصلا · بناء عليه تكمن رسالة الحركة التحريفية (اي حزب جابوتنسكي) في البحث عن الاشخاص الذين ينتمون الى « عنصرها » وفي تنظيمهم للقيام بانجازات بناءة · ان رسالتها لا تكمن في هدر طاقاتها على محاولات « لغزو » الحشد الصهيوني الذي يحمل وجهة نظر مغايرة » (١١٨) ·

وبطبيعة الحال كان موقف جابوتنسكي من الطبقة العاملة والاشتراكية منسجما مع التكوين الطبقي لحزبه ، كما هو واضح من قوله :

« ··· مع ان برنامجنا يغري عمالا كثيرين اغراء قويا للقبول به فان مجالنا الحقيقي هو الطبقة الوسطى · لن نستطيع ابدا ان نصل الى تفاهـم مع اشخاص يحملـــون مثالا اعلى اخـــر (الاشتراكية) بالاضافة الـــى الصهيونية » (١١٩) ·

وبالاضافة الى دعوته لتحريم الاضرابات العمالية واقامة التوازن بيـن الطبقات (١٢٠)كان جابوتنسكي يطرح البورجوازية كقوة رائدة وحاملة لراية التقدم امام الانسانية بديلا من البروليتاريا ويدعوها الى تحمل مسؤولياتها التاريخية والتخلص من عقدة النقص التي تحكمت بها نتيجة المجابهة مـــع الطبقة العاملة (١٢١) · على سبيل المثال يقول في تمجيد البورجوازية :

....

(١١٧) Zukerman, William, **The Jew in Revolt**, Martin Secker and Warburg Ltd., London, 1937, p. 155.

(١١٨) شيختمان ، « السنوات الاخيرة » ، ص ١٤٣ ·

(١١٩) المرجع السابق ، ص ٢٣٣ ·

(١٢٠) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ·

(١٢١) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ·

« اذا كانت ثمـــة طبقة تمسك المستقبـــل بيديها ... فهـــي نحن البورجوازيون ، اعداء الدولة ما فوق البوليسية ومنظـــروا الفردية ... لا داعي لان يصيبنا الخجل يا رفاقي البورجوازيين » (١٢٢) .

والتقى جابوتنسكي مع « رفاقه البورجوازيين » في بولونيا ، حيث كانت الفاشية الحاكمة تضطهد اليهود بأقسى عنف ، وذلك بموافقته على سياستهم الرسمية الداعية الى تهجير اليهود من وطنهـم وعرضه المساعدة على وضع هذه السياسية موضع التنفيذ العملي (١٢٣) .

وسيتضح لنا ان هذه الاتجاهات الرجعية تماما لم تكن حكرا عـــلى جابوتنسكي وحزبه داخل الحركة الصهيونية عندما نذكر كيف ان الصهيونيين نظروا الى تسلم هتلر للسلطة في المانيا على انه انتصار لوجهة نظرهم وهزيمة كاملة لسياسة دمج اليهود في المجتمعات التي يوجدوا فيها (١٢٤). كما عدوا الدكتاتور النازي « هبة ارسلها الله » لتساعدهم على اعادة بناء الحيـــاة القومية اليهودية (١٢٥) . ومن ناحية اخرى فقد وقف الحزب النازي موقفا محبذا ومؤيدا من الحركة الصهيونية على الرغم من سياسته الهمجية نحـــو اليهود (١٢٦) . كانت المنظمة الصهيونية هي التنظيم الوحيد المسموح به في المانيا خارج الحزب النازي وامتداداته . كمـــا سمحت السلطات النازية للصحافة الصهيونية بالاستمرار ، ولمراكز تدريب الشباب اليهودي الذاهـب الى فلسطين بالعمل ، في حين عطلت كافـــة الصحف والنشرات اليهودية الاخرى واغلقت المدارس التي كان يتدرب فيهـــا الشباب اليهودي من اجل دخول مجالات العمل والانتاج في المانيا نفسها (١٢٧) . بعبارة اخرى عملت الحركة الصهيونيـــة اقصى جهدها لمساعدة اعتى عتاة اعداء السامية على

....

(١٢٢) المرجع السابق .
(١٢٣) زوكرمان ، ص ١٢٦ .
(١٢٤) Arendt, Hannah, **Eichmann in Jerusalem.** The Viking Press, New York, 1963, p. 59.
(١٢٥) زوكرمان ، ص ١١٥ .
(١٢٦) « ايخمان في القدس » ، ص ٥٨ .
(١٢٧) زوكرمان ، ص ١١٣ .

تحقيق اهدافه ، أي طرد اليهود الالمان من وطنهـــم وبلادهم · لذلك لم تجـد الحكومة النازية اي حرج في خرق قانونها الصارم الذي يمنع اخراج الاموال من المانيا ، من اجل تسهيل المهمة المشتركة مع الحركــة الصهيونية في طرد اليهود من البلاد · وكان ذلـــك عن طريق الدخول في اتفاقيـــة مناسبة جدا « للتحويل » (Transfer Agreement) مع الوكالة اليهودية لفلسطين يسمح بموجبها للمهاجرين اليهود بتحويل اموالهم على شكل بضائع المانية يتم تبديلها بالجنيهات الانكليزية عند وصولهم الى فلسطين(١٢٨)· وكانت النتيجة اغراق فلسطين بالبضائع الالمانية في وقت كانت فيه القوى الديمقراطية والمعاديـــة للفاشية في كل مكان تنظم الحملات لمقاطعة البضائع الالمانية · كذلك وافقت السلطات النازية عام ١٩٣٧ على الدعوة التي تلقاها ادولف ايخمان(المسؤول عن مكتب الشؤون اليهودية في الـ اس اس) من مبعوثي الوكالة اليهودية في المانيا لزيارة فلسطين والمستوطنات اليهودية هناك ، الا ان ايخمان لم يتمكن من اتمام زيارته لان السلطات البريطانية اخرجته بسرعة بعد وصـــوله الى البلاد (١٢٩) · مرة اخرى اثبتت قاطرة الحركة الصهيونية انها غير قادرة على الحركة بدون الاعتماد على «قوتها الدافعة» التقليدية : العداء للسامية· وقد وصف كاتب يهودي معادي للفاشية معنى التعاون الصهيوني مع النازية بالعبارات القوية التالية :

« ان اسوأ ما في القبول اليهودي بخطة الخروج اليهودي من المانيا هو كونه يشكل في الوقت نفسه قبولا طوعيا لمجمل وجهـــة النظر النازية حول اليهود · انه استسلام يهودي تام امام النظرية الهتلرية العنصرية ، واقرار بان اليهود شعب غريب في المانيا على الرغم من القرون العشرة التي عاشوها على التراب الالماني ··· كما يشكل هذا القبول ايضا اقرارا ضمنيا بـــان الشيء نفسه ينطبق على البلدان الاخرى ، وبان اليهود لا يمكن ان يصبحوا جزءا من حياة اي شعب من الشعوب التي يعيشون بينها،وانهم سيبقون غرباء الى الابد في كل مكان وان افضل ما يستطيع ان يفعله اي شعب هو التخلص

(١٢٨) « ايخمان في القدس » ، ص ٦٠ · انظر ايضا مقالة المؤلفة نفسها :
«Zionism Reconsidered», in **Zionism Reconsidered**. edited by Michael Selzer, Collier-Macmillan, Ltd., London, 1970, p. 222.

(١٢٩) « ايخمان في القدس » ، ص ٦٢ ·

منهم نهائيا . باختصار هذا يعني القبول باحقر الاكاذيب النازية بالاضافة الى تصديق الهتلرية بكاملها ، كما يعني ان نلعب لعبة النازية بطريقة ربما لم يجرؤ هتلر نفسه على التفكير بان اليهود سيلعبونها » (١٣٠) .

في ١٩٣٨ اكد هتلر من جديد اهمية الهجرة اليهودية الى فلسطين بالنسبة للسياسية النازية عامة وبالنسبة لسياستها نحو اليهود على وجه التخصيص (١٣١) ، اذ انه كان حريصا على الا يستقر اليهود الخارجون

....

(١٣٠) زوكرمان ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(١٣١) Kimche, Jon and David, **The Secret Roads,** Secker and Warburg, London, 1954, pp. 28, 30.

انظر ايضا مقال الدكتور سلمان رشيد سلمان ، « المانيا النازية والقضية الفلسطينية » في« شؤون فلسطينية » ، العدد ٣١ اذار (مارس) ١٩٧٤ ، ص ٩٢ ـ ١٠٤.ولا بد من الاشارة هنا الى ان المعلومات التياوردناها والتحليلات الموضوعية التي اطلعنا عليها حول علاقات النازية والفاشية بالحركة الصهيونية تدحض زعم ناجي علوش القائل بان المانيا الهتلرية لم تدعم الحركة الصهيونية في صراعها مع الشعب الفلسطيني والجانب العربي عموما خلال الفترة الواقعة بين ١٩٣٣ و١٩٤٥. يقول ناجي علوش في تحديد اطراف الصراع الدائر على ارض فلسطين في تلك الفترة ما يلي : « الحركة الوطنية الفلسطينية ، تعضدها الجماهير الفلسطينية العريقة ، والجماهير العربية العريضة من جهة ، والحركة الصهيونية يدعمها الاستعمار البريطاني ، ثم الامبريالية الامريكية وكل الاوساط الاستعمارية الغربية ، ما عدا المانيا الهتلرية وايطاليا الفاشية في السنوات ٣٣ ـ ٤٥ . وتدعمها ايضا كل جماهير اليهود في فلسطين ، وقطاعات واسعة من جماهير اليهود في العالم » . يجب ان يتضح خطأ هذا التقييم بمجرد استعادتنا في الذاكرة للمسلمة البسيطة والصحيحة تماما والقائلة بان الصهيونية والفاشية العنصرية ليستا الا وجهان لعملة واحدة . (انظر : كتاب ناجي علوش « الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ ـ ١٩٤٨ » ، مركز الابحاث في بيروت ورابطة الادباء في الكويت ، ١٩٧٤ ، ص ٦٠) . يضاف الى ذلك انه حتى الداعية والمؤرخ الصهيوني الشهير جون كيمشي ـوهو عريق في الصهيونية ـ قد اعترف في كتابه الاخير بانه لولا صعود الهتلرية والجرائم التي ارتكبتها في حقاليهود والحرب التي اشعلتها في اوروبا لما كان بمقدور الحركة الصهيونية تجميع العدد الكافي من اليهود في فلسطين لتشكيل دولة على ارضها . اما فلسطين نفسها فكانت ستتحول

من المانيا في البلدان المجاورة مثل فرنسا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا والسويد ، كما كان يطالب اجهزته بالعمل السريع على تعجيل عملية طرد اليهود من البلاد بينما كان يصعد الاضطهاد ضدهم باستمرار لحثهم على الخروج وكان رأي وزارة الخارجية الالمانية يومها في انشاء الدولة اليهودية في فلسطين يتلخص بما يلي :

« ... تنطوي اقامة الدولة اليهودية على ميزتين كبيرتين لصالح المانيا : ستريح الرايخ من عدد كبير من اليهود المعوزين الذين ما زالت الضرورة قائمة للعناية بهم كما ستمكننا من التعامل مع ممثلين رسميين عندما تهاجمنا اليهودية العالمية بديلا من التعامل مع عناصر غير معروفة وبالتالي غير مسؤولة ، كما كانت تجري الامور حتى هذا الوقت » (١٣٢) .

وفي هذه الاثناء وصل مبعوثا الوكالة اليهودية الى برلين وفيينا من اجل المساهمة مع السلطات النازية في عمليات تهجير اليهود الى فلسطين والاشراف عليها وتنظيمها . ويقدم المؤرخان الصهيونيان جان ودافيد كيمشي الوصف التالي للمهمة التي جاء المبعوثان لانجازها كما شرحها احد المبعوثين بنفسه الى الجستابو :

« لقد جاء في مهمة خاصة . عمله هو ما كانت تريده الحكومة النازية وهدفه هو تنظيم هجرة اليهود الالمان الى فلسطين ، ولم يكن بالامكان تنفيذ هذا المشروع على نطاق واسع الا بعون القادة النازيين » (١٣٣) .

وبعد مفاوضات سريعة مع الجستابو والـ اس اس تم الاتفاق على التعاون بين الطرفين. ونتيجة لذلك حصل المسؤولون الصهيونيون على امتيازات خاصة من السلطات النازية مثل : حرية الحركة والتنقل في المانيا وكافة المناطق والبلدان الواقعة تحت سيطرتها ، والاعفاء من حمل « النجمة الصفراء » التي

....

— في رأيه — الى دولة عربية مستقلة تضمجالية يهودية كبيرة. لذلك يستنتج كيمشي ان مشروع الحركة الصهيونية تحطم على « الصخرة الفلسطينية العربية » ولم تنقذه الا النازية والحرب . (راجع :
Palestine or Israel, Secker & Warburg, London, 1973
ص ، ١٥٨) . ولمزيد من التأكيد بامكان ناجي علوش مراجعة الكتاب الذي نشرته الامانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين — امين عام الاتحاد هو ناجي علوش — بالاشتراك مع دار الطليعة تحت عنوان : « الصهيونية نظرية وممارسة » ، تأليف مجموعة من الكتاب السوفيات ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٨٠ — ٨٣.

(١٣٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(١٣٣) المرجع السابق ، ص ١٥ .

فرضت السلطات النازية على كافة اليهود لبسها، والسماح لهم بزيارة معسكرات الاعتقال حيث كان يتم تجميع اليهود (١٣٤) . واصبح باستطاعة المبعوث الصهيوني الى برلين ان يخرج الانسان الذي يريده من المعتقل بمجرد ارسال ورقة رسمية ممهورة بتوقيعه فقط (١٣٥) . وتعهد النازيون بمساعدة المسؤولين الصهيونيين على اقامة معسكرات خاصة للتدريب يختار المسؤولون الصهيونيون انفسهم الشباب اليهودي الذي سيتدرب فيها على المهمات المطلوبة منه « كرائد » لعمليات الاستعمار الاستيطاني الجارية في فلسطين . وقد قام ايخمان بدور مهم في تقديم التسهيلات الضرورية جميعا وتوفير الشروط اللازمة لاقامة هذه المعسكرات وانجاحها . يقول المؤرخان الصهيونيان المذكوران ما يلي حول دور ايخمان في هذا المجال :

« لقد زودنا بالمزارع ومعداتها . وفي احدى المناسبات طرد ايخمان مجموعة من الراهبات من احد الاديرة ليوفر لنا مزرعة لتدريب الشبان اليهود. وفي نهاية عام ١٩٣٨ كان ما يقارب من ١٠٠٠ شاب يهودي يخضعون للتدريب في هذه المعسكرات التي امنها النازيون » (١٣٦) .

وخلافا لما تدعيه مصادر الدعاية الصهيونية لم يكن هدف التنظيمات الصهيونية في المانيا والمناطق الواقعة تحت الاحتلال النازي مساعدة اليهود على انقاذ انفسهم من الاضطهاد الشنيع الذي كانوا يتعرضون له (وهنا يجب ان نميز بوضوح بين مساعدة اليهود على انقاذ انفسهم عن طريق الخروج من المانيا ومناطق الاحتلال النازية وبين مساعدة النازيين على اخراج اليهود وطردهم من بلادهم) لان التنظيمات الصهيونية كانت تمارس بكل وضوح النوع الثاني من «المساعدة» وليس الاول : بعبارة اخرى لم يكن الانقاذ هو الهدف الاساسي لهذه التنظيمات الصهيونية بل تهجير مادة بشرية مناسبة لتعزيز الاستعمار الاستيطاني في فلسطين . يقول المؤرخان الصهيونيان جون ودافيد كيمشي في تحديد هدف المبعوثين الصهيونيين المسؤولين عن عمليات التهجير من المناطق النازية :

....

(١٣٤) « ايخمان في القدس » ، ص ٩٩ ١.

(١٣٥) كيمشي ، ص ٣٢ .

(١٣٦) المرجع السابق ، ص ١٩ ، انظر ايضا ص ٣٢ .

« لم يحضر المبعوثان اليهوديان الى المانيا النازية لانقاذ اليهود الالمان ولم تكن تلك مهمتهما ... كانا يبحثان عن شبان وشابات يرغبون في الذهاب الى فلسطين لانهم يريدون وطنا خاصا بهم ، ولانهم يستعدون للقيام باعمال رائدة وللكفاح والقتال في سبيله ان دعت الضرورة الى ذلك . اما اهتمامهما باليهود الالمان الذين كانوا يتطلعون الى فلسطين كملجأ يأوون اليه او كأفضل الاماكن المتاحة بعد الولايات المتحدة او المملكة المتحدة فكان ثانويا بالنسبة لهدفهما الرئيسي ... لقد شكل اليهود الالمان احتياطيا طبيعيا يمكن اخذ المهاجرين منه لتقوية المواقع الرئيسية للمجتمع اليهودي في فلسطين»(١٣٧) .

على هذا الاساس تم الاتفاق بين المبعوث الصهيوني رودولف كاستنر وايخمان على تقديم التسهيلات اللازمة لتهجير اعداد معينة ومنتقاة من اليهود من هنغاريا الى فلسطين ، في مقابل مساعدة السلطات النازية في المحافظة على الهدوء والنظام داخل معسكرات الاعتقال التي كان يرسل منها مئات الالوف الى حتفهم في اوشويتز وغيرها من معسكرات الموت . اما اليهود الذين ارسلوا الى فلسطين فكانوا من الشخصيات اليهودية البارزة وفقا للتصنيف النازي ، واعضاء منظمة الشباب الصهيونية . ويكون كاستنر قد حصل بذلك على «أفضل مادة بيولوجية متوفرة»، على حد وصف ايخمان ، لنتائج الاتفاق بينهما (١٣٨) . لكن السلطات النازية تضايقت كثيرا من تشديد الصهيونيين على نوعية المادة البشرية التي كانوا يريدون تهجيرها من المانيا لان هم السلطات كان مجرد طرد اكبر كمية من اليهود الى فلسطين باسرع السبل وباقصر مدة ممكنة . بعبارة اخرى نشأ خلاف « فني » بين دعاة التهجير على اسس كمية من النازيين، وبين دعاة التهجير على اسس نوعية من الصهيونيين مما ادى بايخمان الى انشاء مكتب خاص به لتهجير اليهود الى فلسطين باشراف الـ اس اس وحدها (١٣٩). اخيرا لا بد من الاشارة الى ان صلات الحركة الصهيونية بالقوى العنصرية الفاشية لم تقتصر على التعاون الحميم كما بيناه، بل تعدت ذلك الى استخدام اساليب الارهاب المعروفة في تاريخ معاداة السامية ضد الجماهير نفسها لارغامها على الهجرة من موطنها وبلادها الى فلسطين . تسمي اوساط الحركة الصهيونية هذا الاسلوب في التعامل مع

(١٣٧) كيمشي ، ص ٢٧ .

(١٣٨) « ايخمان في القدس » ، ص ٤٢ .

(١٣٩) كيمشي ، ص ٣٨ .

الجماهير اليهودية « بالصهيونية القاسية » (Cruel Zionism)، اي القاسية على اليهود انفسهم · على سبيل المثال قام عمــلاء اسرائيليون عام ١٩٥٠ بالقاء المتفجرات في عدد من الكنائس واماكن التجمع اليهودية في بغداد من اجل ارهاب المواطنين اليهود وارغامهم على ترك البلاد خوفا من المعــادين للسامية ! وقد كشفت الصحيفة الاسبوعية الاسرائيلية « هاعولام هازيــه » (٢٠ نيسان ١٩٦٦) تفاصيل هذه العملية المــدبرة بأمر من رئيس الوزراء الاسرائيلي يومها دافيد بن غوريون (١٤٠) · وفيما يلي ما كتبه س · مندس احد دعاة « الصهيونية القاسية » في تبرير ما قام به بن غوريون لارغام يهود العراق على ترك البلاد باتجاه اسرائيل (وهو ما يسمونه «بالعملية المؤسفة»):

« لم تفت الحكومة الاسرائيلية امكانات انقــاذ ١٣٠،٠٠٠ يهــودي في الوقت نفسه تحسين وضعها الديمغرافي · لكن اليهود العراقيين كانوا يفتقرون الى زعامة قوية · فزعماؤهم اما انهم لم يكونوا يعرفون ماذا كان ينبغي عليهم ان يفعلوا او انهم رفضوا اخذ المبادرة في اي شيء وبالتالي لم يفعلوا شيئا · وبما انه كان من الضروري القيام بعمل ما فقد اتخذ (بن غوريون) الخطوة السليمة في الوقت المناسب · فان عملا من نوع « القضية المؤسفة » كان وحده قادرا على دفعهم للهجرة » (١٤١) ·

بعبارة اخرى ان الحركة الصهيونية تحتاج حاجــة ماسة وحيوية الى معاداة السامية (قوتها الدافعة على حـد تعبير هرتزل) الامر الذي يجعلها مضطرة الى اختلاقها باساليب اجرامية عندما لا تكون موجودة في الاصل ·

جبهة الامبريالية والاستعمار الاستيطاني :

بحكم المنشأ الامبريالي للمشروع الصهيوني اصلا وبحكم تحول الصهيونية اليهودية الى حركــة قومية بورجوازية منظمة وفاعــلة في عصر وصول الرأسمالية الى أعلى مراحلها كان من الطبيعي جدا الا تتوجه الحـــركة الصهيونية الا الى الــدول صاحبــة الامبراطوريات الكبيرة (او العاملة على

---

(١٤٠)
Lobel, Elie, «Palestine and the Jews» **The Arab World and Israel,** Monthly Review Press, New York, 1970, pp. 122-123.

(١٤١) المرجع السابق ، ص ١٢٢ ·

بنائها) لتتحالف وتتعاون معها من اجل تحقيق برامج مشتركة ، ولخـــدمة مصالح حيوية متبادلة عـــلى حساب شعوب عـــالم المستعمرات او اشباه المستعمرات آنذاك . لذلك كرس هـــرتزل القسم الاكبر من نشاطه العملي في سلسلة من المفاوضات المتلاحقة مع المشرفين على الامبراطوريات القائمة يومها وعلى رأسها الامبراطورية العثمانيـــة حيث تفاوض مع الصدر الاعظم وقابل السلطان عبد الحميد . كما تفاوض مع حكام الامبراطورية الالمانية التي كانت قيد التوسع يومها مثل عم الملك غليوم الثاني دوق بادن الكبير والملك نفسه ، ووزير الدولة برنهارد فون بالو (Von Bulow) وقابل ايضا ملك ايطاليا فيكتور عمانوئيل والبابا بيوس العاشر ، وكل من بليهفه وويته في روسيا كما رأينا . هذا بالاضافة الى مفاوضاته مع اهم الشخصيات في الامبراطوريـــة الانكليزية مثل جوزيف تشامبرلين وبلفور واللورد كرومر حاكم مصر بعد ان احتلها الانكليز . اما المحور المركزي الذي كانت تدور حوله كل هذه المفاوضات والاتصالات فكان التعاون العملي بين الحركة الصهيونية وحكام الامبراطورية المعنية على دعم الاستعمار الاستيطاني اليهودي في فلسطين من اجل :

أ) تخليص البلد المعني من « عناصر الشغب » اليهودية (من مناضلين عماليين وعناصر اشتراكية وانتلجنسيا ثورية) و « تفريغ » الفائض السكاني من فقراء اليهود في المستعمرة ، (ب) تعزيز قـــدرة الدولة الامبريالية المعنية على مواجهة منافسيها من ناحية، وتوسيع سيطرتها وتثبيتها في وجه الحركات الوطنية التحررية للشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة من ناحية ثانية ، كل ذلك بواسطة زرع كيان استيطاني اوروبي « ابيض » في منطقة استراتيجيـــة بحيث يساعد ذلك في الدفاع عن مصالح الدولة الامبريالية الام والمحافظـــة عليها . وربما كان افضـــل تلخيص لطبيعـــة العلاقة المنشودة بين الحركة الصهيونية والامبراطوريات القائمة هو ما قدمه هرتزل في الاسطر التالية :

« لنفرض ان جلالة السلطان اعطانا فلسطين . ففي مقابل ذلك سنأخذ على عاتقنا مسؤولية ضبط شؤون تركيا المالية برمتها ، وسنشكل هنـــاك جزءا من سور اوروبا الواقي في وجه آسيا ، ومخفرا اماميا للحضارة ضد البربرية » (١٤٢) .

امامنا هنا وصف لصفقة مع الامبراطوريات المعنيـــة تشمل تقديم ارض

....

(١٤٢) « الدولة اليهودية » ، ص ٣٠ . الترجمة العربية ، « الفكرة الصهيونية » ، ص ١٢٠ .

فلسطين الى الحركة الصهيونية مقابل ما يلي : (أ) تدعيم الامبراطورية العثمانية المتداعية وضمان استمرارها في وجه الاخطار التي كانت تتهددها ، (ب) تعميق السيطرة الامبريالية الاوروبية على هذه الامبراطورية الآسيوية على ان يقوم الرأسمال اليهودي الكبير بدور خاص وممتاز في هذا المجال ، (ج) تشكيل متراس وموقع امامي للامبريالية الاوروبية في وجه شعوب آسيا « البربرية » وحركاتها الوطنية المعادية « للحضارة » التي يحملها المستعمر معه ٠

ما هي الاخطار التي كانت تهدد الامبراطورية العثمانية في نظر هرتزل؟ خطر الافلاس ، ولذلك عرض عليها « خدمات » البورجوازية اليهودية العليا ، (١٤٣) او على حد قوله في المؤتمر الصهيوني الخامس :

« ان المعونة المالية التي يستطيع اليهود تقديمها الى تركيا لا يستهان بها على الاطلاق وسيكون من شأنها العمل على التخلص من الكثير من المحن الداخلية التي يعاني منها البلد في الوقت الحاضر » (١٤٤) ٠

ثم خطر النهضة الوطنية العربية ضد السيطرة العثمانية ، ولذلك شدد هرتزل في مفاوضاته العثمانية على ان الحركة الصهيونية تعمل لادخال عنصر جديد تماما في الشرق الاوسط عبر استيطان فلسطين: عنصر موال كل الموالاة للباب العالي ومستعد للوقوف في وجه اكثر الاخطار جدية في تهديد الامبراطورية ، وهو خطر الانتفاضة العربية لنيل الاستقلال (١٤٥) ٠ ومن الملفت للانتباه بهذا الصدد انه عندما تسلم هرتزل برقيات من جماعات من

....

(١٤٣) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج١ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٩ ٠ ج٢ ، ص ٤٨٢ ٠

(١٤٤) «الفكرة الصهيونية» (الاصل الانكليزي)، ص ٢٢٩ ٠ الترجمة العربية، ص ١٢٦٠ شملت المشاريع التي ناقشها هرتزل مع السلطات العثمانية من اجل تدعيم الامبراطورية وتقويتها قيام مجموعة مالية يهودية بالاشراف على استغلال كل الثروة المعدنية في الامبراطورية (بما فيها البترول) بالاضافة الى الاشراف على شؤونها المالية وتقديم القروض اللازمة الى الحكومة من اجل تنفيذ مشاريعها في الاشغال العامة ٠ راجع : « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج٣ ، ص ١١١٤ ـ ١١١٨ ، ١٢١٧ ـ ١٢٣٠ ، ١٢٣٧ ـ ١٢٤٠ ٠ ج٤ ، ص ١٣١٤ ـ ١٣١٦ ، ١٣٢٠ ـ ١٣٢٣ ، ١٣٣١ ـ ١٣٣٢ ٠

(١٤٥) **Zionism Reconsidered, p. 236.**

القوميات المضطهدة تحتج على مفاوضاته مع الباب العالي المسؤول عن مذابح الشعب الارمني وقمع الحركات الوطنية لم يفعل اكثر من تدوين الملاحظة التالية في يومياته :

« الارجح ان يفيدني هذا عند السلطان » (١٤٦) ٠

في الواقع تعهد هرتزل ، نزولا عند طلب السلطان عبد الحميد ، ببذل جهوده كصحافي وكرئيس للمنظمة الصهيونيةعلى تبييض صفحة البا بالعالي، قدر الامكان ، في اوروبا بالنسبة لموضوع المذابح التي تعرض لها الشعب الارمني في تلك الفترة (١٤٧) ، بالاضافة الى العمل على اقناع زعماء الارمن الوطنيين بالتصالح (اي الخضوع) مع السلطان (١٤٨) ٠ وقد اوضح ماكس نورداو ، بعبارات لا تقبل الالتباس ، في خطابه في المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) طبيعة الصفقة التي كانت الحركة الصهيونية تسعى لعقدها مع الباب العالي من اجل تثبيت سيطرة الامبراطورية العثمانية في وجه الحركة الوطنية العربية من اجل التحرر السياسي ٠ قال نورداو :

« بامكان الحركة التي استحوذت على قسم كبير من العالم العربي ان تأخذ بسهولة اتجاها قد يحدث الضرر في فلسطين ٠٠٠ وقد تشعر الحكومة التركية بأنها مضطرة الى الدفاع بالقوة المسلحة عن حكمها في فلسطين وسوريا ضد رعاياها ٠٠٠ وفي حال نشوء مثل هذا الوضع قد تقتنع تركيا بانه من الاهمية بمكان بالنسبة لها ان يوجد في فلسطين وسوريا شعب قوي وحسن التنظيم ٠٠٠ يقاوم اي هجوم على سلطة السلطان ، ويدافع عنها بكل ما اوتي من قوة » (١٤٩) ٠

....

(١٤٦) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج٢ ، ص ١١٩٢ ٠ الترجمة العربية ، « يوميات هرتزل » ، ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ ٠

(١٤٧) المرجع السابق ، ج١ ، ص ٣٨٧ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ، ٤١١ ٠ في الترجمة العربية انظر ص ٣٦ ، ٣٨ ـ ٣٩ ٠

(١٤٨) المرجع السابق ، ج١ ، ص ٤١٥ ٠ وجدير بالذكر بهذه المناسبة ان السلطان عبد الحميد قلد هرتزل الوسام المجيدي ٠ المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٤٨٢ ، ج٣، ص ١١١٢ ٠

(١٤٩) أفنيري ، « اسرائيل بدون صهيونيين » ، ص ٥٠ ـ ٥١ ٠

جاء هذا الموقف اعلانا للحرب من قبل الحركة الصهيونية على النهضة القومية العربية ضد الاستعمار العثماني (وغيره فيما بعد) وتعبيرا واضحا جدا عن الدور الرجعي والقمعي الذي كان الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين يعد نفسه للقيام به لصالح الامبراطورية المسيطرة في المنطقة مهما كانت ٠

وفي اتصالاته ومفاوضاته مع اركان الامبراطورية الالمانية ركز هرتزل على نقطتين اساسيتين : اولا ، اخراج فائض السكان من فقراء اليهود من اوروبا بتفريغهم في المستعمرة الفلسطينية مما سيبعدهم عن الاحزاب الاشتراكية والنشاط الثوري بشكل عام (١٥٠) ٠ لذلك شدد على الطبيعة المضادة للثورة التي تتصف بها الحركة الصهيونية كما في قوله الموجه الى دوق بادن الكبير :

«على حركتنا ـ التي اصبحت الان منتشرة انتشارا واسعا ـ ان تخوض في كل مكان معارك مرة مع الاحزاب الثورية التي ترى فيها (في الحركة الصهيونية) خصما لها عن حق » (١٥١) ٠

وفي محادثاته مع فون بالو ناقش هرتزل بشكل مطول الطابع المعادي للاشتراكية في الحركة الصهيونية (١٥٢) حيث سخر من حماقة اليهود الذين ينضوون تحت لواء الحركة الاشتراكية ، واكد له ان اليهودي لا ينسجم الا مع المجتمع القائم على الفردية فقط (١٥٣) ٠ وكان التفاهم تاما بين الطرفين حول هذا الموضوع بالذات ٠ دوّن هرتزل ما يلي في يومياته على اثر المحادثة :

« على كل حال كان اتفاقنا تاما فيما يتعلق بالناحية الاشتراكية من المسألة ٠ وقد اعجب عندما ذكرت له باننا ابعدنا طلابا عن الاشتراكية في جامعة فيينا ٠ قد يعتقد البعض بانهم سيقيمون دولة المستقبل الاشتراكية « هناك » (اي فلسطين) ولكن هذه ليست وجهة نظري » (١٥٤) ٠

---

(١٥٠) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج٢ ، ص ٥٩٦، ٦٦٦ ، ٧٢٨ ، ٧٩٨ ٠ في الترجمة العربية انظر ص ٦٣ ، ٦٤ ، ١١٤ ، ١٣٩ ٠

(١٥١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٥٩٦ ٠ الترجمة العربية، « يوميات هرتزل »، ص ٦٣ ٠

(١٥٢) المرجع السابق ، ج٢ ص ٦٦٦ ٠

(١٥٣) المرجع السابق ، ج٢ ص ٦٦٧ ٠ الترجمة العربية ، ص ٤٩٢ ٠

(١٥٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٦٦٨ ٠ الترجمة العربية ، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ ٠

كذلك شدد هرتزل في مقابلته مع الملك غليوم الثاني على العمل الـذي تقوم به الصهيونية في انتزاع اليهود من الاحزاب الثورية (١٥٥) . كما كتب ما يلي في احدى رسائـــله الى فون بالو مبينا له المخاطر التي ينطوي عليها اخفاق الحركة الصهيونية بالنسبة للطبقة الحاكمة :

« فاذا فشل مشروعنا فان مئات الالوف من اتباعنا سينحازون دفعـة واحدة الى جانب الاحزاب الثورية ، وهذا شيء طبيعي ايضا » (١٥٦) .

ثانيا ، تعزيز السياسة الامبريالية الالمانية في الشرق ومساعدتها على توسيع نفوذها وتثبيته هناك في وجه مصالح منافسيها وخصومها عن طريق وضع امكانات الحركة الصهيونية والمستعمرة اليهودية النامية في فلسطين جميعا تحت اشراف الدولة الالمانية وحليفتها الامبراطورية العثمانية. ولتحقيق هذا التحالف اقترح هرتزل انشاء شركـــة اراض على غرار شركة الهند الشرقية الشهيرة على حد قوله ، تحت الحماية الالمانية كي تقوم باستعمار سوريا وفلسطين وتوطين اليهود فيهما (١٥٧) . هذا بالاضافة الى مطلبـه ببسط الحماية الالمانية على مجتمع المستوطنين اليهود بحيث تستمر عمليات استعمار فلسطين وسوريا واستيطانهما في ظلهـا . كتب هرتزل ما يلي الى دوق بادن في شرح اقتراحه وايضاح فوائده :

« في الوقت الحاضر ان حركتنا موجهة نحو (فكرة) المحمية الالمانية . ومنذ ان تم السماح لي بالاتصال بسموكم ... لم تبارح ذهني الفكرة القائلة ... بانه يجب علينا ان نبذل كل جهد لكسب حماية الامبراطورية الالمانيـــة والقانون الالماني . ان ميل السياسة الالمانيـــة ، الذي اخذ يتضح بصورة متزايدة في الفترة الاخيرة ، نحو الحصول على موطىء قـــدم حتى في مكان ابعد باتجاه الشرق ، والاهتمامات الدينية والسياسية التي يبديها جـــلالة الامبراطور في ارض اجدادنا ، بالاضافة الى احتلال النفوذ الالماني في تركيا موقع الصدارة قد دعمت كلها وجهة النظر التي امثلها داخل حركتنا في مقابل

---

(١٥٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٧٢٩ . الترجمة العربية ، ص ١١٤ .

(١٥٦) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٩٩ . الترجمة العربيـــة ، ص ١٣٩ . انظر ايضا ص ٧٨٣ ، الترجمة العربية ، ص ١٣٢ .

(١٥٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٧٢٠ ، ٧٣٤ ، ٧٦٥ . في الترجمـــة العربية انظر : ص ١٢٤ .

الذين يطرحون الحماية الانكليزية على انها هي الشيء المطلوب » (١٥٨) ٠

وتعهد هرتزل الى الدوق بان تعمل الحركة الصهيونية مع الامبريالية الالمانية على احباط محاولات فرنسا لاحيـــاء مشاريعها في جعل سوريا وفلسطين محميتين تابعتين لها لانه سيترتب على نجاح فرنسا نتائج سياسية واقتصادية مضرة بالمصالح الالمانية في الشرق (١٥٩)، كذلك وعده بطرد النفوذ الفرنسي من المستوطنت اليهودية في فلسطين عن طريق اخضاع المستوطنات التابعـة « للاتحاد الاسرائيـــلي » (الاليانس) الى متطلبات الحمايـــة الالمانية والتزاماتها (١٦٠) ٠ كما اكد الموقف نفسه في رسالة موجهة الى الملك غليوم الثاني حيث قال :

« مع ذلك باستطاعة المانيا ضمـان النفوذ لنفسها في المستقبل ـ وذلك باسلوب سيبقى طي الكتمان في الوقت الحاضر وحتى دون ان تترتب عليـه اية التزامات فيما بعد ـ وان تكسب سوقا صناعية من الطراز الاول مـــع البدايات الاولى لعمليات الاستعمار التي سنقوم بها » (١٦١) ٠

وجدير بالذكر ان محاولات الحـــركة الصهيونية للتحالف مـع المطامح الامبريالية الالمانيـــة لم تتوقف الى ان لحقت الهزيمـــة بالمانيا في الحرب الامبريالية الاولى ٠ وقد وردت معنا اشارة هرتزل الى «التنافس» في صفوف الحركة بين دعاة الحمايـــة الالمانية ودعاة الحماية الانكليزية من اجل تنفيذ برنامجها في استعمار فلسطين واستيطانها ٠ واستمر هذا « التنافس » على الارتباط بهذه الامبرياليـــة او تلك حتى صدور وعـد بلفور ٠ عـــلى سبيـل المثـــال في سنـــة ١٩١٥ شدد الزعيـم الصهيوني الالماني كيرت بلومنفلد ، عضو الامانـــة العامة لمكتب برلين المـــركزي للحركـــة في المانيا ، عـــلى اهمية التحالف بين الحركة الصهيونية والامبريالية الالمانية بالعبارات التالية:

« كان اليهود ٠٠٠ الوسطاء الطبيعيين بين المانيا والشرق ، ولذا فان

---

(١٥٨) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٧٦ ٠

(١٥٩) المرجع السابق، ج٣ ، ص١١٨٥ ٠ الترجمة العربية، « يوميات هرتزل »ص١٩٥ ٠

(١٦٠) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٧٧٥ ٠

(١٦١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٧٩٤ ٠

اليهود الذين استوطنوا في فلسطين سيشكلون معقلا للنفوذ الالماني في ذلك الشطر من العالم · واذا ما اتيحت لهم الفرصة فسيكون بالامكان الاعتماد عليهم لنشر الثقافة الالمانية وتعزيز التغلغل الاقتصادي الالماني في كل ارجاء الامبراطورية التركية » (١٦٢) ·

واعتبر قائد صهيوني أخر اليهود الالمان « عنصرا من الشرق الادنى داخل المانيا ، وعنصرا المانيا داخل تركيا » · لذلك عاد الى طرح فكرة بسط الحماية الالمانية على اليهود في الامبراطورية العثمانية (١٦٣) · بطبيعة الحال تجاوبت السلطات الالمانية مع هذه العروض فأصدرت ، بالتفاهم مع الزعماء الصهيونيين ، تعليمات سرية الى قناصلها في كافة انحاء الامبراطورية العثمانية تنبههم الى ان سياسة دولتهم تنظر بعين العطف الى هجرة اليهود واستيطانهم في اراضي الامبراطورية الحليفة (اي في فلسطين) (١٦٤) · كما حركت السلطات نفسها حملة صحافية واسعة ركزت على الفوائد والمكاسب التي ستجنيها كل من المانيا وحليفتها الدولة العثمانية من التعاون مع الحركة الصهيونية ومن الاستيطان اليهودي في فلسطين (١٦٥) ·

على الرغم من تفضيل هرتزل حماية الامبريالية الالمانية للحركة الصهيونية ومشروعها ، كان يدرك في الوقت نفسه ان الدولة المرشحة اكثر من غيرها للقيام بهذه المهمة هي بريطانيا · لذلك نراه يقول الى احد السفراء الالمان :

« حركتنا موجودة ، واتوقع ان تتبناها هذه الدولة الكبرى او تلك · في البداية فكرت بان تلك الدولة ستكون انكلترا لان ذلك ينسجم مع طبيعة الامور · ولكن ستجدني اكثر ترحيبا لو كانت المانيا هي تلك الدولة » (١٦٦)·

وبغض النظر عن ميل هرتزل الى المانيا بسبب تربيته وثقافته كما يقول (١٦٧) ، كان مدركا ايضا للعوامل الاستراتيجية التي من شأنها ترجيح

---

(١٦٢) شتاين ، « وعد بلفور » ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ·

(١٦٣) المرجع السابق ، ص ٢١٢ ·

(١٦٤) المرجع السابق ، ص ٢١٣ ·

(١٦٥) المرجع السابق ، ص٥٢٣ ـ ٥٢٤ ·

(١٦٦) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج٢ ، ص٦٦٤ · الترجمة العربية ، « يوميات هرتزل » ، ص ١٠٥ ·

(١٦٧) المرجع السابق ج٢ ، ص ٧٧٦ ، الترجمة العربية ، ص ١٢٩ ·

كفة الامبريالية البريطانية على غيرها في حماية الحركة الصهيونية ودعمها ، لذلك صب هرتزل جهودا تنظيمية ودعائية في بريطانيا اكثر من اي بلد آخر ، وهو الذي اعلن « ان انظاره كانت موجهـــة الى انكلترا منـــذ اللحظة الاولى » (١٦٨) · بعبارة اخرى ان عوامل مثل المركز الممتاز والتفوق الذي كانت تحتله بريطانيا على صعيد الامبريالية العالميـــة ، وخبرتها المتقدمة في ميادين الاستعمار ورعاية الاستيطان الاوروبي الابيض في النقاط الاستراتيجية من عالم المستعمرات ، بالاضافـــة الى سيطرتها على مصر وقناة السويس وحيوية مصالحها في « الليفانت » بسبب الطريق الى الهند ، وبحث الدوائر الانكليزية الحاكمة منذ ايام شافستبوري وبالمرستون عن « حركـة صهيونية » تخدم الامبراطورية بتوطين يهـــود اوروبا في فلسطين ، جعلت كلهـــا من الامبريالية الانكليزية المـلاذ الطبيعي للحركـــة الصهيونية والقـوة الاكثر قدرة على حمايتهـا وانجاح اهـــدافها · او على حـد قول ليوبولد جرينبرج (Leopold Greenberg) ، المساعد المقرب من هرتزل :

« اية دولة من الدول لها من المصالح في فلسطين ما لانكلترا ، هذا اذا اخذنا بعين الاعتبار ان انكلترا في مصر هي جارة فلسطين الاكثر قربا ، وان الطريق الاقصر الى الهند تمر عبر فلسطين » (١٦٩) ·

وتكمن هذه الاعتبارات خلف ثقة هرتزل بالدور الخاص والممتاز الذي كان لا بد ان تقـــوم به الامبريالية البريطانية في حماية الحركة الصهيونية ومشاريعها وايصالها الى اهدافها · او على حد قوله في المؤتمر الصهيوني المنعقد في لندن عام ١٩٠٠ :

« لا بد لاي دارس للسياسة من ان يلاحظ، بسرعة البرق، ان الصهيونية تقدم فرصة ثمينة في توفير مدخـل سهل الى آسيا ··· ان انكلترا ، انكلترا

....

(١٦٨) Rabinowicz, Oskar, K., «Herzl and England» **Herzl Year Book,** Herzl Press, New York, 1960. Vol. III p. 38.

(١٦٩) Rabinowicz, Oskar, K., «Herzl, Architect of the Balfour Declaration», **Herzl Year Book,** Herzl Press, Now York, 1958, Vol. I, pp. 8-9.

العظيمة ، انكلترا الحرة ، انكلترا سيدة البحار ستفهم اهدافنا · بامكاننا ان نكون واثقين من ان الفكرة الصهيونية ستنطلق من هنا في تحليقها الى انحاء اعلى وابعد » (١٧٠) ·

كما افصح عن السبب الذي يجعله مطمئنا الى مستقبـــل علاقة الحركة ببريطانيا على النحو التالي :

« وكان الانكليز اول من ادرك ضرورة التوسع الاستعماري في العالم الحديث · لذلك يرفرف علم بريطانيا العظمى عبر البحار· ولهذا السبب اعتقد بانه لا بد ان يجري فهم الفكرة الصهيونية ــ باعتبارها فكرة استعمارية ــ في انكلترا بيسر وسرعة » (١٧١) ·

وعندما كان هرتزل يناقش مشروع استيطان اليهود في العريش (كنقطة تجمع اولية للانقضاض على فلسطين فيما بعد كما يوضح هو) أظهر ادراكا دقيقا للمصير المحتم الذي كان ينتظر فلسطين (سقوطها ضمن دائرة النفوذ البريطاني) بحكم السيطرة البريطانية على مصر وقناة السويس · نظر هرتزل الى استيطان العريش على انه عملية تساعد في مد السيطرة البريطانية الى فلسطين وتعجيلها · قال في محادثته مع تشامبرلين :

« متى اصبحنا في العريش تحت العلم البريطاني ستقع عندئذ فلسطين ايضا ضمن دائرة النفوذ الانكليزي » (١٧٢) ·

وعندئذ سيكون باستطاعة الحركة الصهيونية العمل بحرية على انماء المستعمرة هناك وتحويلها الى دولة يهودية دون اية عوائق تذكر · كذلك عاد هرتزل في حديثه الى اثارة الفكرة الانكليزية القديمة حول تحويل فلسطين الى دولة عازلة (Buffer State) بعد تأسيس الدولة اليهودية فيها (١٧٣) · في الواقع نظر قادة الحركة الصهيونية الى التجربــة الاستعمارية البريطانية كمثل أعلى يقتدى به ·

---

(١٧٠) « كتاب هرتزل السنوي » ،ج٢ ، ١٩٦٠ ، ص٤٣ ·

(١٧١) المرجع السابق ، ص٤٢ ــ ٤٣ ·

(١٧٢) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج٤ ، ص ١٤٧٤ · الترجمة العربية ، « يوميـــات هرتزل » ، ص ٢٨١ ·

(١٧٣) المرجع السابق ·

لذلك حاول هرتزل الاجتماع بالشخصية الاكثر شهرة وخبرة في هذا الميدان : سيسيل رودس ، اذ كان يعتبره « المؤسس الوحيد للدول الذي انتجته العصور الحديثة » (١٧٤) وطلب منه ، في رسالة ، ان يلقي بثقله الى جانب مشروع الحركة الصهيونية في استعمار فلسطين واستيطانها · شرح هرتزل رغبته في التعاون مع رودس في رسالته على النحو التالي :

« ما الذي دعاني اذن الى التوجه اليك وبخاصة ان هذه المسألة هي امر بعيد بالنسبة اليك ؟ ··· (توجهت اليك) لان الموضوع يتعلق بامر استعماري ولانه يفترض استيعابا لتطور سيستغرق ثلاثين او اربعين عاما » (١٧٥) ·

كما كان هرتزل يتشبه برودس في كل محاولاته لتأسيس شركة ذات ميثاق (Chartered Company) تقوم باستعمار فلسطين وتأسيس الدولة اليهودية فيها وفقا للنموذج الاستعماري الذي عممته الامبريالية البريطانية يومها · وفي رسالة الى ماكس نورداو افصح هرتزل تماما عن كونه يعد التجربة الاستعمارية الانكليزية النموذج الافضل الذي ينبغي ان تتشبه به الحركة الصهيونية وتسير على هداه · كتب ما يلي في ١٩٠٣ بمناسبة المناقشة التي كانت دائرة في الاوساط الصهيونية حول فكرة استعمار اوغندة :

« انظروا الى انكلترا : انها تصب الفائض من سكانها في الامبراطورية الشاسعة التي كسبتها ··· ان القاعدة القومية لامم عديدة مكنتها من بناء امبراطوريات استعمارية تجلب لها ثراءها · دعونا نغتنم الفرصة المتاحة لنا لنصبح انكلترا مصغرة · ولنبدأ ذلك بالحصول على مستعمراتنا الخاصة · واستنادا الى قوة مستعمراتنا سننتزع وطننا » (١٧٦) ·

في مفاوضاته مع اركان الامبراطورية البريطانية ركز هرتزل على الفوائد التالية لانكلترا نتيجة بسط حمايتها على الحركة الصهيونية ودعمها :
أ) « تفريغ » فائض السكان من المهاجرين اليهود الى انكلترا باتجاه المستعمرة في فلسطين ·

....

(١٧٤) المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١١٦٩ · الترجمة العربية ، « يوميات هرتزل » ، ص ١٨٩ ·
(١٧٥) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١١٩٤ · الترجمة العربية ، ص ٨٧ ·
(١٧٦) لوبل ، ص ١١٦ ·

ب) تعزيز السياسة البريطانية التقليدية الرامية الى الحفاظ على الامبراطورية العثمانية ومنعها من الانهيار بالاضافة الى ضبط شؤونها المالية، وذلك عن طريق :

« ... خلق دولة يهودية تابعة في فلسطين تتمتع بالحكم الذاتي - مثل مصر - تحت سيادة السلطان » (١٧٧) .

ج) ان قيام مثل هذه الدولة سيمكن بريطانيا من انشاء خط حديدي عبر فلسطين من البحر الابيض المتوسط الى « الخليج الفارسي » وسيكون بالامكان وصل هذا الخط بخط اخر يصل الى الهند عبر ايران مما سيعطي الامبراطورية طريقا جنوبية احتياطية الى الهند يمكن الركون اليها في حال وقوع اية متاعب في منطقة قناة السويس . ومما يعطي هذا المشروع اهمية خاصة قيام روسيا يومها بالاعداد لانشاء خط حديدي في الشمال باتجاه آسيا (١٧٨) .

د) القوة الاضافية التي ستحصل عليها الامبراطورية نتيجة خلق مثل هذه الدولة التابعة اذ :

« في غضون سنوات قليلة ستصبح الامبراطورية اكبر بفضل مستعمرة غنية » (١٧٩) .

وستزداد قوتها بصورة خاصة في شرقي البحر الابيض المتوسط ، او كما قال هرتزل في رسالة الى اللورد روثتشايلد (الانكليزي) حول هذا الموضوع :

« في الواقع يحق لك في ان تكون موضع مفخرة رفيعة عند حكومتك اذا ما دعمت النفوذ الانكليزي في شرقي البحر الابيض المتوسط بواسطة استعمار عظيم يقوم به شعبنا عند نقطة تقاطع المصالح المصرية والهندو - ايرانية » (١٨٠) .

هذا بالاضافة الى مكسب من نوع آخر لبريطانيا :

«بضربة واحدة ستحصل انكلترا على عشرة ملايين من الرعايا المستترين

---

(١٧٧) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ٢ ، ص ٥٠١ .
(١٧٨) المرجع السابق . الترجمة العربية ، ص ٥٠ - ٥١ .
(١٧٩) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٣٦٦ . الترجمة العربية ،ص ٢٤٩ .
(١٨٠) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٣٠٩ . الترجمة العربية ، ص ٢٢٧ .

ولكن المخلصين والنشيطين في كافة مجالات الحياة في كل انحاء العالم ··· ستحصل بريطانيا على عشرة ملايين عميـــــل (يعملون) من اجل عظمتها ونفوذها · وينتشر تأثير هذا النوع من الامور عادة من المجال السياسي الى المجال الاقتصادي » (١٨١) ·

بطبيعة الحال لم يكن هرتزل يعرض اي شيء جديد حقا عـــلى اركان الامبراطورية البريطانية اذ ان زرع المستوطنات الاوروبية « البيضـــاء » في النقاط الاستراتيجية الهامة في عالم المستعمرات كان جزءا هاما واساسيا من سياسة تقوية الامبريالية الانكليزية وتوطيد دعائهما وتوسيع مناطق نفوذها · على سبيل المثال عندما عرض تشامبرلين اوغنده على هرتزل كي تقيم الحركة الصهيونية مستعمرة يهودية فيها كان السياسي البريطاني يفكر بالمشروع من حيث هو مصدر لتموين الصناعيين والتجار الانكليز بالقطن والسكر (١٨٢) ، كما انه لم يكن غائبا عن باله ابدا ان بريطانيا لم تكن قد اتمت بعد عمليـــة اخضاع افريقيا الشرقية وجعلها منطقة آمنة للاستثمارات المالية (الشركـــة البريطانية لشرقي افريقيا) · يضاف الى ذلك ان المناطق الافريقية المجاورة كانت في حالة تمرد مثـــــل السودان في ١٨٩٧ وكينيا وتانزانيا ورواندا · بعبارة اخرى كانت بريطانيا مهتمة بتوطين اليهود الاوروبيين في اوغنـــده للاسباب الاستعمارية ذاتها التي جعلتها تساعد الاستيطان الاوروبي الابيض في جنوب افريقيا ثم جعلتها تعمل فيما بعد على خلق مستعمرة اوروبية يهودية في اكثر النقاط استراتيجية في « الليفانت » ·

بعد وفاة هرتزل عام ١٩٠٤ حمل حاييم وايزمان عبء تكملة المفاوضات والاتصالات مع اركان الامبراطورية البريطانية من اجـــل الوصول الى بسط حماية الامبريالية الانكليزية على الحركة الصهيونية بصورة نهائية · ففي عام ١٩٠٦ قابل وايزمان بلفور لاتمام ما كان قد بدأه هرتزل على هذا الصعيـــد مستندا الى تكامـــــل مصالح الامبريالية الانكليزية مع مصـــــالح الحركة الصهيونية في استيطان فلسطين واستعمارها · اذ كان وايزمان يعتقـــد ان

(١٨١) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٣٦٧ · الترجمة العربية ، « يوميـــات هرتزل » ، ص ٢٤٩ _ ٢٥٠ ·

(١٨٢) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٤٧٣ · الترجمة العربية ، ص ٢٨٠ ·

« الامبراطورية الانكليزية مبنيـــة على المبادىء الاخلاقية » (١٨٣) ، وان « امبرياليتهم هي التي ستخلق الـــدولة اليهودية » (١٨٤) · كما كان يعد الاستعمار الفرنسي في تونس النموذج الناجح الذي يجب ان تتشبه به حركته في عملها التطبيقي في فلسطين (١٨٥) · ومن المعروف ان هـــذا الارتباط العضوي الذي نما وتعمق بين الحركة الصهيونية والامبريالية البريطانية توج باصدار وعد بلفور الشهير عام ١٩١٧ الذي جاء اول تعبير رسمي وصريـح ، على أعلى المستويات ، عن نوعية الحماية التي اصبحت تتمتع بهـــا الحركة الصهيونية على الصعيد العالمي · قال وايزمان ما يلي حول اهمية محادثتـه الاولى مع بلفور بالنسبة لاصدار الوعد فيما بعد :

« ربما كانت محادثتي معه هي احد الاسباب الاساسية التي ادت الـى صدور وعد بلفور بعد ذلك باحدى عشرة سنة » (١٨٦) ·

وبامكاننا ايجاز العوامل الاساسية الكامنة خلف صدور وعد بلفور على النحو التالي :

أ) اعتبارات استراتيجية ذات طابع عام جعلت الامبرياليـــة الانكليزية تعد فلسطين بمستوى مصر من حيث اهميتها الحيوية لانها اصبحت نقطـــة اتصال وتقاطع للطرق الجوية بين ثلاث قارات ومحطـــة هامة على الطريق الجوية الدولية الى الهند ، بالاضافة الى كونها موقع متقدم من جهة الشرق ضد اي تهديد محتمل لقناة السويس والمكان الذي يصب فيه انبوب البترول الآتي من كركوك · اي ان اركـــان الامبراطوريـــة البريطانية وخبراءهـــا الاستراتيجيين والعسكريين صاروا ينظرون الى فلسطين من حيث هي منطقة :

« ··· تتمتع باهمية قصوى بالنسبة لمستقبل الامبراطوريـــة البريطانية وأمنها ورفاهها » (١٨٧) ·

---

(١٨٣) « الفكرة الصهيونية (الاصل الانكليزي)، ص٥٨٥ · الترجمة العربية، ص٤٥٥ ·

(١٨٤) Berlin, Isaiah, **Chaim Weizmann**, Farrar, Strauss and Cudahy, New York, 1958, pp. 41-42.

(١٨٥) Weizmann, Chaim, **Trial and Error**, Hamish Hamilton, London, 1949, p. 305.

(١٨٦) « كتاب هرتزل السنوي » ، ج ١ ، ص ٢ ·

(١٨٧) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ١٨٧ ·

لذلك وقع الاختيار على الحركة الصهيونية وبرنامجها كأفضل الوسائل واضمنها للحفاظ على فلسطين داخل مناطق نفوذ الامبراطورية · وقد افصح خبير الشؤون الفلسطينيـة في وزارة الخارجية البريطانيـة يومها فوربز آدامز عن هـذا الاختيار فقال عام ١٩١٩ ان هـدف السياسة البريطانية في تبنيهـا للحركة الصهيونيـة كان خلق دولة في فلسطين ومـن ثم تحويلها الى دولة يهودية (١٨٨) · اما التعبير الكلاسيكي عن طبيعة الارتباط بين الحركة الصهيونية والمصالح الاستراتيجية للامبريالية البريطانيـة في الشرق فنجده عند هيربرت سايدبوثام (Herbert Sidebotham) الخبير العسكري في صحيفة الغارديان (المؤيدة للصهيونية بقوة) وصاحب النفوذ والاتصالات الواسعة في الدوائر الانكليزية الحاكمة وقتئذ ، مما مكنه مـن القيام بدور كبير ومهم في الاعداد لوعد بلفور وفي المفاوضات التي مهدت له · حدد هذا الخبير الامبريالي والداعية الصهيوني المصالح البريطانية في الشرق على النحو التالي :

« مصر هي مصلحتنا الرئيسية في الشرق · وهـذا القول يعني ان فلسطين هي مصلحتنا الرئيسية كذلك ، لانها تشكل الآن ـ كما كانت دومـا ـ مفتاح مصر ··· يضاف الى ذلك ان مصر مهمـة بالنسبة لهذه البلاد (اي انكلترا) ليس بسبب ما تمثله بحد ذاتها فحسب، بل لانها تشكل المعبر الرئيسي في اتصالاتنا مع امبراطوريتنا الهندية » (١٨٩) ·

---

(١٨٨) شتاين ، « وعد بلفور » ، ص ٥٥٤ ·

(١٨٩) Sidebotham, Herbert, **England and Palestine: Essays Towards the Restoration of the Jewish State**, Constable and Co. Ltd. London, 1918, pp. 175, 176.

كان سايدبوثام ينتمي الى حلقة متنفذة جدا مـن المثقفين الخبراء في الشؤون الامبريالية · وقد شرح هؤلاء وجهات نظرهم حـول الاستراتيجيـة الفضلى للامبراطورية البريطانية في « الليفانت » وحول أهمية انشاء الدولة اليهوديـة في فلسطين ودورها في هذه الاستراتيجية في كتاب صدر عام ١٩١٤ عـن دار ماكميلان تحت عنوان « الحرب والديمقراطية » حرره أحد اعضاء الحلقـة البارزين : الفرد زيمرن · ويجب ألا يفوتنا هنا ان دعاة بناء الامبراطوريـة

وبناء على هذا التشخيص الدقيق توصل سايدبوثام الى نتيجة تقول بضرورة « اصطناع دولة عازلة في جنوب سوريا » (١٩٠) تكون جزءا من الامبراطورية مما سيخفف كثيرا من الاعباء التي ينبغي على بريطانيا ان تحملها من اجل ضمان مصالحها الامبريالية في المنطقة وحمايتها · لذلك تقدم سايدبوثام بالاقتراح التالي لتحقيق هذه الاهداف :

« من المؤكد تماما انه اذا ما اصبحت فلسطين جزءا من الامبراطورية البريطانية فلن يجري استعمارها ابدا ، بالمعنى الحقيقي للعبارة ، على يد ذلك النوع من الرجال الانكليز الذين صنعوا كندا واستراليا · لا احد غير اليهود يمكن ان يكون مستعمر فلسطين · لا احد غيرهم يستطيع بناء دومنيون ★ جديدة مستقلة على البحر الابيض المتوسط مرتبطة منذ البداية بهذا البلد في العمل الامبريالي ، فتشكل في آن واحد : عنصر وقاية من الشرق الغريب ووسيطا بينه وبيننا ، حضارة متميزة عن حضارتنا ولكن مشبعة بافكارنا السياسية ، تقف في المرحلة ذاتها من التطور السياسي وتدشن حياتها الثانية كأمة بدين وعرفان للجميل لهذا البلد باعتباره الاب الثاني لها » (١٩١) ·

وكان رئيس الوزراء البريطاني يومها، لويد جورج، مقتنعا تماما بوجهة نظر سايدبوثام ومتبنيا لارائه حول المصالح الحيوية للامبراطورية وكيفية حمايتها (١٩٢) · لذلك لا غرابة في ان يعلن امام هربرت صاموئيل، بعد دخول

....

←

الالمانية كان عندهم ايضا شخصيات شبيهة بسايدبوثام وكان اشهرها الرائد (رتبته العسكرية) فرانز كارل انذريس الذي كان يدعو المانيا الى دعم الحركة الصهيونية والتحالف معها لتحقيق الدولة اليهودية في فلسطين خدمة لمصالح الامبريالية الالمانية واستراتيجيتها التوسعية ·

(١٩٠) المرجع السابق ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ ·

(١٩١) المرجع السابق ، ص ١٨٦ ·

★ الدومينيون هو الاسم الذي اطلقه الاستعمار الانكليزي على الدول المستقلة داخل الكومنولث البريطاني باستثناء المملكة المتحدة نفسها ·

(١٩٢) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ١٨٣ · للتدليل على مدى ارتباط سايدبوثام بقادة الحركة الصهيونية من جهة وعلى تأثيره الكبير ونفوذه الواسع في الاوساط البريطانية الحاكمة من جهة ثانية نذكر الواقعة التالية : نشر سايدبوثام ←

الامبراطورية العثمانية الحرب ببضعة ايام ، بانه « متحمس لرؤية انشاء دولة يهودية في فلسطين » (١٩٣)٠ في المقابل عبرت الحركة الصهيونية عن ولائها للامبراطورية الانكليزية وعن اندفاعها الكامل باتجاه خدمة مصالحها وتحقيق اهدافها في الشرق ٠ ففي مذكرة رفعها كل من وايزمن واللورد روثتشايلد الى الوزارة البريطانية قبل صدور وعد بلفور بشهر تقريبا نقرأ العبارات التالية :

« ٠٠٠ لقد عهدنا بمصيرنا القومي والصهيوني الى وزارة الخارجية وحكومة الحرب الامبراطورية آملين ان يتم النظر الى المسألة في ضوء المصالح الامبراطورية والمبادىء التي يمثلها الحلفاء » (١٩٤) ٠

كما كرر وايزمان في رسالة كتبها (ولكن لم يرسلها) الى وينستون تشرشل عام ١٩٢١ فكرة سايدبوثام حول ضرورة اصطناع دولة في فلسطين بقوله :

« ٠٠٠حتى لو لم تكن فلسطين موجودة اعتقد انه سيكون من الضروري خلقها في سبيل مصالح الامبراطورية ٠ انها حصن مصر » (١٩٥) ٠

وكان قد شرح بشيء من التوسع الدور الذي ستقوم به المستعمرة ـ الدولة اليهودية في فلسطين في خدمة الامبريالية البريطانية في رسالة بعثها عام ١٩١٤ الى زعيم صهيوني آخر ، اسرائيل زانغويل ، حيث كتب :

....

←

مقالا افتتاحيا طويلا في صحيفة « الغارديان » في نوفمبر ١٩١٥ عرض فيه اهم الحجج والاعتبارات العسكرية والامبراطورية التي تدعو بريطانيا الى العمل على انشاء دولة يهودية في فلسطين ٠ بعد صدور المقال جرى توسيعه وتحويله الى مذكرة رسمية رفعها وايزمان باسم الحركة الصهيونية الى وزارة الخارجية البريطانية في ايار ١٩١٦ ٠ (راجع ، جون كيمشي ، « اسرائيل او فلسطين » ، ص ١١٠ ـ ١١١) ٠

(١٩٣) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ١٨٢ ٠

(١٩٤) « تهويد فلسطين » ، ص ٩٣ ٠

(١٩٥) Crossman, H.S., **A Nation Reborn**, Atheneum, New York, 1960, p. 161.

« لا يخامرني اي شك بان فلسطين ستقع ضمن دائرة (نفوذ) انكلترا ٠ فلسطين هي الامتداد الطبيعي لمصر والحاجز الذي يفصل قناة السويس عن ٠٠٠ البحر الاسود وعن كل عمل عدائي قد يصدر عن تلك الجهة ٠٠٠ سوف تكون (فلسطين) بلجيكا الآسيوية ، وبخاصة اذا جرى تطويرها على يد اليهود ٠ في ظروف مواتية الى هذا الحد او ذاك سيكون باستطاعتنا ان ننقل بسهولة مليونا من اليهود الى فلسطين خلال السنوات الخمسين او الستين القادمة ، وبذلك تحصل انكلترا على حاجز فعال بينما نحصل على وطن ٠٠٠ » (١٩٦) ٠

ب) تقوية موقع الامبريالية البريطانية في وجه مطامح الامبراطوريات الاخرى (الفرنسية ، والقيصرية بصورة رئيسية) عندما يحين وقت اقتسام تركة رجل اوروبا المريض بعد انتهاء الحرب ٠ يضاف الى ذلك الدور الذي تقوم به مستعمرة يهودية منظمة في فلسطين من حيث تقوية موقع بريطانيا في مواجهة التهديد الذي يشكله التيار الوطني الشعبي التحرري لمصالحها الاستعمارية في المناطق العربية ٠ على هذا الاساس قارن احد كبار المسؤولين السياسيين في جهاز المستعمرات البريطاني السير رونالد ستورز بين نتائج الاستعمار الانكليزي في ايرلندة وبين ما ينتظر ان يحققه هذا الاستعمار نفسه (من خلال الحركة الصهيونية) في فلسطين بقوله انه يتوقع من وعد بلفور بان يحقق :

« ٠٠٠ لانكلترا « أولستر★ يهودية صغيرة موالية » في بحر من العروبة المعادية من حيث المبدأ » (١٩٧) ٠

....

(١٩٦) شتاين ، « وعد بلفور » ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ٠ وايزمان ، « التجربة والخطأ » ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ٠

(١٩٧) Agwani, M.S., «The Palestine Conflict in Asian Perspective», **The Transformation of Palestine**, p. 446.

من المفيد الاشارة هنا الى ان المفاوضات السرية بين سايكس وبيكو ادت اول الامر الى تفاهم بين بريطانيا وفرنسا على وضع فلسطين تحت انتداب انكليزي ـ فرنسي مشترك ٠ لكن زعامة الحركة الصهيونية ضغطت بشدة على الساسة الانكليز (بما فيهم سايكس نفسه) لنقض هذا الاتفاق ولادخال فلسطين ضمن دائرة النفوذ الانكليزي وحده ٠ كانت القيادة الصهيونية تخشى ان يؤدي فرض

★ القسم الشمالي من ايرلندا حيث جرى الاستعمار الاستيطاني الانكليزي ٠

←

وقد اكد وايزمان دور المستعمرة اليهـودية في الوقوف ضـد المطامح التحررية لشعوب المنطقة العربية في اكثر من مناسبة . على سبيل المثال اكد في رسالته الى تشرشل ما يلي :

« فمن جهة سيترك وجود فلسطين اليهودية الحرية المطلقة لكم في اتباع اية سياسة تلائمكم (في مصر) ... ويصعب على الانسان ان يفهم كيف يمكن بناء اي شيء استنادا الى الولاء العربي في بقعة قريبة الى هذا الحد من نقطة المواصلات الحيوية عبر برزخ السويس . ان كل ما رأيناه من الحركة العربية وسمعناه عنها يقود الانسان الى الاعتقاد بانها معادية لاوروبا . ولذا فان السياسة الصهيونية ازاء فلسطين لا تشكل هدرا على الاطلاق ، بل هي ضمانة ضرورية نقدمها لكم بسعر ابخس مما يمكن ان يحلم به اي انسان آخر » (١٩٨) .

ج) اعتبارات دقيقة ومحسوبة بعناية تتعلق بمجرى الثورة في روسيا . وهنا علينا ان نذكر ان وعد بلفور صدر في الفترة الواقعة بين ثورتي فبراير واكتوبر ولم يكن اصداره معزولا على الاطلاق عن سقوط النظام القيصري والتطورات الجارية في روسيا على صعيد قوى الثورة البروليتارية الصاعدة مما ارعب الطبقات الحاكمة في الدول الرأسمالية الى اقصى الحدود . وكما هو متوقع وقفت الحركة الصهيونية ايضا موقفا معاديا من تقدم قوى الثورة

....

→

الانتداب المشترك الى تعقيدات تعيق تحقيق اهدافها . لذلك تذكر المراجع الصهيونية المعنية كيف ظهر وايزمان وقتها بمظهر « الملكي اكثر من الملك » بالنسبة لالحاق فلسطين بالامبراطورية البريطانية ، وكيف ظهرت القيادة الصهيونية عموما ، فيما يتعلق بهذا الموضوع ، بمظهر الحريص على المصالح الامبريالية البريطانية الى درجة اعظم من حرص اصحاب الامبراطورية انفسهم. وقد توصل سايكس ووايزمان الى تفاهم بينهما بحيث يعمل الاول على اقصاء فلسطين عن منطقة النفوذ الفرنسي بينما يعمل الثاني على ضمان التأييد اليهودي والامريكي للسياسة التي ستنتهجها بريطانيا بعد الحرب . ويبدو ان كلاهما قد بر بوعده للاخر . (راجع « اسرائيل او فلسطين » ، ص ١١٢ـ١٣١).

(١٩٨) كروسمان ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

البروليتارية في روسيا لان مجرد حصول اليهود على حقوقهم (على اثر ثورة فبراير) ضرب الحركة في الصميم وجردها من اسلحتها ومن دعوتها المرتكزة على حتمية استمرار معاداة السامية في كافة المجتمعات مهما كان نوعهـا ، وعلى ضرورة هجرة اليهود من روسيا الى فلسطين بسبب الاضطهاد اللاحق بهم في ظل النظام القيصري المهترىء · يضاف الى ذلك ان الانزعاج الامبريالي ـ الصهيوني كان شديدا من موقف الحزب البلشفي المعادي للحرب المشتعلة بين الامبراطوريات والداعي لانسحاب روسيا منها ولاحلال السلام على اساس مبدأ حق تقرير المصير للشعوب المقهورة وتحريم ضم اية اراض من قبل الدول المتحاربة · ان المبادىء التي رفعتها قوى الثورة البروليتارية في روسيا تعني حرمان الامبراطورية الانكليزية من السيطرة على فلسطين وترك شعبها العربي يقرر مصيره بنفسه ، مما كان سيعني بدوره منع الحركة الصهيونيـــة من الاستمرار في استعمارها للبلاد والاستيلاء عليها بالتدريج · ومن المعروف ان بريطانيا كانت قد عقدت مفاوضات سرية مع فرنسا حول تقاسم الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية انتهت باتفاقية سايكس بيكو المشهورة حيث تم التفاهم على خلق منطقة نفوذ فرنسية في سوريا ومنطقة نفوذ بريطانيـــة حول دجلة والفرات ، ووطن قومي يهودي في فلسطين · ويرجع الفضـل في فضح وجود الاتفاقية ونصوصها الى ثورة اكتوبر · لذلك لا غرابة ان استنفرت الجبهة الامبريالية ـ الصهيونية قواها الممكنة جميعا للتأثير على يهود روسيا من خلال اجهزة الحركة الصهيونية وتنظيماتها هناك كي يوظفوا طاقاتهم في خدمة الاتجاهات المضادة للثورة البروليتاريـــة ويمتصوا الطاقات الثورية اليهودية ويحولوها الى مجار اخرى تفيد الامبريالية واستمرار الحرب وثبات الوضع القائم يومها في روسيا · وانطلاقا من هذا الموقع اصبح اصدار وعد بلفور اداة من الادوات الرئيسية التي استخدمتها الجبهـــة الامبرياليـة ـ الصهيونية على امل التأثير في يهود روسيا بالاتجاه الذي ذكرنا ·

كان الطرف البريطاني ـ الصهيوني يأمل بان يشكل اصدار الوعد حافزا قويا ليهود روسيا كي يلقوا بثقلهم ضد قـــوى الثورة البروليتارية ويعيقوا تقدمها لاستلام السلطة · هذا بالاضافة الى تأثيره المفترض في تحييد الطاقات اليهودية المنخرطة في الكفـــاح البروليتاري واضعافها مما سيعزز مـــركز البورجوازية الحاكمة ويبقي روسيا في ساحة الحرب · كما كان متوقعـا ان يؤدي الوعد الى نشاط صهيوني في روسيا ضد موقف الحزب البلشفي مـن الحرب وضد دعوته للسلام على اساس مبدأ حق تقرير المصير وتحريم ضم

الاراضي · يقول الكاتب الصهيوني ليونارد شتاين ما يلي حول الدور الطبيعي للحركة الصهيونية بعد ثورة فبراير في روسيا :

« جعلت احداث عام ١٩١٧ الاستدارة (استدارة الامبريالية البريطانية وحلفاؤها) نحو الصهيونية امرا طبيعيا باعتبارها قوة تعمل على الاستقرار في العالم اليهودي ، كما جعلتها عاملا ثمينا بسبب قدرتها ـ اذا ما اتيحت لها الفرصة ـ على توفير عنصر مضاد للهوس المدمر الذي اصاب اليهود في تمردهم على وضعهم وذلك عن طريق تقديم مخرج سليم لطاقاتهم المحبطة » (١٩٩) ·

وفي الفترة نفسها القى وايزمان خطابا في اجتماع الاتحاد الصهيوني الانكليزي شدد فيه ، بلغة دبلوماسية ، على ضرورة استقرار الاوضاع في روسيا عند حدود حكم كيرنسكي وطالب الحركة الصهيونية في كل مكان بالعمل في هذا الاتجاه ، او على حد قوله :

« يتوقف مصير اليهود ومصير الحركة الصهيونية الى حد كبير على استقرار الاوضاع في ذلك الجزء من العالم (روسيا) · وانا واثق من ان المنظمة الصهيونية في كل ارجاء العالم ، وبخاصة اصدقاءنا في روسيا ، سيضطلعون بمهمة مشرفة هي المساهمة ـ قدر طاقاتهم ـ في اقرار الاوضاع في روسيا » (٢٠٠) ·

وكي يقوي دعوته ويحث المنظمات الصهيونية على العمل بنشاط بموجبها اعلن بصورة شبه رسمية عن استعداد الحكومة البريطانية لدعم الحركة الصهيونية ومخططاتها في اشارة واضحة الى وعد بلفور المزمع اصداره في وقت قريب ، كما اعرب عن توقعه بان تكون احدى نتائج الحرب هي :

« قيام دولة عادلة وجبارة مثل بريطانيا العظمى بحماية ذلك البلد الجميل فلسطين » (٢٠١) ·

وبعد بضعة اشهر ارسل وايزمان برقية الى الزعيم الصهيوني الروسي روزوف دعاه فيها الى بذل اقصى الجهود لتقوية المشاعر الموالية لبريطانيا في اوساط يهود البلاد ومحاربة كل التأثيرات المعاكسة لهذا الاتجاه ، وحثه على ذلك بقوله :

(١٩٩) شتاين ، « وعد بلفور » ، ص ١٦٢ ·
(٢٠٠) سوكولو ، ج٢ ، ص ٥٥ ·
(٢٠١) المرجع السابق ، ص ٥٦ ·

« تذكر التطابق الذي صنعته العناية الالهية بين المصالح البريطانية واليهودية · في هذه اللحظة الحرجة والجليلة نحن نتكل عليكم للقيام بأقصى ما يمكنكم القيام به » (٢٠٢) ·

ولا شك ان الحركة الصهيونية عملت كل ما في وسعها على دعم القوى المضادة للثورة في روسيا وذلك بشهادة لويد جورج نفسه (رئيس الوزراء في فترة الحرب)الذي اعلن امام مجلس العموم البريطاني عام ١٩٣٧ ان الصهيونيين :

« ···مدوا لنا يد العون في امريكا وفي روسيا ، روسيا التي كانت تنسحب في تلك اللحظة لتتركنا وحدنا (في ساحة الحرب) » (٢٠٣) ·

ليس من الغريب اذن ان يعد الزعيم الصهيوني جابوتنسكي ثورة اكتوبر كارثة كبرى ومصدر الشرور في تاريخ الانسانية اللاحق (٢٠٤) وان يتآمر عليها مع القوى الرجعية التي غزت اراضي الاتحاد السوفياتي في محاولة

---

(٢٠٢) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ٢٠٣ ·

(٢٠٣) Lenczowski, G. (ed.), **The Middle East in World Affairs,** Cornell University Press, Ithaca, N.Y., 1956, pp. 81-82.

(٢٠٤) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ٣٨١ · كان وايزمان ايضا يكن عداء شديدا لثورة اكتوبر ·على سبيل المثال يقول في احدى رسائله الى القاضي الامريكي الصهيوني براندايس (وهي رسالة غير منشورة) ان السلطة البلشفية « تلجأ الى القوى الاكثر ظلاما في روسيا وآسيا الوسطى » على امل ايصال دعايتها الى مصر والهند · وفي احد الاجتماعات التي عقدها مع القيادات الفلسطينية والعربية اثناء وجوده في فلسطين عام ١٩١٨ اعلن ان الصهيونيين يعارضون البلاشفة ويساعدون انكلترا والحلفاء على تخليص روسيا منهم ومن حكمهم· من الملفت للانتباه ان النقطة الوحيدة التي كان يتفق فيها وايزمان مع الزعامات العربية في فلسطين يومها هي العداء للشيوعية ولسلطة البلاشفة · ففي احد هذه الاجتماعات اشاد الوفد العربي بمصطفى كمال وحركته الوطنية في تركيا فأجاب وايزمان قائلا بان البلاشفة هم المحركون الحقيقيون وراء مصطفى كمال والكمالية · هنا رد عليه موسى كاظم باشا بقوله ان الحركة الصهيونية تعمل على اغراق فلسطين بالمهاجرين البلاشفة من روسيا · ونفى وايزمان هذه التهمة بشدة طبعا · (راجع « اسرائيل او فلسطين » ، ص ١٢٩ ، ١٧١ ، ١٩٠ ـ ١٩٢) ·

مخفقة للاطاحة بأول سلطة للعمال والفلاحين في العالم ٠

مع ان المظهر الخارجي لوعد بلفور واسلوب اصداره (على شكل رسالة موجهة الى اللورد روثتشايلد) يحاولان الايحاء بانه لا يتعدى كونه التفاتة انسانية بريئة من قبل الحكومة البريطانية الى اليهود ومشكلتهم فان الواقع هو عكس ذلك تماما كما بينت الدراسات المتعددة التي تناولت الوعد ومحصت المقدمات التي ادت اليه ودققت بطبيعة المفاوضات التي جرت قبل اصداره ٠ وتبين كل هذه الدراسات (حتى ذات الميول الصهيونية منها) ان نص الوعد جاء نتيجة مفاوضات دقيقة بين الحكومة البريطانية وزعماء المنظمة الصهيونية تطرقت بالبحث والتدقيق الى كل كلمة من كلماته وذلك مع مشاركة الحكومة الامريكية واطلاع السلطات الفرنسية والايطالية ٠ وهذا يعني اولا ، ان المصدر الحقيقي للوعد لم يكن بريطانيا وحدها بل الجبهة الامبريالية كلها التي كانت تقودها بريطانيا يومئذ ٠ ثانيا ، ان الزعامة الصهيونية كانت تدرس بدقة المقترحات البريطانية حول نص الوعد وتراجع بعناية المسودات المقدمة اليها ، كما كانت تتقدم هي بمقترحاتها ومسوداتها الى الحكومة حول صياغة الوعد الى ان تم التوصل الى الصيغة النهائية المعروفة٠على سبيل المثال يقول ناحوم سوكولو، الذي شارك مشاركة فعالة في اعداد نص الوعد ، ما يلي حول هذا الموضوع:

« كانت كل فكرة تولد في لندن تخضع لامتحان المنظمة الصهيونية في امريكا ٠ وكان كل اقتراح يأتي من امريكا يلقى اقصى ما يمكن من الاهتمام الدقيق في لندن ٠٠٠ وكانت المفاوضات الدائرة في الاوساط السياسية في انكلترا وفرنسا معروفة لدى امريكا، حيث كان كل نجاح يلقى ترحيبا حماسيا، كما كان يلقى في معظم الحالات دعما اضافيا هناك (اي في امريكا) »(٢٠٥)٠

ومن ابرز سمات الوعد اغفاله الكلي لوجود الشعب العربي الفلسطيني واختزال حضوره الى مجرد « جماعات غير يهودية موجودة في فلسطين » في حين كان يشكل ما يزيد على ٩٠٪ من سكان البلاد ٠ يضاف الى ذلك ان الوعد جرد الشعب الفلسطيني من الحقوق السياسية والوطنية جميعا واستعاض عنها بالحقوق الدينية والمدنية فحسب ، بينما ضمن الوعد للبورجوازية اليهودية في اوروبا « حقوقها ومكانتها » بالمعنى السياسي للكلمة وذلك في معرض تطمينه هذه الطبقة على عدم تأثر وضعها القائم

(٢٠٥) سوكولو ، ج٢ ، ص ٨٢ ٠

ومصالحها الراهنة من جراء تنفيذ المشروع الصهيوني · في الواقع يتبين من دراسة السياسات الكامنة وراء اصدار وعد بلفور ان اهماله التام للشعب الفلسطيني ونفيه الصارخ لحقوقه السياسية والوطنية كان تعبيرا مبكرا عن مخطط الجبهة الامبريالية ـ الصهيونية لمنع هذا الشعب بالقوة ، بعد انتهاء الحرب،من ممارسة حقه في تقرير المصير ومن ثم ابعاده عن ارض وطنه لاحلال المهاجرين والمستوطنين اليهود محله · وقد اتضح الاتجاه الاول في المذكرة التي اعدها بلفور عام ١٩١٩ حول «سوريا وفلسطين وما بين النهرين»(٢٠٦) والتي وصلت منها نسخة الى رئيس الولايات المتحدة،وودرو ويلسون (٢٠٧)· وفي المقابلة التي اشرنا اليها سابقا بين بلفور والقاضي الامريكي الصهيوني براندايس (٢٠٨) (المقرب من الرئيس ويلسون) جرت مناقشة لنقطة رئيسية في المذكرة تتلخص في تشديد بلفور على ضرورة استثناء فلسطين من اي تطبيق لمبدأ حق تقرير المصير الذي كان ينادي به الرئيس ويلسون (في محاولة لم تنجح يومها لمد نفوذ الامبريالية الامريكية خارج نطاق امريكا اللاتينية الى مناطق نفوذ الامبرياليات الاوروبية وعلى حساب الاخيرة) لان الدول الكبرى ملتزمة ببرنامج الحركة الصهيونية الذي يتعارض مع تطبيق مبدأ حق تقرير المصير على اساس رغبات اكثرية الشعب · اذ انه ليس مفروضا بالدول المعنية ان تتعامل مع رغبات السكان الحاليين لفلسطين ، بل ان تعمل بوعي وتصميم على بناء جماعة جديدة فيها تصبح في المستقبل هي الاكثرية في البلاد (٢٠٩) · واستفسر بلفور ، بعد هذا الشرح ، من براندايس عن موقف الرئيس ويلسون من التعارض الواضح بين مناداته بتطبيق مبدأ حق تقرير المصير من جهة والتزام الدول الكبرى بضرورة تنفيذ المشروع الصهيوني من جهة ثانية · وكانت اجابة القاضي الامريكي الموافقة على ضرورة التعامل مع المشكلة على اساس المجتمع اليهودي الجاري بناؤه في فلسطين وليس على اساس الرغبات الحاضرة للسكان الموجودين فيها حاليا (٢١٠) · كتب بلفور ما يلي في مذكرته حول هذا الموضوع :

....

(٢٠٦) خالدي ، ص ٢٠١ ـ ٢١١ ·

(٢٠٧) المرجع السابق ، ص ١٩٧ ·

(٢٠٨) المرجع السابق ، ص ١٩٥ ـ ١٩٩ ·

(٢٠٩) المرجع السابق ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ·

(٢١٠) المرجع السابق ، ص ١٩٨ ·

« ففي فلسطين لا نعتزم حتى القيام بشكليات استشارة السكان الحاليين للبلاد حول رغباتهم على الرغم من ان البعثة الامريكية★ تقوم حاليا بمثل هذا العمل عن طريق سؤالهم عن ماهية هـــذه الرغبات · ان الدول الاربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية ، اذ ان للصهيونية ـ ان كانت محقة ام مخطئة ، صالحة ام طالحة ـ جذورها في تقاليد عريقـــة وحاجات راهنة وآمال مقبلة ذات اهمية اعمق بكثير من رغبات واهواء سبعمائة الف عربي يسكنون الآن تلك الارض القديمة » (٢١١) ·

اما الاتجاه الثاني في السياسة الكامنة وراء وعد بلفور (اي اجـــلاء شعب فلسطين عن ارضه) فلم تفضحها الوقائع التاريخية اللاحقة فحسب، بل تم الاعتراف بها عام ١٩٦٤ من قبـــل صديق مقرب من وايزمان نفسه هو السياسي البريطاني الصهيوني اللورد بوثبي (٢١٢) الذي اعلن في مناسبة احتفالية لتكريم ذكرى وايزمان ان :

« وعد بلفور الاصلي اخذ بعين الاعتبار نقـــل العرب الى مكان آخر نوعا ما » (٢١٣) ·

واثار تصريح بوثبي موجة من النقد والسجال في الاوساط الصهيونية الى ان قامت ارملة وايزمان بتأكيد صحـــة ما قاله اللورد ، بالاضافـــة الى تأكيد آخر مشابه صدر عن احـــد المسؤولين الكبار في « ارشيفات وايزمان » (Wizeman Archives) في اسرائيل (٢١٤) · وعلى اثر ذلك كتب بوثبي ما يلي في احدى المجلات الصهيونية البريطانية الرئيسية :

« ··· اني مدرك تماما ان « الخط الصهيوني الرسمي » الراهن يقول بانه لم يجر التفكير في اي وقت من الاوقات بعملية نقل للشعوب العربيـــة في الشرق الاوسط · لكني اعتقد بان هذا الكلام يجانب الصواب تماما ··· اذ حتى اتمام التسويـــة التي فرضها تشرشل وترانشارد ولورنس على الشرق الاوسط في ١٩٢١ ـ التي شملت اقامة دولـــة شرقي الاردن ـ كانت النظرة

★ اي بعثة كينغ ـ كرين ·

(٢١١) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ ·

(٢١٢) « تهويد فلسطين » ، ص ١٨٩ ـ ١٩٥ ·

(٢١٣) المرجع السابق ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠·

(٢١٤) « تهويد فلسطين » ، ص ١٩٠ ·

السائدة تقول بان نقلا جزئيا للسكان هو امر متضمن في وعد بلفور وسيكون نتيجة من النتائج المترتبة عليه » (٢١٥) ٠

ويؤكد السير آليك كيركبريدج في مذكراته ما كشفه اللورد بوثبي حول المخططات الخاصة بالشعب الفلسطيني والكامنة وراء وعد بلفور ٠ والسير كيركبريدج هو من اوائل المسؤولين الذين عينتهم الحكومة البريطانية في فلسطين عام ١٩١٨ ثم في شرق الاردن فيما بعد ٠ يقول ان المراد من الاراضي المهملة الواقعة شرقي نهر الاردن هو :

« قيامها بدور الارض الاحتياطية من اجل استخدامها في اعادة اسكان العرب حالما يصبح وطن اليهود القومي في فلسطين ـ وهو ما تعهدت (الحكومة البريطانية) بتأييده ـ امرا واقعا » (٢١٦) ٠

في ١٦ اكتوبر ١٩١٧ قام مستشار الرئيس ويلسون الخاص، الكولونيل هاوس ، بابلاغ الحكومة البريطانية ان الولايات المتحدة تدعم مشروع اصدار وعد بلفور (٢١٧) ٠ وكانت هـذه هي الخطوة الاخيرة في سلسلة المداولات الطويلة بين اطراف الجبهة الامبريالية حول هذا الموضوع ، اذ صدر الوعد بتاريخ ٢ نوفمبر من العام نفسه ٠ واكتسب الوعـد « شرعيته » الامبريالية الدولية عندما صادقت عليه حكومات كل من فرنسا وايطاليا والولايات المتحدة في ١٩١٨ ٠

في العام نفسه احتلت الجيوش الانكليزية فلسطين بقيادة الجنرال النبي٠ وفي عام ١٩٢٣ تم اعـلان الانتداب البريطاني على فلسطين من قبل مجلس عصبة الامم ٠ وتضمن صك الانتداب ، الذي حررته بريطانيا ، وعد بلفـور كاملا : اذ نصت مادته الثانية على ان بريطانيا تتحمل مسؤولية خلق الظروف السياسية والاقتصادية والادارية المناسبة لضمان اقامـة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ٠ كما نص احد بنود مادته الرابعة على اعتراف بريطانيا بوكالة يهودية تشارك في ادارة فلسطين في كل ما يتعلق بالمشكلات الاقتصادية

---

(٢١٥) **Jewish Observer and Middle East Review**, London, February 28, 1964, p. 20.

(٢١٦) « تهويد فلسطين » ، ص ١٩١ ٠

(٢١٧) وايزمان ، « التجربة والخطأ » ، ص ٢٦٢ ٠

او الاجتماعية التي قد تشكل عقبة في وجه اقامة الوطن القومي اليهودي ٠ كذلك نصت مادته الحادية عشرة على تخويـــل الادارة البريطانية « التعاون مع الوكالة اليهودية في برمجة المشاريع والاشغال العامة والخدمات بانواعها جميعا ، وفي زيادة كافة الموارد الطبيعية للبـلاد » ٠ وعدَّ الصك المنظمـــة الصهيونية العالمية بمثابة الوكالة اليهودية المشار اليها مما اضفى على المنظمة « شرعية » عصبة الامم ٠

ولكي تبرهن بريطانيا بشكل مضاعف عن عزمها علىتنفيذ مشروع اقامة الوطن القومي اليهودي عينت صهيونيا متعصبا كأول مندوب سامي لهـا في فلسطين هو هربرت صاموئيل ٠ والمعروف ان صاموئيل قام بدور هام جدا في الاعداد لاصدار وعد بلفور وانه احد كبار دعاة ضم فلسطين الى الامبراطورية وانشاء دولة يهودية فيها تحت اشراف بريطانيا وبمساعدة الولايات المتحدة٠ ان جعل فلسطين محمية بريطانية ، وفقا لرأي صاموئيل ، سيمكن :

« انكلترا من تأدية دورها التاريخي في منطقة اخرى كممدنة للبـــلدان المتأخرة » (٢١٨) ٠

كذلك عينت بريطانيا نورمـــان بنتويتش في منصب المـــدعي العام في فلسطين والمسؤول الاول عن التشريع في البـــلاد وهو صهيوني متحمس ٠ كما سلمت شؤون الهجرة الى صهيوني آخـــر هو البرت هايمسون وعينت السير ويندهام ديدس سكرتيرا اولا في جهاز الادارة البريطانية ٠ وكان هذا يعتقد (كصهيوني مندفـع) ان عمله في اعادة اليهـــود الى الارض المقدسة سيعجل في عودة المسيح الى الارض (٢١٩) ٠

بعد وقوع فلسطين تحت الاحتلال ومن ثم الانتداب البريطاني تعاونت الادارة البريطانية مع المنظمة الصهيونية ، الممثلة باللجنة التنفيذية لفلسطين (اي الوكالة اليهودية) ، تعاونا وثيقا خلق الظروف المناسبة لانشاء الوطن القومي اليهودي ٠ وشمل هذا التعاون موافقة السلطات البريطانية عـــلى عمليات تهريب الاسلحة التي كانت تقوم بها المنظمة الصهيونية ٠ ففي محادثة جرت في صيف ١٩٢٢ بين وايزمان وعدد من كبار المسؤولين في الحكومـــة

---

(٢١٨) « تهويد فلسطين » ، ص ٥٧ ٠

(٢١٩) خالدي ، ص ٢٣٢ ٠

البريطانية من امثال بلفور ولويد جـــورج وونستون تشرشل (٢٢٠) اعترف وايزمان بان جماعته كانت تهرب الاسلحة الى فلسطين · وكان تعليق تشرشل على هذا الاعتراف «لا بأس في ذلك بالنسبة لنا ، لكن لا تتكلموا عنه» (٢٢١)· بعد ذلك طالب وايزمان بحق ادخال الاسلحة بصورة شرعية وسأل مستمعيه اذا كانوا يوافقون على طلبه ، فاجابوا بالايجاب (٢٢٢) ·

وفي عام ١٩٢٩ اعادت الحركة الصهيونية النظر بتنظيمها الداخلي على ضوء التقدم الذي احـــرزته في استعمار فلسطين واستيطانها من ناحيـــة ، وبروز الولايات المتحدة كقوة دولية رئيسية تضم جالية يهودية كبيرة وثرية ، من ناحية ثانية · على هذا الاساس تم توسيع الوكالة اليهودية ، تحت اشراف وايزمان ، بحيث اصبحت تضم ممثلين عن يهـود امريكا غير المنتمين رسميا الى الحركة الصهيونية ولكن المستعدين لدعم عملها الاستعماري في فلسطين· وحصل هؤلاء على نصف المقاعد في مجلس الوكالة اليهودية الموسعة · وجاء هذا الاجراء بمثابة خطوة أولى واضحة على طريق تحول الحركة الصهيونية التدريجي من الاعتماد على حماية الامبرياليـــة البريطانية الى الاعتماد على حماية الامبريالية الامريكية الصاعــــدة يومئذ · وعلى اثر توسيع الوكالة اليهودية تنازلت المنظمة الصهيونية عن معظم حقوقها ومسؤولياتها الى الوكالة الموسعة برئاسة وايزمان ، واعترفت بريطانيا رسميا بالوكالة الجديدة عــام ١٩٣٠ ·

ننتقل الان الى مراجعة مواقف الحركة الصهيونية ونشاطها على صعيد الاستعمار الاستيطاني · ان اهم ما ينبغي لفت الانتبـاه اليه في هذا الصدد هو ان استعمار الحركة الصهيونية حمل كافة خصائص الاستعمار الاستيطاني الكلاسيكي ـ كما في جنوب افريقيا وروديسيا مثـــلا ـ بالاضافة الى صفة خاصة به هي نزعته الاجلائية المتأصلة في التعـــامل مع سكان البلاد المزمع الحلول فيها والاستيلاء عليها ·

---

(٢٢٠) Meinertzhagen, Richard, Colonel, **Middle East Diary 1917-1956,** Yoseloff, New York, 1960, pp. 103-106.

(٢٢١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ ·

(٢٢٢) المرجع السابق ·

نقول «المتأصلة» ردا على الوهم الذي نشرته الكتابات الصهيونية بنجاح خلال سنوات طويلة والقائل بأن القادة الاوائل للحركة في اوروبا كانوا يجهلون ان فلسطين مأهولة بالسكان وظنوها « ارضا بلا شعب » فطالبوا باعطائها الى « شعب بلا ارض » . وهناك من قال بأن بعض هؤلاء القادة كان على درجة من السذاجة والبساطة جعلته يتجاهل لفترة طويلة وجود العرب في فلسطين ، اما بعضهم الاخر فكان على درجة من الطيبة والبراءة حتى انه ظن بأن سكان البلاد سيقبلون بانشاء الوطن القومي اليهودي على ارضهم بكل رحابة صدر ودون ابداء اية مقاومة تذكر (٢٢٣) . الا ان هذه المزاعم جميعا مخالفة للوقائع التاريخية ، اذ مر معنا ان المشروع الصهيوني تضمن بوضوح منذ تبلوره في مدرسة اللورد شافتسبوري واتباعه دعوة لاجلاء سكان فلسطين عن ارضهم كجزء من عملية احلال المستوطنين اليهود محلهم . يضاف الى ذلك ان التدقيق في كتاب هرتزل « الدولة اليهودية » يبين ان واضعه كان على علم تام بان فلسطين بلاد مأهولة وان سكانها لن يتقبلوا الاستعمار الاستيطاني دون مقاومة شديدة . وتحسبا لهذه المقاومة حذر هرتزل من الاستيطان باسلوب « التسلل » ودعا الى الهجرة على اساس واسع بعد تأمين التفوق المسبق للقوى المستعمرة (بكسر الميم) . ويقول في معرض مناقشته لكون كل من الارجنتين وفلسطين ملائمة للاستيطان اليهودي :

« لقد تم اجراء تجارب هامة في الاستعمار في كلا البلدين لكن على اساس المبدأ الخاطىء القائل بتسلل اليهود التدريجي اليهما . ولا بد للتسلل من ان ينتهي الى نهاية سيئة لانه سيتوقف عند مجيء اللحظة المحتومة التي يشعر فيها **السكان الاصليون** بانهم مهددون فيرغمون الحكومة على وقف المزيد من التدفق اليهودي . نتيجة لذلك تبقى الهجرة بلا طائل ما لم تستند الى تفوق مضمون » (٢٢٤) .

---

(٢٢٣) راجع مثلا :
Elon, Amos, **The Israelis: Founders and Sons,** Weidenfeld and Nicolson, London, 1971, pp. 148-151.

وهو كتاب لاقى رواجا واسعا جدا . وجدير بالاشارة هنا الى ان مفكرة ممتازة ومعادية للصهيونية من وزن حنة أرندت قد وقعت في مثل هذا الخطأ ايضا . انظر صفحة ٢٢٠ من كتاب : **Zionism Reconsidered**

(٢٢٤) « الدولة اليهودية » ، ص ٢٩ . الترجمة العربية « الفكرة الصهيونية »، ص١١٩، التشديد من اضافتنا .

ثم اكد بأن الحركة الصهيونية ستقـــدم مكاسب كبيرة لمالكي الارض الحاليين (٢٢٥) • ولما سأله وزير الـــدولة الالماني فون بالو ، بعد سنتين من صدور كراسه « الدولـــة اليهودية » ، عن هوية مالكـــي الارض التي يريد استعمارها اجاب هرتزل بعبارات مفعمة بالعنصرية :

« عرب ويونان ، دهماء الشرق المختلطة برمتها » (٢٢٦) •

اي ان ماليكهاهم لا احد يستحق الذكر في نظر المستعمر الاوروبي الغربي • بعبارة اخرى حملت الحركة الصهيونية كل الخصائص العنصرية والشوفينية والاستغلالية التي كانت تحملها عـــادة الحركات الاستعماريـــة الاستيطانية الاوروبية ازاء شعوب عالم المستعمـرات واشباه المستعمرات ، هذا بالاضافة الى صفتها الاجلائية الخاصة بها • وعبر هرتـــزل عن هذه النزعة المتأصلة بوضوح في يوميـــاته حيث اكد ضرورة استغـــلال سكان البلاد الاصليين والاستفادة من عملهم في الاعداد للاستيطان اليهـــودي ومن ثم العمل على اجلائهم عن وطنهم بصورة تدريجية • يقول هرتزل حول الافادة من عمل سكان البلاد قبل ترحيلهم الى بلاد العبور ما يلي :

« اذا رحلنا الى منطقة تعيش فيها حيوانـــات متوحشة لم يعتد عليها اليهود ـ الافاعي الكبيرة الخ • ـ سأستخدم السكان الاصليين ـ قبل تشغيلهم في بلاد العبور ـ لابادة هـــذه الحيوانات • مكافآت كبيـــرة مقابل جلود الافاعي الخ ••• » (٢٢٧) •

واثناء زيارته لفلسطين لاحظ هرتزل ان المستوطنين اليهود كانوا يعانون كثيرا من الحمى بسبب كثرة المستنقعات في المنطقة وانخفاض مستوى مناعتهم (على عكس سكان البلاد) فاقترح تشغيـــل العرب في تجفيف المستنقعات واستصلاحها حتى تصبـــح البـــلاد اكثـــر ملاءمة لـــزاج المستوطنين الاوروبيين (٢٢٨) • وعلـــى أثر الزيارة التي قام بها الكـــاتب اليهودي

(٢٢٥) المرجع السابق ، ص ٣٠ • الترجمة العربية ، ص ١١٩ •

(٢٢٦) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ٢ ص ٧٠٢ • الترجمة العربية «يوميات هرتزل»، ص ٩٨ •

(٢٢٧) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ١ ، ص ٩٨ • الترجمة العربية ، ص ٧٧ ـ ٧٨ •

(٢٢٨) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٤٠ ـ ٧٤١ • في الترجمة العربية انظر ص ٧٨•

والصهيوني المشهور آحاد هاعام لفلسطين وصف عام١٨٩١ سلوك المستوطنين اليهود هناك تجاه سكان البلاد على النحو التالي :

« انهم يعاملون العرب بروح العداء والقسوة ، ويحرمونهم من حقوقهم ويسيئون اليهم دون اي سبب، كما انهم يذهبون الى حد المفاخرة بتلك الافعال، ولا احد بيننا يعارض هذه الميول الخسيسة » (٢٢٩) ٠

في الواقع ان هرتزل هو واضع الخطـوط العامة للبرنامج الاستعماري الاستيطاني الاجلائي الذي طبقته الحركة الصهيونية بدقة في فلسطين ٠ شرح هرتزل البرنامج الصهيوني على النحو التالي :

« عندما نحتل البلاد يجب علينـا تجريد اصحاب الارض المخصصة لنا من ملكيتهم لها وذلـك بلطف ٠ سنحاول دفع السكـان المعدمين خلسة عبر الحدود عن طريق تأمين الاشغال لهم في بلدان العبور وحرمانهم من اي عمل في بلدنا ٠٠٠ يجب تنفيذ عمليتي التجريد من الملكية وترحيـل الفقراء بتكتم وحذر ٠ وليعتقد اصحاب الملكية غير المنقولة بأنهـم يخدعوننا ببيعنا اشياء بأكثر من قيمتها لكننا لن نعيد بيع اي شيء لهم » (٢٣٠) ٠

نجد في هذا الشرح الدعائم الاساسيـة للسياسةالـتي تبعتهـا الحركة الصهيونية في استيلائها على فلسطين، أي: أ) نزع ملكيتها من اصحابها بشكل لا يسمح لسكان البلاد الافـادة من الارض التي تنتقل ملكيتها الى المنظمة الصهيونية ، او استعادتها بأية صورة من الصور ٠ ب) منع سكان البلاد من العمل في المشاريع التي يقيمها المستوطنون او على الارض التي يستملكونها، وقد طبقت الحركة الصهيونية هذه السياسة في فلسطين تحت شعار « العمـل العبري فقط » ٠ ج) اجـلاء شعب البلاد عن وطنـه لافساح المجال امام المستوطنين اليهود الآتين من اوروبا وغيرها من انحاء العالم ٠ د) بناء قوة مسلحة متفوقة على ما هو متوفر عند الشعب الذي ازمعواعلى استعمار بلاده واجلائه عنها ٠ ومع ان هرتزل لم يشر الى بناء القوة العسكريـة في الفقرة التي اوردناها اعلاه فان هذا لا يعني انه لم يكن يدرك اهميتها بالنسبة لتنفيذ

---

(٢٢٩) «تهويد فلسطين » ، ص ١٨٤ ٠

(٢٣٠) « يوميات هرتزل الكاملة » ، ج ١ ، ص ٨٨ ٠ الترجمة العربية «يوميات هرتزل»، ص ٧٦ ٠

مخططات الحركة الصهيونية ، اذ انه كان يعرف تماما ان ما من تجربة استعمارية استيطانية سابقة الا وتم فرضها وتثبيتها بالحديد والنار والتنظيم العسكري المتفوق عند جماعات المستوطنين الاوروبيين · لذلك نراه يدعو الى تدريب الفتيان اليهود كي يصبحوا جنودا في جيش محترف (٢٣١) (تقدر قوته بعشر عدد الذكور) ، كما يدعو الشباب اليهودي الى الانخراط في جيوش البلاد التي يعيشون فيها والمشاركة في حروبها للسبب التالي :

« وبهذه الطريقة ستحصل قواتنا المقاتلة على محاربين واجهوا الموت مما سيعزز هيبة جيشنا » (٢٣٢) ·

من المعروف ان الاستعمار الاستيطاني الاوروبي الكلاسيكي كان ينزع دائما الى احتكار ملكية اكبر مساحة ممكنة من الارض وافضلها والسيطرة على الموارد الطبيعية للبلاد من اجل تحويل سكانها الى بروليتاريا مستغلة ومدفوعة للعمل في مناجم المستوطنين ومزارعهم ومشاريعهم بأجور رخيصة جدا · اما الاستيطان الصهيوني فانه بالاضافة الى ممارسة هذه السياسة كان يريد ، في التحليل الاخير، اجلاء السكان وطردهم خارج ارضهم الوطنية بعد ارساء قواعد وجوده باستغلال عملهم،كما اشار هرتزل الىذلك بوضوح· لذلك نجد ان المستوطنين الاوائل في فلسطين كانوا يعتمدون على اليد العاملة العربية اعتمادا شبه كلي ان كان في مستوطناتهم الزراعية او في الاعمال الاخرى التي كانوا يمارسونها مثل المقاولات والبناء وغير ذلك من المشاريع ذات الطابع المدني · ولا بد من الاشارة هنا الى ان البورجوازية اليهودية العليا كانت تمول المستوطنات الزراعية المذكورة في حين كانت تسيطر عليها بيروقراطية ادارية تخدم « البارون » صاحب رؤوس الاموال ويحتل فيها المالكون من المستوطنين مواقع البورجوازية الريفية التي تعيش على فائض القيمة الذي تنتجه اليد العاملة العربية · كما انه كان قد تم اختيار مواقع هذه المستوطنات وتوزيعها على أسس اخذت بجدية ، الاعتبارات الاستراتيجية والدفاعية المتعلقة بحماية مجتمع المستوطنين وضمان مستقبله (٢٣٣) · وخلافا لما تزعمه الكتابات الصهيونية نظر هؤلاء المستوطنون الى سكان فلسطين من حيث انهم عقبة مادية تقف في طريق بناء الوطن القومي اليهودي

---

(٢٣١) المرجع السابق ج ١ ، ص ٣٨ · الترجمة العربية ، ص ٣٥٢ ·

(٢٣٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٥ ·

(٢٣٣) **The Rothschilds,** p. 207.

وانه لا بد من ازاحتها عندما يحين الوقـــت المناسب ، تماما كما نظروا الى ضرورة تجفيف المستنقعات في البلاد كي تصبح صالحـــة لسكناهم · يذكر الكاتب اليهودي موشيه مينوحين (٢٣٤) الذي نشأ في مجتمع المستوطنين في فلسطين كيف جرى تلقينه هو وبقية الاطفال ضرورة كـــون الوطن اليهودي نقيا من العرب غير اليهود (٢٣٥) ·

كذلك ترك لنا كاتب اخـــر هو م· سميلانسكي سجلا لمناقشة جرت بين مجموعة من المستوطنين اليهود في فلسطين تعكس بوضوح تام سيادة هــذه العقلية في اوساطهم :

« يجب علينا ان نذهب شرقا ، اي الى شرقي الاردن · سيكون في ذلك امتحانا لحركتنا » ·

« هراء ··· اليس هنالك ما يكفي من الارض في اليهودية والجليل ؟ »

« اراضي اليهودية والجليل يشغلها العرب » ·

« حسنا ، سنأخذها منهم » ·

« كيف ؟ » (صمت)

« الثوري لا يسأل اسئلة ساذجة » ·

« حسنا ، ايها « الثوري » اخبرنا كيف » ·

« الامر بسيط جدا · سوف نضايقهم حتـــى يخرجوا ··· ليذهبوا الى شرقي الاردن » ·

صوت قلق يسأل : « وهل سنتخلى عن كل شرقي الاردن ؟ »

« حالما يصبح لنا مستوطنة كبيرة هنا سنستولي على الارض ، وسنغدو

---

(٢٣٤) والد الموسيقار الشهير ولاعب الكمان الدولي يهودي مينوحين ·

(٢٣٥) Menuhin, Moshe, **The Decadence of Judaism in Our Time,** The Institute of Palestine Studies, Beirut, 1969, p. 52.

اقوياء ، عندها سنهتم بالضفة اليسرى (من النهـــر) · سنطردهم من هناك ايضا · ليعودوا الى البلاد العربية » (٢٣٦) ·

الا ان الحركة الصهيونية لم تبدأ باتخاذ الاجراءات الجدية المؤدية الى اجلاء الشعب العربي الفلسطيني عن وطنه بصورة تدريجيـــة الا مع موجة الهجرة الثانية الى فلسطين (١٩٠٥ ـ ١٩١٤) · في هـــذه الاثناء كانت الادوات المتقدمة لتنفيذ استعمار الارض واستيطانهـــا قد اصبحت جاهزة ، مثلا : انشاء « المؤسسة الفلسطينية اليهوديـــة للاستعمار » من خلال دمج المستوطنات اليهوديـــة في فلسطين التابعة لكـــل من البارون ادموند دي روثتشايلد والبـــارون موريس دي هيرش · وافتتـــاح البنك الانكليزي ـ الفلسطيني عام ١٩٠٣ ، وابتداء الصندوق القومي اليهودي بشراء الاراضي في فلسطين عام ١٩٠٥ · وافتتـــاح « مكتب فلسطين » عام ١٩٠٨ في يافا برئاسة آرثر روبين · وتأسيس « صندوق فلسطين لتطوير الاراضي » فـــي العام نفسه وفي مدينة يافا ايضا · اما الدعائم التي قامت عليها سياسةاجلاء الشعب الفلسطيني عن ارضه الوطنية فكانت :

١) عد الارض التي يشتريها الصندوق القومي اليهودي ملكا « للشعب اليهودي » مما يحرم نهائيا اعادة بيعها او تأجيرهـــا او العمل عليها لغير المستوطن اليهودي ، اي تصبـــح قطعة الارض هذه غريبـــة تماما على اهل فلسطين ويحرم عليهم الافـــادة منها بأي شكل من الاشكـــال في الحاضر والمستقبل · كما خضعت عمليات الحصول على الارض الى سياسة صهيونية بعيدة النظر وصفهـــا رئيس مجلس ادارة الصنـــدوق القومي اليهودي ، أ· جرانوت على النحو التالي :

« وهكذا جرى ربـــط اهداف متعددة ـ السياسة القـــومية والامن والاستراتيجية ـ بهدف الاستيطان وذلك من خلال حيازة الارض · لقد تـــم لحم هذه الاشياء كلها معا في سياسة موحدة ومنتظمة وهادفة وبعيدة النظر خدمت عمليات الدفاع والبناء في وقت واحد » (٢٣٧) ·

(٢٣٦) لوبل ، ص ١٢٠ ·

(٢٣٧) خالدي ، ص ٣٩٧ · انظر ايضا « تهويد فلسطين » ، ص ١٣٣ ـ ١٥٤ ·

٢) سياسة « العمل العبري فقط » التي تحـــرم على المستوطنين اليهود استخدام اليد العاملة العربية بأي شكل من الاشكال ومهما كانت الظروف . وشن انصار هذه السياسة حملة واسعة ضد المستوطنات اليهودية الاولى التي كانت قد اعتادت الاعتماد على العمال والفلاحين العـــرب وطالبوها باحلال المهاجرين والمستوطنين اليهود محلهم. ولم يكن من السهل على هذه المستوطنات التكيف مع سياسة العمل العبري بسرعة وسهولة وبخاصة انها كانت واقعة، كمشروعات رأسمالية، تحت اغراءات تدني أجور اليد العاملة العربية بالمقارنة مع الاجور المرتفعة التي كان يتقاضاها المهاجرون اليهود . وقامت المنظمــة الصهيونية بدفع الاموال الى ارباب العمل اليهـــود واصحاب المستوطنات الزراعية الخ . لتعويضهم عن الخسارة التـــي كانوا يتحملونها من جراء تطبيقهم لسياسة العمل العبري واستغنائهم عن اليد العاملة العربية .

٣) مقاطعة المنتجات العربيةبعد ان اصبح مجتمع المستوطنين فيفلسطين قادرا على الانتاج السلعي .

٤) بناء قوة عسكرية متقدمة ومتفوقـــة ـ من حيث تنظيمها وحداثتها واساليب قتالها ـ على الامكانات المتوفرة للشعب الفلسطيني الذي انتقل من سيطرة الاستعمار العثماني الى هيمنة الانتداب البريطاني وحليفته الحركـة الصهيونية .

حققت هـــذه السياسة نتيجتين بالغتي الاهميـــة بالنسبة للحركة الصهيونية .

أولا : طرد الفلاحين العرب من الاراضي التي كان يشتريها المستوطنون اليهود من الملاكين العرب الكبار ومن الاسياد والاقطاعيين وحكومة الانتداب، وتحويلهم بذلك الى عمال مأجورين مع منعهم في الوقت نفسه من العمل فـي القطاع الاقتصادي اليهودي بموجب تطبيق مبـدأ « العمل العبري فقط » ، أي الاستغناء عنهم اقتصاديا استعدادا للاستغناء عنهـم جسديا وجماعيا فيما بعد .

وانطلقت حركة الكيبوتز عام ١٩٠٧ كاحدى الادوات الاساسية للتخلص من اي وجود عربي في حياة مجتمع المستوطنين عـــن طريق حراثة الارض وزراعتها والعمل عليها وتوسيعها بالعمـــل العبري وحده . وبحكم تخلف البورجوازية الفلسطينية يومها وضعف قطاعها الرأسمالي في اقتصاد البلاد لم تتمكن من استيعاب الفلاحين المطرودين وتحويلهم الى بروليتاريا بالمعنـى الاقوى للعبارة .

ثانيا : خلق قطاع اقتصادي رأسمالي مستقل ومتكامل تابع للمستوطنين اليهود يعيش في عزلة شبه كاملة عن الحياة الانتاجية والاستهلاكية للشعب الفلسطيني ويوفر مستوى مرتفعا من الارباح والاجور والخدمات ، وبخاصة قياسا لما هو قائم في البيئة المحيطة . حدد المسؤول عن مكتب فلسطين في حيفا ، آرثر روبين ، هدف الحركة الصهيونية في فلسطين امام المؤتمر الصهيوني عام ١٩١٣ على انه :

« خلق محيط يهودي واقتصاد يهودي مغلقين يكون فيهما المنتجون والمستهلكون والوسطاء بأجمعهم من اليهود » (٢٣٨) .

ووصف مراقب اخر ذو ميول صهيونية الوضع نفسه على النحو التالي:

« لقد ساعدت الزيادة الحاصلة في الثروة والسكان وفي الامكانات الاجتماعية والاقتصادية المتاحة الصهيونيين على بلوغ درجة مدهشة من الاكتفاء الذاتي وعلى تجاهل جيرانهم العرب حتى في المدن المختلطة مثل حيفا والقدس ، كما ساعدتهم على المد من عمر الوهم القائل بأن البلاد خالية » (٢٣٩) .

واضح ان الحركة الصهيونية تبعت سياسة الابارثايد العنصرية في بناء المجتمع الانعزالي للمستوطنين فأعطته نقابات عمالية قائمة على أسس شوفينية صارمة معادية للعمال العرب ، ومدارس خاصة به كليا ، ومؤسسات سياسية واجتماعية وعسكرية مستقلة تماما عن محيطها العربي شكلت كلها مجتمعة الحالة الجنينية للدولة اليهودية التي انبثقت عنها اسرائيل فيما بعد. يضاف الى ذلك ان الحركة الصهيونية دفعت سياسة الابارثايد هذه الى حدودها القصوى بالتخطيط والعمل لاجلاء الشعب الفلسطيني عن ارضه بديل السيطرة عليه فحسب والافادة من طاقاته كما يحدث عادة في مجتمعات المستوطنين البيض في افريقيا مثلا .

على الرغم من ان موجة الهجرة اليهودية الثانية ارست دعائم مجتمع المستوطنين في فلسطين وثبتت هيكله العام الا انها لم تنجح في رفع عدد

(٢٣٨) Ruppin, Arthur, **Three Decades of Palestine**, Schocken, Jerusalem, 1963, p. 62.

(٢٣٩) « تهويد فلسطين » ، ص ١٩٥ .

السكان اليهود الى اكثر من حوالـــي ٥٦,٠٠٠ نسمة (١٢,٠٠٠ منهم من المستوطنين فقط) حتى عام ١٩١٨ مقابل حوالي ٦٤٤,٠٠٠ عربي فلسطيني . كما ان الملكية اليهودية للارض لم تكن تزيد في تلـــك الفترة عن ٢,٢٪ من مساحة فلسطين ، الا انها كانت مركزة في المناطق الخصبة . وليس من شك في انه لولا صعود الفاشية في عدد من الـدول الرأسمالية وشبه الرأسمالية بعد الحرب الامبريالية الاولى والتأثيرات الواسعة التي تركتهـا في العـالم الرأسمالي كله لما تمكن تحالف الامبريالية البريطانية والحركة الصهيونية من تعزيز الهجرة اليهودية الى فلسطين ورفع عدد المستوطنين فيهـا الى مستوى اعلى بكثير من الاعداد المذكورة اعلاه . على سبيل المثال في الفترة الواقعة بين صدور وعد بلفـور وسنة ١٩٢٤ لم يهاجر الـــى فلسطين سوى حوالي ٣٤,٠٠٠ يهودي (موجة الهجرة الثالثة) بينما هاجر ، في الفترة ذاتها ، ما يزيد عن ٢٤٠,٠٠٠ يهودي من اوروبا الشرقية الى الولايات المتحدةالامريكية وحدها . ومن المعروف ان البورجوازية في بولندة ورومانيا كانت قد بدأت ، في الفترة المذكورة ، حملة قوية من الاضطهاد والقمـع ضد يهود البلاد بهدف طردهم من مواقعهم الاقتصادية التقليدية والحلول محلهم . لكن مع حلول عام ١٩٢٤ كانت حكومة ستانيسلو جرابسكي الفاشية في بولندة قد عززت الحملة المعادية للسامية الامر الذي صعد حركة الهجـــرة في اوساط البورجوازية اليهودية . وبما ان الابواب كانت قد اغلقت في وجـــه المهاجرين اليهود الى بلدان مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وجنـــوب افريقيا اندفعت اعداد كبيرة منهم باتجاه فلسطين حيث اندمجوا في مجتمع المستوطنين وعززوه بشكل ملحوظ . وبطبيعة الحال كان لتسلم الحـزب النازي السلطـة في المانيا عام ١٩٣٣ ولسياسة الاضطهاد الرسمي لليهـــود في الداخل وفي بلدان المناطق التي تم احتلالها فيما بعد اعظم الاثر في تقوية حركـــة الهجرة اليهودية الى فلسطين . ففي عام ١٩٣٥ لم تسمح الولايات المتحدة بادخال اكثر من ٦٢٥٢ مهاجر يهودي من الهاربين من الاضطهاد النازي ، أما الارجنتين فلم تسمح بادخال سوى ٣١٥٩ مهاجرا ، كما ان البرازيل وكندا لم توافقا الا على دخول اعداد ضئيلة جدا فسمحت الاولى بادخال ١٧٥٨ يهوديا والثانية بادخال ٦٢٤ يهوديا . وفي مقابل ذلك استوعبت فلسطين ٦١٨٥٤ مهاجرا بموافقة سلطات الانتداب (٢٤٠) بالاضافة الى عدد كبير من المتسللين .

(٢٤٠) لاكور ، « تاريخ الصهيونية » ، ص ٥٠٧ .

طبعا ، كان لا بد لمجتمع المستوطنيـــن في فلسطين بما يقوم عليه من مبادىء اجلائية توسعية من ان يصطدم بمقاومة عنيفــة من جانب جماهير الشعب الفلسطيني ٠ وقد تجلت هذه المقاومة في سلسلة من الصدامات الدامية والانتفاضات الشعبية والثورات المسلحة الموجهة في وقت واحد ضد السيطرة البريطانية المشرفة على عملية بناء الوطن القـــومي اليهودي ، وضد مجتمع المستوطنين الذي كان ينمو ويتعزز باستمرار ويهيمن بشكل متزايد على مقدرات البلاد ٠ وحتى تاريخ اندلاع الحرب الامبريالية الثانية كان تحالف الاستعمار الانكليزي مع مجتمع المستوطنين المسلح هو الاداة الرئيسية لمواجهة المقاومة الجماهيرية العربية وقمعها ٠ وقد وصف بن غوريون التعاون الوثيق(وبخاصة التعاون العسكري) بين سلطة الانتداب والوجـــود الصهيوني في فلسطين بالعبارات التالية :

« لقد تم تحقيق التعاون الكامل والناجح كليا بين اليهود والبريطانيين عندمـــا قام ضابط بريطاني بارز ـ تشارلز أورد وينغيت ـ بتأسيس السرايا الليلية الخاصة ٠ كان ذلك بمثابة خطوة عملية نحو تأسيس قوة عسكريـــة يهودية ضمن اطار الجيش البريطاني » (٢٤١) ٠

وعلى الرغم من ضخامة جهاز القمع العسكري البريطاني ـ الصهيوني لم تهدأ مقاومة الشعب الفلسطيني (التي اخذت شكل ثورة شعبية مسلحة بين ١٩٣٥ـ١٩٣٩) حتى عشية اندلاع الحرب الامبريالية الثانية٠عندها اضطرت الحكومة البريطانية ـ تحت ضغـــط الثورة في فسلطين مـــن ناحية والخطر العسكري النازي من ناحية اخرى ـ لاصدار الكتاب الابيض (١٩٣٩) الذي قدم عددا من التنازلات امام المطالب العربية الرسمية ، مثل الوعد بالحد مـن الهجرة اليهودية وايقافهـــا نهائيا بعد خمس سنوات ، والحـــد من النشاط الصهيوني في تملك الاراضي ، واعطاء البـــلاد شيئا من الحكم الذاتي وما ينطوي عليـــه من مؤسسات ٠ وليس من الضروري ان نؤكـــد ان الحركة الصهيونية عارضت الكتاب الابيض بشدة مع انه لم يكن الا تراجعا تكتيكيـا مؤقتا من قبل الامبرياليــــة البريطانية بهدف كسب الوقـــت (وكان مجتمع المستوطنين اول من افاد من هذا الوقت) وتهدئة الاوضاع في فلسطين عشية اندلاع الحرب في اوروبا ٠

....

(٢٤١) خالدي ، ص ٣٧٤ ٠ انظر أيضا ، ص ٣٧٥ ـ ٣٨٧ ٠

وشهدت فترة الحرب تطورين هامين في فلسطين :

أولا : النمو الكبير والسريع الذي طرأ على اقتصاد البـــلاد وبخاصة القطاع اليهودي نتيجة حاجات المجهود الحربي الانكليزي في المنطقة واضطراره للاعتماد على الموارد والمنتجات المحلية · وقد دعـــت هذه الاوضاع الدولة المستعمرة (بكسر الميم) الى تعزيز الاقتصاد فـي فلسطين وتشجيع الانتاج لان البلد شكل قاعدة من قواعد الامبريالية البريطانيـــة الاساسية في الشرق الاوسط · ونتيجة لهذه الظروف وجد مجتمع المستوطنين ، في الايـام الاخيرة للحرب ، انه اصبح يمتلك اقتصادا ديناميكيا ناميا ، وجيشا منظمـا اكتسب خبرات عسكرية كبيرة خلال الحرب ، وتنظيمات سياسية فعالة تشكل « دولة داخل الدولة » ، بالاضافة الى ايديولوجية شوفينية متشددة، مما جعله يتحرك بسرعة باتجاه المطالبة بالاستقــلال السياسي عن الدولة الامبريالية الام · بعبارة اخرى اصبح من المتعذر عودة الامور في فلسطين الــى ما كانت عليه قبل الحرب بالنسبـة للسيطرة البريطانيـة لان مصالـــح مجتمع المستوطنين (وبخاصة مصالح البورجوازية المهيمنة عليه) كما تبلورت وترسخت في فترة الحرب اصبحت متناقضة تماما مع الحكم الاستعماري المباشر · لذلك رفــع المستوطنون شعار الاستقلال السياسي وبدأوا القتال ضد القوات البريطانية في عام ١٩٤٤·كانت حربهم تمرد جالية من المستوطنين على الدولة الامبريالية التي حمت عملية الاستعمار التي قاموا بها وشجعتها في المحل الاول · هــذا الامر يشبه الى حد كبير تمرد الاقليات البيضاء في عـــدد من المستعمرات الافريقية على الدولة الاوروبية الام التي كانت علة وجودهم في المستعمرة·اي ان مجتمع المستوطنين اليهود في فلسطين وصل الى مرحلة من النضج حتمت عليه السعي لاعادة صياغة ارتباطاته العضوية والحياتية بالنظام الامبريالي بشكل عام بحيث يتخلص من مرحـــلة الاشراف المباشر الذي تفرضه الدولة الكولونيالية القديمة ·

ثانيا : بروز الولايات المتحدة الامريكية كقائدة للمعسكـــر الامبريالي وحلولها محل بريطانيا في هذا الدور مما أدى الى تراجع التحالف الصهيوني البريطاني الكلاسيكي لصالح التحالف الصهيوني الامريكي الجديد الذي اخذ يؤكد نفسه بقوة على الصعيدين المحلي (في فلسطين) والعالمي · في الواقع تمكنت الحركة الصهيونية منذ منتصف العشرينات من التقاط الدلائل المشيرة الى الدور الرئيسي والهام الذي غدت الولايات المتحدة مرشحة لان تقوم به في

المستقبل القريب داخل المعسكر الرأسمالي ـ الامبريالي · لذلك بذلت الحركة جهودا كبيرة لتوسيع قاعدتها ونفوذها في الاوساط اليهودية الامريكية ولتمتين علاقاتها مع الدوائر الحاكمة في تلك البلاد · ولم يكن توسيع الوكالة اليهودية عام ١٩٢٩ ،بحيث يكون ٤٠٪ من اعضائها الجدد مواطنين امريكيين،الا تعبيرا عن هذا الاتجاه · ونتيجة التحول الذي طرأ على ميزان القوى داخل المعسكر الامبريالي لصالح الولايات المتحدة تمكن الجناح « الامريكي » داخل المنظمة الصهيونية ، بقيادة بن غوريون ، من السيطرة على الحركة · وتكرست هذه السيطرة بصورة رسمية في المؤتمر الصهيوني الذي عقد في فندق بيلتمور في نيويورك عام ١٩٤٢ بحضور مندوبين من الولايات المتحدة واوروبا ومجتمع المستوطنين في فلسطين · وافق المؤتمر على سلسلة من القرارات والمطالب عرفت باسم برنامج بيلتمور (٢٤٢) عبرت تعبيرا ممتازا وصريحا عن وصول مجتمع المستوطنين في فلسطين الى مرحلة تأكيد ذاته من حيث هو قوة مستقلة نسبيا ومستعدة للانطلاق في عملية الاستيلاء على فلسطين واجلاء شعبهاعن ارضه الوطنية · وقد اشاد برنامج بيلتمور بالجهود الصهيونية الاستعمارية الاستيطانية في فلسطين بالعبارات التالية :

« لقد جعلوا الارض المقفرة تعطي ثمارا والصحراء تزهر· اما انجازاتهم الرائدة في الزراعة والصناعة ، هذه الانجازات التي جسدت انماطا جديدة من السعي التعاوني ، فقد سجلت صفحة فذة في تاريخ الاستعمار » (٢٤٣) ·

ثم طالب : أ) بالتخلي الكلي عن الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ ، ب) بوضع كل شؤون الهجرة والاستعمار والاستيطان في فلسطين تحت اشراف الوكالة اليهودية ، ج) برفع كل الحدود والحواجز امام الهجرة اليهودية الى فلسطين وامام عمليات استعمارها · وعلى اثر تبني المجلس العام للمنظمة الصهيونية العالمية برنامج بيلتمور بينت المنظمة الصهيونية في فلسطين انها تعمل لتحقيق الاهداف التالية :

---

(٢٤٢) راجع ، خالدي ، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٧ ·

(٢٤٣) المرجع السابق ، ص ٤٩٦ ·

١) « دولة يهودية ذات سيادة تشمل فلسطين وربما شرق الاردن » ٠

٢) « نقل سكان فلسطين العرب الى العراق في وقت لاحق » ٠

٣) « قيادة يهودية للشرق الاوسط بأكمله في ميداني التنمية الاقتصادية والسيطرة الاقتصادية » (٢٤٤) ٠

وبطبيعة الحال لم يكن هذا الاتجاه التوسعي الاجلائي الواضح شيئا طارئا او جديدا على مجتمع المستوطنين في فلسطين اذ كان بن غوريون قد افصح عنه بجلاء تام امام المؤتمر الصهيوني السابع عشر المنعقد عام ١٩٣١ حيث قال متذرعا بالحجج الكلاسيكية التي يلجأ لها المستعمرون دوما :

« لا يشكل نهر الاردن بالضرورة الحد الدائم لهجرتنا واستيطاننا ٠٠٠ ويحق لنا ان نطالب بحق الدخول الى شرق الاردن والاستيطان فيه دون ادخال اي تعديل على الانتداب٠ ان اغلاق شرق الاردن في وجهنا لا يتفق مع الانتداب كما هو قائم من ناحية ولا يأخذ بعين الاعتبار الحاجات الاقتصادية الملحة لمنطقة خصبة ولكنها ضئيلة السكان ومعدمة من ناحية ثانية » (٢٤٥) ٠

واتصف رد فعل الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة على برنامج بيلتمور وعلى سيطرة « الجناح الامريكي » في المنظمة الصهيونية بالترحيب الحار ٠ على سبيل المثال اعلن متحدث باسم الرئيس روزفلت عام ١٩٤٤ ان الولايات المتحدة لم توافق في يوم من الايام على الكتاب الابيض وانها تدعو الى فتح ابواب فلسطين على مصراعيها للهجرة اليهودية ، كما اكد الدعم الشديد لانشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين (٢٤٦) ٠ وقد عدت المنظمة الصهيونية هذا الاعلان :

« اول تعبير يتصف بالوضوح القاطع عن التعاطف مع الاهداف

---

(٢٤٤) **Foreign Relations of the United States 1943; Vol. IV, The Near East and Africa,** Washington D.C., 1964, pp. 776-777.

(٢٤٥) « تهويد فلسطين » ، ص ٣٥ ٠

(٢٤٦) Kadi, Leila S., **A Survey of American-Israeli Relations,** Palestine Research Center, Beirut, 1969, p. 20.

الصهيونية يصدر عن زعيم دولة من الدول الكبرى منذ ان بدأت الحرب » (٢٤٧) .

وكان الكونغرس الامريكي قد اتخذ قرارا في السنة نفسها تضمن مطالب برنامج بيلتمور بنصها الحرفي . نص القرار على انه :

« تقرر ان تقوم الولايات المتحدة باستخدام مساعيها الحميدة وباتخاذ الاجراءات المناسبة من اجل فتح ابواب فلسطين امام اليهود ليدخلوها بحرية، وان تكون الفرصة متاحة كليا للاستعمار كي يتمكن الشعب اليهودي ، في المطاف الاخير،من اعادة بناء فلسطين كدولة يهودية حرة ديمقراطية »(٢٤٨).

وجدير بالذكر انه في هذه الفترة بالذات كانت كل من السياسة الامريكية والصهيونية تستغل المأساة الضخمة التي حلت بيهود اوروبا على ايدي النازية بالدعوة لفتح ابواب الهجرة اليهودية الى فلسطين على مصراعيها وبرفض اتخاذ اي اجراء من شأنه فتح ابواب الهجرة ، ولو قليلا ، الى الولايات المتحدة نفسها من اجل المساعدة على تأمين مأوى لقسم من هؤلاء المشردين (٢٤٩). لذلك رحبت قيادة الحركة الصهيونية بقرار السلطات الامريكية بعد الحرب بابقاء ابواب الولايات المتحدة مغلقة في وجه الهجرة اليهودية على الرغم من قساوة القرار ولا انسانيته الصارخة في تلك الظروف الصعبة .

واضح من هذا التبني الامريكي لبرنامج بيلتمور انه تم ابرام التحالف المصلحي العضوي بين الامبريالية الامريكية (المندفعة للحلول محل الامبراطوريات القديمة المتداعية ، بخاصة في الشرق الاوسط) من جهة ، وبين الحركة الصهيونية ومجتمع المستوطنين التابع لها في فلسطين من جهة ثانية . وقام هذا التحالف بدور اساسي في تنفيذ مخططات الامبريالية الامريكية الرامية الى تطويق الاتحاد السوفياتي وكتلة الدول الاشتراكية ، ومواجهة حركات التحرر الشعبية المعادية للامبريالية في العالم العربي وكبحها ، بالاضافة الى تثبيت نظام الاستعمار الجديد في هذه المنطقة الغنية بالبترول .

---

(٢٤٧) المرجع السابق ، ص ٢١ .
(٢٤٨) المرجع السابق ، ص ١٩ ـ ٢٠ .
(٢٤٩) المرجع السابق ، ص ٢١ ـ ٢٥ . خالدي ، ص ٥٧٧ ـ ٥٩٣ .

في ربيع عام ١٩٤٧ قررت الحكومة البريطانية احالة القضية الفلسطينية الى هيئة الامم المتحـــدة الواقعة تحت سيطرة الولايـــات المتحدة وحلفائها والحكومات العميلة لها · وجاء هذا القرار على اثر الاعلان الرسمي عن عزم الحكومة البريطانية انهاء انتدابها على فلسطين بسبب التعارض الاساسي بين مصالح سكان البلاد ومطالبهم السياسية من ناحية ومجتمع المستوطنين فيها من ناحيــة ثانية · طالب الجانب العربي بالاستقـلال السياسي لفلسطين مع ضمان حقوق الاقلية اليهودية فيها الا ان السلطـــات البريطانية رفضت هذا المطلب · أما مجتمـــع المستوطنين فكان يقاتل من اجل اقامـــة دولة يهودية للمستوطنين على ارض البلاد ·

اما في هيئة الامم فقد القى الحلف الامريكي ـ الصهيوني بكل ثقله الى جانب تنفيذ مشروع تقسيم فلسطين الذي تقدمت به اللجنة التي عينها مجلس الامن لدراسة المشكلة · وقضى الاقتراح بانشاء دولتين على ارض فلسطين : الاولى تابعة للاقلية اليهودية المستوطنة (ثلث مجموع سكان فلسطين يومها) وتضم ٥٦٪ من ارض البلد ، والثانية تابعة للاكثرية العربية وتضم ٤٣٪ من مساحتها ، بالاضافة الى تدويل مدينة القدس وضواحيها ووضعها تحت ادارة هيئة الامم · رفض الشعب الفلسطيني اقتراح التقسيم رفضا مبدئيـا قاطعا بمساندة قوية وتضامن شديد من جانب الجماهير العربيــة في كل مكان · اذ انه على الرغم من الجهود التي بذلتها الحركة الصهيونية بالتعاون مع الانتداب البريطاني لم يتمكن مجتمع المستوطنين من السيطرة على اكثر من ٧٪ من مجموع مساحة فلسطين وذلك حتى ايار (مايو) ١٩٤٨ · ومن اجل تحطيم هذا الواقع اقترح مشروع التقسيم اعطاء ٥٦٪ من مساحة البلاد الى الاقلية اليهوديــة المستوطنة · هذا بالاضافة الى ان مشروع التقسيم استند الى سياســة سلب الشعب الفلسطيني حقه المبدئي والطبيعي في تقرير مصير وطنه وهي السياسة التي كانت قد اتفقت الجبهة البريطانيــة ـ الامريكية ـ الصهيونية في اعقاب الحرب الامبريالية الاولى على عدم تطبيقها بالنسبة للشعب الفلسطيني حتى على مستوى الشكليات المحض ، كما بينا سابقا ·

في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ وافقت الجمعية العامــة لهيئة الامم على مشروع التقسيم بعد ان مارست الولايات المتحدة ضغوطا شديدة على عدد من الدول الصغيرة المترددة او المعارضة للمشروع من اجـــل تبديل موقفها والتصويت لصالح اقراره · كتب مساعد وزير الخارجية الامريكي يومها ما يلي حول هذا الموضوع :

« بناء على امر مباشر من البيت الابيض قـــام المسؤولون الامريكيون بتوجيه ضغوط مباشرةعلى البلدان غير المسلمة التي كان يبدو موقفهامتأرجحا او معارضا للتقسيم · وقد استخدم البيت الابيض المندوبين والوسطاء لضمان الاكثرية المطلوبة عند حلول ساعة الاقتراع النهائي » (٢٥٠) ·

اما وزير الدفاع الامريكي وقتئذ ، جيمس فورستول ، فقد انتقد صراحة اساليب التهديد والقسر التي استخدمتها السلطات الامريكيـــة للضغط على حكومات بعض الدول ومبعوثيها في هيئة الامم من اجل تأمين الاكثرية المطلوبة لانجاح قرار التقسيم واصفا اياها « بالفضيحة » (٢٥١) ·

على الرغم من قرار التقسيم الذي صدر عن هيئة الامم لم يكن في نيـة مجتمع المستوطنين التقيد بحدوده ، بل كان كل شيء يشير الى عكس ذلك، اي الى الاستعداد للاستيلاء على اكبر مساحة ممكنـــــة من فلسطين بعد اجلاء السكان عنها·بدأ المستوطنون حملتهم العسكرية لتحقيق هذا الغرض قبل شهر ونصف من موعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين (١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨) ودخول اية قوات عربية اليها · وقد وصف بن غوريون منجزات هذه الحملة بالعبارات التالية :

« مع انتشار القتال امتد الخروج (العربي) ليشمل البدو والفلاحين ، في حين لم يهجر اليهود بيتا واحدا حتى في الاماكن النائية · ولم يكن بامكان اي عمل تقوم به الادارة (البريطانية) المتداعيـــة ان يمنعنا من الوصول الى هدفنا في ١٤ ايـــار ١٩٤٨ داخل دولة وسعتها الهاغنـــاه واعطتها طابعها اليهودي » (٢٥٢) ·

---

(٢٥٠) Welles, Sumner, **We Need Not Fail,** Houghton Mifflin, Boston, 1948, p. 63.

(٢٥١) Millis, Walter (ed.), **The Forrestal Diaries,** The Viking Press, New York, 1951, p. 363.

(٢٥٢) خالدي ، ص ٨٠١ · جدير بالذكـر هنا ان « يوميات جيمس فورستول تبين ان حكومة الولايات المتحدة كانت تفكر جديا بارسال قواتها المسلحة الى فلسطين من أجل تنفيذ قرار التقسيم وفرضه اذا دعا الامر لذلك (انظر المرجـع السابق ، ص ٤١١) ·

وقد وصل هذا الهجوم الشرس لمجتمع المستوطنين الى ذروته في مذبحة دير ياسين الشهيرة (٩ نيسان ١٩٤٨) التي حققت هدفها في دفع المزيد من المواطنين الفلسطينيين العزل من السلاح الى النزوح. وكانت النتيجة انه عشية انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين كان اكثر من ٤٠٠ الف من شعبها قد تحولوا الى لاجئين. وارتفع هذا العدد الى حوالي المليون عند الاعلان الرسمي عن تحول مجتمع المستوطنين اليهود في فلسطين الى دولة اسرائيل. والواقع هو ان الشعب الفلسطيني واجه في هذه الحملة اعتى جيش ظهر بين جيوش المستوطنين خلال تاريخ الاستعمار الاستيطاني الحديث كله ، ان كان ذلك من حيث تنظيمه او تدريبه او التخطيط البعيد النظر لاعداده او تفوقه التقني العام على كل ما حوله (٢٥٣) . هذا مع العلم بأن السلطات البريطانية كانت قد شردت القيادات الوطنية الفلسطينية وعملت جهدها لتدمير الحركة الشعبية وتنظيماتها وحرمت على الجماهير اقتناء السلاح وقمعت ثوراتها بأقصى عنف . على سبيل المثال كتب خبير عسكري اسرائيلي ما يلي حول تأثير القمع البريطاني لثورة ١٩٣٦ على نجاح مجتمع المستوطنين اليهود في حملتهم الاخيرة لاجلاء الشعب الفلسطيني والاستيلاء على ارضه :

« ادت هذه المواجهة مع البريطانيين الى تدمير القوة العسكرية العربية في فلسطين ، كما كانت مسؤولة عن التصفية الجزئية للقيادة العربية في البلاد. بعد ثلاث سنوات من الحرب غير المتكافئة تم تدمير القوة العسكرية العربية . بينما نجح اليهود في الفترة نفسها في بناء قوتهم وتدعيمها بحماية بريطانيا. لو لم تقع احداث ١٩٣٦ في الوقت الذي وقعت فيه ولم تجر على النحو الذى جرت عليه بالفعل لكان من المشكوك فيه ان يتمكن المجتمع اليهودي من شن حرب للاستقلال بعد ثماني سنوات . لقد خرج المجتمع اليهودي من احداث ١٩٣٦ الخطرة وهو في وضع اقوى بفضل الدعم القوي الذي تلقاه من الحكومة البريطانية وجيشها في فلسطين » (٢٥٤) .

وحتى بعد انتهاء الانتداب البريطاني ودخول الجيوش العربية قسما من فلسطين لم تتخطى هذه القوات الحدود التي اقرتها الامم المتحدة للدولة

(٢٥٣) انظر « تهويد فلسطين » ، ص ١٩٩ .

(٢٥٤) لوبل ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

العربية في قرار التقسيم ، كما ان مشاركتها في الحرب لم تكن جادة علـــى الاطلاق لاسباب عديـــــدة اهمها ارتهان الزعمات العربيـــة وقتئذ بمصالح الامبريالية البريطانية في الشرق الاوسط · ليس من الغـــريب اذن ، في مثل هذه الظروف ، ان يتمكـــن مجتمع المستوطنين المتفـــوق عسكريا وتنظيميا وسياسيا من تحقيق اهدافـــه في طرد اكثرية الشعب الفلسطيني من ارضـــه الوطنية واقامة دولة اسرائيل فوق القسم الاكبر من مساحتها · كما انه ليس غريبا ان تظهر اسرائيل بسرعة بمظهر « الجيتو » الرجعي المدجـــج بالسلاح والمرتبط عضويا بمصالح الامبريالية الامريكية في الشرق الاوسط ، والمستعد دوما للتوسع العنيف ولضرب اي تحرك وطني او ثوري او وحدوي في المنطقة من شأنه ان يهدد استمرار هيمنة نظام العلاقات الامبريالية فيها ·

١٠ ـ صادق جلال العظم، «دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية»، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٠ ٠

١١ ـ عبد الوهاب كيالي ، « تاريخ فلسطين الحديث » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ ٠

١٢ ـ كارل ماركس ، «الايديولوجية الالمانية» ، ترجمة جورج طرابيشي، دار دمشق ، دمشق ، ١٩٦٥ ٠

١٣ ـ كارل ماركس ، « المسألة اليهودية » ، ترجمة محمد عيتاني ، الناشر غير مذكور وكذلك التاريخ ٠

١٤ ـ كارل ماركس ، « نصوص حول اشكال الانتاج ما قبل الرأسمالية » ، دار ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٤ ٠

١٥ ـ لينين ، « الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية » ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٦٧ ٠

١٦ ـ لينين ، « نصوص حول المسألة اليهودية » ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٢ ٠

١٧ ـ مجموعة من الكتاب السوفييت ، «الصهيونية نظرية وممارسة» ، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين مع دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٤ ٠

١٨ ـ محمود زايد ، « تاريخ فلسطين ١٩١٤ ـ ١٩٤٨ » ، دار القدس، بيروت ، ١٩٧٤ ٠

١٩ ـ مكسيم رودنسون ، « اسرائيل واقع استعماري » ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٧ ٠

٢٠ ـ ناجي علوش ، « الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ ـ ١٩٤٨ » ، مركز الابحاث ورابطة الادباء في الكويت ، بيروت ، ١٩٧٤ ٠

٢١ ـ وليم شكسبير ، « تاجر البندقية » ، ترجمة خليل مطران ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ٠

٢٢ ـ يوري ايفانوف ، « احذروا الصهيونية » ، وكالة انباء نوفوستي، موسكو ، ١٩٦٩ ٠

المراجع الاجنبية

1) Abu-Lughod, I., (ed.) **The Transformation of Palestine,** Northwestern University Press, Evanston, 1971.

2) Adler, Joseph, **The Herzl Paradox,** Hadrian Press & Herzl Press, New York, 1962.

3) Agwani, M.S., «The Palestine Conflict in Asian Perspective», **The Transformation of Palestine,** Evanston, 1971.

4) Arendt, Hannah, **Antisemitism,** Harcourt, Brace & World Inc., New York, 1968.

5) ———, **Eichmann in Jerusalem,** The Viking Press, New York, 1963.

6) ———, «Zionism Reconsidered», **Zionism Reconsidered,** edited by Michael Selzer, Collier-Macmillan Ltd., London, 1970.

7) Avnery, Uri, **Israel Without Zionists,** Collier-Macmillan Ltd., London, 1970.

8) Berlin, Isaiah, **Chaim Weizmann,** Farrar, Strauss & Cudahy, New York, 1958.

9) Bober, Arie (ed.), **The Other Israel,** Doubleday & Co., New-York, 1972.

10) Crossman, H.S., **A Nation Reborn,** Atheneum, New York, 1960.

11) Elon, Amos, **The Israelis: Founders and Sons**, Weidenfeld & Nicolson, London, 1971.

12) **Foreign Relations of the United States 1943; Vol. IV, The Near East and Africa**, Washington D.C., 1964.

13) Gobineau, J.A., **Essai sur l'Inégalité des Races Humaines**, Paris, 1854, 1940.

14) Halbrook, Stephen, «The Class Origins of Zionist Ideology», **Journal of Palestine Studies**, Beirut, Vol. II, No. 1, 1972.

15) Hertzberg, A., **The Zionist Idea**, Harper Torchbooks, New-York, 1959.

16) Herzl, Theodor, **The Complete Diaries**, 5 vols., Herzl Press, New York, 1960.

17) ———, **The Jewish State**, 2nd edition, The Zionist Organization, London, 1934.

18) Hess, Moses, **Rome and Jerusalem**, Bloch Publishing Co., New York, 1918, 1945.

19) **Jewish Observer and Middle East Review**, London, February, 28, 1964.

20) Kadi, Leila S., **A Survey of American-Israeli Relations**, PLO Research Center, Beirut, 1969.

21) Khalidi, Walid, **From Haven to Conquest**, The Institute for Palestine Studies, Beirut, 1971.

22) Kimche, Jon, **Palestine or Israel**, Secker & Warburg, London, 1973.

23) Kimche Jon and David, **The Secret Roads**, Secker & Warburg, London, 1954.

24) Kobler, Franz, **The Vision Was There: A History of the British Movement for the Restoration of the Jews to Palestine**, Lincolns-Prager Ltd., London, 1956.

25) Laqueur, W., **A History of Zionism**, Weidenfeld & Nicolson, London, 1972.

26) Lenczowski, G. (ed.), **The Middle East in World Affairs**, Cornell University Press, Ithaca, N. Y., 1956.

27) Lenin, V., **Complete Works**, Vol. 23, Moscow, 1964.

28) ———, **Imperialism, the Highest Stage of Capitalism, Selected Works**, Vol. I, Part II, Moscow, 1952.

29) Leon, A., **The Jewish Question, A Marxist Interpretation**, Pathfinder Press, New York, 1970.

30) ———, **La Conception Matérialiste de la Question Juive**, Etudes et Documentation Internationales, Paris, 1968.

31) Lewisohn, Ludwig (ed.), **Theodor Herzl**, World Publishing Co., Cleveland, 1955.

32) Lobel, Elie, «Palestine and the Jews», **The Arab World and Israel**, Monthly Review Press, New York, 1970.

33) Marx, K., **Capital**, Vol. III, Moscow, 1962.

34) ———, **The Grundrisse**, Penguine Books, London, 1973.

35) ———, «On the Jewish Question», **Karl Marx, Early Texts**, translated and edited by D. McLellan, Blackwell's, Oxford, 1972.

36) Marx, K., & Engels, F., **Selected Correspondence, 1846-1895**, International Publishers, New York, 1942.

37) ———, **The German Ideology**, Moscow, 1964.

38) Meinertzhagen, R., Colonel, **Middle East Diary 1917-1956**, Yoseloff, New York, 1960.

39) Menuhim, Moshe, **The Decadence of Judaism in our Time**, The Institute of Palestine Studies, Beirut, 1969.

40) Millis, Walter, (ed.), **The Forrestal Diaries**, The Viking Press, New York, 1951.

41) Morton, Frederick, **The Rothschilds**, Atheneum, New-York, 1962.

42) Rabinowicz, Oskar, K., «Herzl, Architect of the Balfour Declaration, **«Herzl Year Book**, Vol. I, Herzl Press, New York, 1958.

43) ———, «Herzl and England», **Herzl Year Book**, Vol. III, Herzl Press, New York, 1960.

44) Rodinson, Maxime, «Israel, fait colonial?», **Les Temps Modernes**, Paris, No. 253, 1967.

45) Ruppin, Arthur, **Three Decades of Palestine**, Schocken, Jerusalem, 1963.

46) Schechtman, Joseph, **Fighter and Prophet, the Vladimir Jabotinsky Story: the Last Years**, Thomas Yoseloff, New-York, 1961.

47) ———, **Rebel and Statesman, the Vladimir Jabotinsky Story: the Early Years**, Thomas Yoseloff, New York, 1956.

48) Shakespeare, William, **The Merchant of Venice.**

49) Sidebotham, Herbert, **England and Palestine: Essays towards the Restoration of the Jewish State**, Constable and Co. Ltd., London, 1918.

50) Sokolow, Nahum, **History of Zionism**, 2 vols., Longmans, Green & Co., London, 1919.

51) Stein, Leonard, **The Balfour Declaration**, Valentine-Mitchell, London, 1961.

52) Tuchman, Barbra, **Bible and Sword: England and Palestine from the Bronze Age to Balfour**, Alvin Redman Ltd., London, 1957.

53) Weizmann, Chaim, **Trial and Error**, Hamish Hamilton, London, 1949.

54) Welles, Sumner, **We Need not Fail,** Houghton, Mifflin, Boston, 1948.

55) Zimmern, Alfred, **The War and Democracy,** Macmillan, London, 1914.

56) Zukerman, William, **The Jew in Revolt,** Martin Secker & Warburg Ltd., London, 1957.

المحتويات

مطبعة الرأي الجديد
بيروت - تلفون ٢٣٠٠٣١
ص ب ٢٨١٠-١١

الثمن : ٦٠٠ ق. ل. او ما يعادلها